



المجلس الأعلى للغة العربية



التوارق

بين السلطة التقليدية والإدارة الفرنسية
في براية القرن العشرين

أ/محمدي حسن

منشورات المجلس 2010

• كتاب:

• إعداد:

• قياس الصفحة: 23/15.5

• عدد الصفحات:

الإيداع القانوني:

رادمك:

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرونكلين روزفلت - الجزائر

ص.ب 575 الجزائر _ ديدوش مورا

الفاكس: 021.23.07.07

الهاتف: 021.23.07.24/25

التوارق بين السلطة التقليدية
و الإدارة الفرنسية
في بداية القرن العشرين

- مرموري حسن

الإهداء

إلى روح عبد الله بوغراري .. الدائم

كلمة الشكر

نتقدم بشكرنا الجزيل إلى الأستاذ الدكتور عبد الغني مغربي الذي قبل الإشراف على الرسالة موضوع البحث، وقدم لنا الكثير من المعلومات النظرية والمنهجيّة .

تشكراتنا الخاصة أيضا إلى كل من ساعد من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا العمل من الزملاء والأصدقاء .

تشكراتنا الخاصة إلى إدارة وعمال الحظيرة الوطنية للتاسيلي:
الإدارة التي هيئت لنا الظروف والوسائل التقنية للعمل.
والعمال الذين شجعوا وساعدوا في إنهاء العمل.

المحتويات

تقديم

المقدمة	ث
---------------	---

الفصل الأول

المقاربة المنهجية العامة

31-25	 مجال البحث
25	 1- المجال النظري
30	 2- المجال الجغرافي
33	 مجال البحث
41-34	 3- المجال النظري
34	 4- المجال الجغرافي
37	 5- المجال الزمني
39	 مجال البحث
47-42	 6- المجال النظري
42	 7- المجال الجغرافي
45	 1- المصادر المكتوبة
45	 2- المصادر الشفوية
46	 (2) التقنيات
60-47	 ■ الدراسات السابقة
49	 أ - المراحل
49	 (1) مرحلة المغامرة (الإستكشافية)
50	 (2) المرحلة الإستعمارية
50	 - فترة الإتصال العنيف
52	 - فترة السلم الإستعماري
54	 (3) المرحلة بعد الإستعمارية

54	ب- الإتجاهات في حقل الدراسات حول التوارق.....
55	▪ الإتجاه الأول.....
55	▪ الإتجاه الثاني.....
56	▪ الإتجاه الثالث.....
57	ج- الباحثون الوطنيون.....
57	1- في مالي ونيجر.....
59	2- في ليبيا والجزائر.....
60	د- الباحثون المحليون.....
	الفصل الثاني
	الظاهرة الاستعمارية ونظرية الصراع العصبي
78-65	I-الظاهرة الاستعمارية وتطورها.....
67	▪ مثال فرنسا.....
70	▪ السياسة الاستعمارية.....
71	1- نظام الإخضاع.....
72	2- نظام الإدارة المباشرة.....
74	3- نظام الإدارة غير المباشرة.....
83-79	II-الأنثروبولوجيا والسياسة الاستعمارية.....
102-84	III-السلطة التقليدية والنظرية الخلدونية.....
84	العصبية والصراع العصبي.....
84	1) العصبية : المفهوم.....
84	2) أساس العصبية.....
86	3) العصبية والملك.....
91	أ- العصبية والرياسة.....
92	ب- من الرياسة إلى الملك.....
96	4) الدولة وتطورها: الدورة العصبية.....
103	مستويات تطور الدولة.....

- أ - طور التأسيس..... 107
 ب- طور العظمة والمجد..... 108
 ت - الهرم والإضمحلال..... 109

الفصل الثالث

السلطة التقليدية: نشأتها وسيرورتها

- 1- التأسيس..... 124-115
 أ- الأصول الأولى..... 115
 ب- امان إنتهاء العصبية الأولى..... 117
 ت- اوراغن اعتلاء السلطة..... 119
 تشكل الحلف..... 131-124
 I. في أزجر..... 124
 1- اوراغن..... 124
 2- امان..... 125
 II. في الهقار..... 127
 1- كيل غل..... 130
 2- كيل تايتوق..... 130
 3- تجهي ملت..... 131
 2- التنظيم السياسي التقليدي..... 138-132
 I. امنوكال..... 132
 II. مجلس الشيوخ والأعيان..... 138
 3- قاعدة الحكم بين النظرية والتطبيق..... 160-140
 1- القاعدة..... 140
 2- تاريخ الحكم..... 143
 أ- في أزجر..... 143
 ب- في أهقار..... 150

الفصل الرابع

الجوسسة: الأنثربولوجيا في خدمة الإستعمار

191-163	محاولة التوغل السلمي
163	1- هورنمان.....
164	2- رينيه كاييه.....
165	3- ريشار دسون.....
167	4- بارث هنري.....
170	5- بودرية إسماعيل.....
173	6- دفرييه هنري.....
176	7- مهمة غدامس.....
178	8- اروين باري.....
179	9- مهمتا فلاترس.....
179	أ- نحو أزجر.....
183	ب- نحو الهقار.....
188	10- فورو - لامي.....
191	ملخص الفصل

الفصل الخامس

الدين: وسيلة للغزو الروحي

شارل دي فوكولد

197	التنشئة والمحيط الاجتماعي
199	الحياة العسكرية
199	1- مدرسة سان سير (Saint Cyr).....
200	2- مدرسة سومر (Saumur).....
201	الضلال: أزمة الوجدان
202	المغامرة الى المغرب: اليهودية وسيلة

207	النتائج.....
209	الطريق الى الرب: التحول.....
211	زيارة الأماكن المقدسة.....
212	العودة الى الصحراء.....
212	1- بني عباس.....
216	2- تمرناست.....
216	أ- الزيارة الاولى 1904: الفشل.....
218	اسباب الفشل.....
221	ب- الزيارة الثانية 1905: الاستقرار.....
228	اسباب الاستقرار.....
231	كيف يرى التوارق.....
235	كيف يراه التوارق.....
238	مهمته اثناء الحرب العالمية الاولى.....
247	النهاية: هل للسوسية دور ؟.....

الفصل السادس

القوة والدبلوماسية: خياران لا بد منها

I- القوة:

262-255	أ - الطريق نحو الهقار.....
255	1- إستطلاع بان 1900.....
258	2- كونتست 1902.....
262	3- جبالو لوهان 1902.....
268-263	ب- الطريق نحو أزجر.....
263	1 - النقيب بان 1897-1903 Pein.....
264	2 - الملازم باسي 1903.....
265	3 - النقيب توشارد 1904.....
268	4 - الملازم قارديل 1913.....

الدبلوماسية : الإخضاع من أجل الأمن الإستعماري II.

290-271	1- في اهقار
271	أ- المرحلة التحضيرية
278	ب- المعاهد الأولى
283	ت- المعاهد الثانية
321-209	2- في آزر
209	أ- التصعيد
295	ب- خضوعات مؤقتة
304	ت- الأتراك والمنطقة المحايدة
313	ث- التمردات: إختبار للخضوعات
319	ج- الخضوع النهائي
325	خاتمة ونتائج عامة
340	المراجع
349	المصادر الشفوية
351	الملاحق
	المسار المهني للمؤلف

تقديم للدكتور محمد العربي ولد خليفة..... إضافتها

مقدمة:

لقد شهدت بداية القرن العشرين أحداثا مهمة جدا، كانت عوامل مباشرة لتوجيه المسار (السوسيو تاريخي) بالصحراء الوسطى في جميع الميادين؛ السياسية، الاجتماعية والاقتصادية.

لكن هذه الأحداث لم تكن سوى تنفيذ لسياسة ما يسمى بالظاهرة الاستعمارية المباشرة، غداة انهيار الإمبراطورية العثمانية، وقيام الثورة الصناعية بأروبا.

وبالرغم من أن بروز الظاهرة كان بصفة عامة في بداية القرن التاسع عشر إلا أن بسط السيطرة على الصحراء لم يتم إلا بعد قرن من الإصرار. لم تكن الصحراء حينها ذات أهمية اقتصادية في نظر الإدارة الفرنسية، إلا أنها تمثل موقعا إستراتيجيا هاما؛ فهي تربط وتتوسط بين مستعمراتها في شمال إفريقيا ومستعمراتها في السودان والساحل الغربي لإفريقيا فأضحت هدفا لا بد منه مهما كان الحال. لكنهم لا يعرفون الكثير عن هذه المنطقة (آنذاك) إذ تعود المعلومات التي يمتلكونها إلى القرون الوسطى مما كتبه ابن خلدون، ابن بطوطة، اليعقوبي، ابن حواقل، الإدريسي، البكري... فهم مجهلون إلى حد ما التكوين الجغرافي والواقع السوسيلوجي للمنطقة؛ خاصة التنظيم السياسي، وعلاقات السلطة التقليدية التي هي جزء هام من البناء الاجتماعي للمجتمع التارقي كونها تتمتع بنفوذ واسع منذ القرن الخامس عشر (15) في كل من "أزجر" و"أهقار".

يرأس كل واحدة منها حاكم أسمى "أموكال" استطاع تأليف تحالف واتحاد مجموعات من القبائل والتي تولد عنها "الطبل" أو "كونفدرالية" المقننة بنظام تسلسلي قوي يخضع له أفراد الجماعة دون "مساواة"، تتناقل السلطة حسب "قاعدة" العرف الذي يسمح بالإنفراد "بالرئاسة" وفي هذا الإطار مازالت "العصبية" غير قابلة على أن تشكل العمود الفقري "للدولة" ولكنها تعتبر الوسيلة التي لا بد منها لبنائها حسب ابن خلدون.

هذه السلطة هي التي تقرر في الأمور السياسية؛ كالغزو، التحالف والمفاوضات، العلاقات الخارجية... والأمور القانونية؛ كسن الأعراف وحفظها، والسهر على تطبيقها ومعاقبة من يخالفها، وأخيرا في الأمور الإقتصادية؛ كالضرائب، التجارة، الرعي...

نجد هذا التنظيم نفسه في كل من "زجر" و"أهقار". بينما تمثل "الإدارة الفرنسية" دولة عصرية عظمى، بسلطاتها التشريعية، التنفيذية، القضائية وبمختلف مؤسساتها الاقتصادية الصناعية، التجارية، الإدارية، الاجتماعية والعسكرية خاصة.

نحن الآن أمام وضعية متناقضة، غير متكافئة (دولة وعصبية) تنوي الأولى الإستيلاء على كامل الصحراء الوسطى لبسط امبراطوريتها من البحر المتوسط إلى الساحل الغربي بدون حواجز، وإخضاع كل من يتواجد بها بثتى الوسائل.. بينما يرى ممثلو السلطة التقليدية ذلك استيلاء على "الملك" والسيادة وتهديدا "لكيان العصبية"، ولوائها ومصالحها، ومساسا حتى بالنظام التسلسلي الاجتماعي والقضاء على "العرف" الذي يعتبر مصدر شرعية السلطة التقليدية والذي تستمد منه إيديولوجيتها منذ بداية تأسيس "العصبية" والتي هي بدورها أيضا مازالت في طور التكوين. ان التمعن في هذه المسيرة

الطويلة يجعلنا نتساءل ؛ في خلال تاريخ هذه السلطة التقليدية هل كان فعلا يتم تناقل السلطة (توارث) حسب "العرف" المتفق عليه؟ أم أنها لم تستثن من ظاهرة الصراع على السلطة كقاعدة تاريخية للتغير؟ ثم هل أدركت فرنسا ديناميكية السلطة من خلال الدراسات (المعلومات) الانتوغرافية التي تحصلت عليها عن طريق المغامرين والجواسيس؟ وعلى إثر ذلك هل هيأت الإدارة الفرنسية - بحكم تجربتها مع مستعمراتها لاسيما مع المجتمعات المغاربية - مجالا للتنافس والصراع حول السلطة بين أفراد نفس الكونفدرالية وبين كونفدرالية وأخرى كوسيلة من بين وسائل الهيمنة والإخضاع؟

وهل بعد الهيمنة والخضوع استطاع زعماء الكونفدراليات الحفاظ على المؤسسات السلطوية للتنظيم السياسي (امنوكال، الشيوخ، الاعيان) الذي كان سائدا، وما يتبع ذلك من ترتيب اجتماعي وبكل صلاحياته السابقة مع ضمانه مستقبلا؟

أم هو بداية تلاشي البنية السلطوية والاجتماعية وبالتالي نهاية العصبية قبل مراحل تكوينها الأخيرة؟.

لم يحظ موضوع السلطة التقليدية لدى التوارق بعناية كافية إذا ما استثنينا بعض الدراسات المعزولة على حد ما. كما نلاحظ أيضا أن الأبحاث التي تمت حول هذا الموضوع لم تتميز بطابع الشمولية والتعمق في العناصر المكونة للسلطة خلال تعاقب الفترات التاريخية لذلك جاءت هذه الأبحاث ستاتيكية تعزل المجتمع عن حركيته وديناميكيته.

قام الأوروبيون بمعظم هذه الأبحاث لذلك كانت المناهج والمفاهيم المتبعة لا تصلح كثيرا لدراسة المجتمع التارقي مثلما يصلح مفهوم العصبية والمنهج الخلدوني، الذي نبع أصلا من دراسة المجتمعات المغاربية.

لهذا انصب اهتمامنا في استعمال هذا المفهوم ولأول مرة لمحاولة صياغة مقارنة نظرية لهذا التصور الذي يقدم لنا تفسيراً ملائماً لسياق الأحداث وحتميتها التاريخية، منذ النشأة إلى الاضمحلال.

وتشكل هذه الدراسة محاولة معرفة بنية السلطة التقليدية وإظهار مراحل تكوينها وتطورها تبعا للظروف المختلفة التي شهدتها، وإزالة الغموض الذي اكتنفها طويلا والفجوات العديدة التي تتخللها.

إن موضوع دراسة مثل هذا وعلى طريقة ابن خلدون يفرض علينا توجيه مجال البحث في جانبين: جانب نظري يلم بكل ما ورد سابقا من معطيات ومعلومات في الموضوع ويجعلها إطارا نظريا يهيئ ويسهل العمل في الجانب الثاني، المتمثل في التمهيد واختبار الأحداث الفعلية بالرجوع إلى ما تخزنه الذاكرة الجماعية لتفكيك وإعادة بناء الأحداث في الفترة المحددة وهذا بطريقة كرونولوجية يحترم فيها تتابع الأحداث وتلازمها.

حاولنا الإلمام بالموضوع في جوانب عديدة على النحو التالي:

الفصل الأول:

يتناول الإطار النظري لأدبيات البحث، وتحديد اتجاهه وأهم تساؤلاته في الإشكالية، مع ما نراه مناسبا من فروض، ثم تحديد مجال البحث في أبعاده الثلاثة (النظري، الجغرافي، الزمني).

كما تناول هذا الفصل أيضا المنهج والتقنيات المتبعة وأهم المصادر المستعملة أثناء الدراسة. وشرحا للمفاهيم العلمية التي تناسب الموضوع، واستعراض أهم آراء وانتقادات علماء الاجتماع السياسي حولها.

إلى جانب عرض نقدي للدراسات السابقة، ابتداء من المراحل التي شهدتها، والإتجاهات البارزة خلالها إلى غاية ظهور الباحثين المحليين في الميدان مدى مساهمتهم إثراءهم لتلك الدراسات.

الفصل الثاني :

يشمل التعريف بالظاهرة الاستعمارية وأهم المراحل التي مرت بها منذ ظهورها إلى غاية الاستقلالات ونهاية الاستعمار التقليدي، مع ما صاحبها من سياسات استعمارية تجاه السكان المحليين.

وتم ذلك بمساهمة فعالة من طرف بعض علماء الإثنولوجيا الذين قدموا تصورات مختلفة لأنظمة حكم الاستعمار وهيمنته، وكان الإشكال يدور حول هدم أو حفظ المؤسسات الاجتماعية المحلية.

كما تطرقنا أيضا في هذا الفصل إلى النظرية الخلدونية، المتمثلة في العصبية و الصراع العصبي والأسس التي تقوم عليها وكيف تنشأ وتتطور لتصبح دولة ثم تهزم وتندثر.

الفصل الثالث

خصصناه للسلطة التقليدية قبل الدخول الفرنسي وحاولنا إيجاد الأصول الأولى لنشأة العصبية الروايات التأسيسية للقبائل التي تعاقبت عليها وكونت أحلافا كبيرة في كلا الكونفدراليتين (آزجر وأهقار) وتناولنا أيضا المؤسسات السلطوية الناتجة عن حركية العصبية وقاعدة توارث السلطة واختبارها عبر تاريخ الحكم بصفة منفردة لمعرفة مدى احترامها وتطبيقها واكتشاف الأسباب الحقيقية التي تؤدي الى السلطة ومحاولة استخلاص نتيجة عامة.

الفصل الرابع

يتناول هذا الفصل حركة المغامرين ومساهماتهم الكبيرة في توفير المعلومات اللازمة في الميادين الجغرافية، المناخية والاتوغرافية للمنطقة ومدى مساهمة الجمعيات الاستكشافية التي لها علاقة مباشرة مع حكوماتها والتي وضعت وسائل وتحفيزات معتبرة أبهرت المغامرين الذين تدفقوا معرضين أنفسهم لكل المخاطر، فمنهم من أكمل المهمة ومنهم من قضى نحبه. ورغم كثرتهم الا أننا انتقينا عشرة منهم حسب أهمية الرحلات.

الفصل الخامس

الى جانب المغامرين الذين يتذكرون في مهمات علمية كانت هنالك حركة نشطة جدا للمبشرين والتي لم تكن بعيدة بدورها عن المراكز الحكومية والسياسة الاستعمارية. لذلك خصصنا فصلا كاملا للأب شارل دي فوكولد الذي يمكن اعتباره نموذجا لهذه الحركة كونه مغامرا، مستوطنا ومتعاوننا مع ضباط المنطقة. هذا ما يمكن استنتاجه من خلال سيرة حياته من الميلاد الى النهاية.

الفصل السادس

إن القوة والديبلوماسية وجهان متلازمان غالبا، فبفضل حجم الأولى يكون وزن الثانية أكبر وحظوظها أحسن وخياراتها أوسع بل ويمكن حتى فرض الشروط التي تناسبها. وهذا ماحدث بالمنطقة المدروسة حيث حولت الإدارة الفرنسية، بعد القهر والغلبة، وظائف السلطة التقليدية واستعمالها لتثبيت الأمن الاستعماري عن طريق معاهدات الخضوع.

خلاصة ونتائج عامة

عرضنا أهم النتائج المتوصل اليها والتي بوسعها تشكيل تمهيد لقراءة جديدة لتاريخ السلطة التقليدية.

الفصل الأول

المقاربة المنهجية العامة:

مجال البحث

المنهج والتقنيات

المفاهيم

الدراسات السابقة

لماذا هذا الموضوع؟

لم يكن المجتمع التارقي محل اهتمام الباحثين والطلبة عندنا .فهذه عشر سنوات تمر على تقديمنا لموضوع (التوارق المستقرون) والذي لم يدعم بأي موضوع آخر في نفس المجال طوال تلك الفترة .

إن الأسباب التي أدت بنا إلى اختيار هذا الموضوع هي ذاتها تقريبا الواردة في الموضوع الأول وهي:

- أولا: إزالة الأوهام والأفكار المسبقة التي طغت كثيرا حول ثقافة وتاريخ هذا المجتمع من خلال دراسة السلطة التي هي جزء حيوي وفعال من البنية الاجتماعية، لإعادة النظر في المعطيات والتفسير الواردة في هذا المجال من مختلف الاتجاهات والنظريات.

- ثانيا: سهولة الاتصال مع المبحوثين التي تسمح بالتغلب على بعض الصعوبات وتساعد على الانطلاق من نقطة بعيدة والذهاب إلى أبعد منها.

غير أن السبب الثاني المذكور في اختيار الموضوع لا ينفي وجود صعوبات موضوعية ناجمة أحيانا من تحفظ المبحوثين وترددهم.

لكن الصعوبة الأكبر تتمثل في عدم احتفاظ هؤلاء بأي نوع من الأرشيف الخاص وهذا ما يصعب التحقق من الأرشيف الاستعماري حول نفس المنطقة الذي يعد نادرا بدوره ولم يكشف عن الكثير منه إلى حد الآن.

مجال البحث:

1- المجال النظري:

يتناول موضوعنا التنظيم السياسي للسلطة التقليدية والعوامل الداخلية والخارجية التي اثرت وتؤثر في نشأتها وبنيتها، علاقاتها وتفاعلاتها مع المحيط الخارجي في فترات تاريخية معينة. والسلطة موضوع لكل من علم السياسة، الأنثروبولوجيا، التاريخ، الإجتماع السياسي.

وسنحاول أن نعالج الموضوع في إطار هذا الأخير مستندين على الأحداث السياسية التاريخية في تلك الفترات المهمة لأن "كل واقعة اجتماعية هي واقعة تاريخية والعكس صحيح، وينجم عن ذلك أن التاريخ وعلم الاجتماع يبحثان عن نفس الظواهر الاجتماعية"⁽¹⁾ لأن الإطار التاريخي للأحداث السياسية هو الذي يمكننا من التعرف على كيفية نشأة هذه الأحداث⁽²⁾. والتركيز على السلطة يعني أن الموضوع يشمل جانبا من السياسة التي تعرف باختصار "فن حكم المجتمعات الإنسانية... وعلم حكم الدول"⁽³⁾ هذا التعريف يجعل من الحكم في الدول خاصة موضوعا للسياسة لكن التعريف الحديث يشمل حكم الدول.

وحكم كل المجتمعات الإنسانية الأخرى وكلمة الحكم عندئذ تعني السلطة المنظمة في المجتمعات الإنسانية كافة⁽⁴⁾.

1 - السيد الحسني، علم الاجتماع السياسي المفاهيم والقضايا، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1984 ص 07

2 - السيد الحسني، علم الاجتماع السياسي المفاهيم والقضايا، دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1984 ص 07

3 - موريس ديفرجيه، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة جمال الأتاسي وسامي الدوبي، دار دمشق للطباعة، ص 06

4 - المرجع السابق، ص 06

ويقترح علماء الاجتماع التميز بين الجماعات الصغيرة والجماعات الكبيرة، لأن التنافس على السلطة في الجماعات الصغيرة انما يقوم بين أفراد السلطة نفسها التي يقتصر تنظيمها السياسي على العلاقات بين الحاكمين والمحكومين بين الزعماء الأعضاء. أما في الجماعات الكبيرة فإن الصراع السياسي يتناول طوائف اجتماعية وفئات وسيطة تنشأ داخل المجتمع الكلي ويكون فيها التنظيم السياسي على شكل سلمي متماسك.

وإذا كان علم السياسة يقتصر على دراسة الظواهر السياسية بمعزل عن الظواهر الاجتماعية الأخرى فإن علم الاجتماع السياسي يهتم بدراسة الظواهر السياسية من حيث تأثيرها وتأثرها بالظواهر الاجتماعية⁽¹⁾.

بمعنى أن علم الاجتماع السياسي يدرس العوامل التي تؤثر في السلوك السياسي بشكل أعمق وذلك عن طريق ربط السياسة بالبناء الاجتماعي الكلي وتحليل ذلك السلوك في ضوء العلاقات الاجتماعية والاقتصادية المعقدة التي تدخل في تكوين ذلك البناء، والمقصود بالسلوك السياسي هنا العملية السياسية والفعل السياسي على السواء⁽²⁾.

لقد حاول علماء الاجتماع السياسي البحث في مجاله وموضوعه منذ ظهوره كمصطلح في منتصف القرن العشرين (1945)⁽³⁾.

سارتوري Sartori يقدم لنا تعريفا عاما على أنه هجين متداخل المعرفة، يهتم بدراسة الروابط بين السياسة والمجتمع، بين البنى الاجتماعية والبنى السياسية وبين السلوك السياسي والسلوك الاجتماعي، بينما يرى لويس كروز أن علم الاجتماع السياسي هو فرع من علم الاجتماع يدرس الأسباب

1 - محمد السويدي، علم الاجتماع السياسي، ميدانة وقضاياها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1990 ص 09

2 - محجوب محمد عبدة، الأنثروبولوجيا السياسية، مقدمة لدراسة النظم السياسية في المجتمعات القبلية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1976 ص 10 .

3 - محمد السويدي، المرجع السابق، ص 09 .

والنتائج الاجتماعية لتوزيع القوة داخل المجتمعات أو بين بعضها والبعض الآخر ويدرس أيضا الصراعات السياسية والاجتماعية التي تؤدي إلى تغيرات في توزيع القوة.

أما غاستون فيري أن علم الاجتماع السياسي يمثل فرعاً من فروع علم الاجتماع العام ويبحث في أربعة مجالات:

1- يحلل الأنظمة كما يحلل سائر الظواهر السياسية في علاقاتها مع الظواهر الاجتماعية الأخرى.

2- يدرس الظواهر السياسية بوصفها إنجازات وتصرفات نوعية للمجتمعات البشرية و بالتالي يمكن ملاحظتها.

3- يدرس نشأة النظم وسيرها وتماثل الأجهزة السياسية في مختلف الحضارات، ونشأة الرأي العام وتكوينه والسياسات التي بموجبها يشعر بالاختلافات الاجتماعية وبمختلف أنواع الظروف وكيفية تفسير المجتمعات لحاجاتها واختياراتها على الصعيد السياسي والعلاقات بين البنى المادية والبنى الثقافية والطبقات والأنظمة.

4- وأخيراً يدرس مختلف أنواع الأحداث السياسية وأشكال العمل السياسي.

بينما نجد موريس ديفرجيه يوافق لويس كروز باعتبار علم الاجتماع السياسي كعلم "للّقة" بمعنى الحكم والسلطة والسيطرة لدى المجتمعات الإنسانية كافة.

لكن يعتقد دفرجية⁽¹⁾ أن تعريف علم الاجتماع السياسي كعلم السلطة يخلق بعض الصعوبات الراجعة إلى مفهوم السلطة في حد ذاته.

¹ - Duvirger (Morice), *Sociologie de la politique*, Presse Universitaire de France 1973, P 25.

إذا كان بعض القانونيين يذهبون إلى التمييز بين "الحكام" و "المحكومين" في كل الجماعات الإنسانية من الأصغر إلى الأكبر، من الزائل إلى المستقر، هناك من يحكمون ومن يطيعون، من يصدرون الأوامر ومن يخضعون لها، من يتخذ القرارات ومن يتلقاها، فإن دفرجيه يرى أن هذا التمييز ليس واضحاً كما يبدو إلا في المجتمعات الصغيرة جداً. وفي الحقيقة التمييز يفترض بين "السلطة" و "النفوذ" (أو القوة)، ويعني بالنفوذ "الفعل الذي يمكن شخصاً ما أن يدفع شخصاً آخر للقيام به، والذي لا يمكن أن يقوم به دون ذلك، وعليه فإن كل علاقة إنسانية غير متساوية تحمل نفوذاً"⁽¹⁾.

ويستنتج ديفرجيه أن السلطة يمكن أن تخصص لصنف خاص من النفوذ أو القوة: الذي يتناسب مع نسق المعايير والقيم، والذي اعتبر شرعياً⁽²⁾. ويبقي ابن خلدون المثل النموذجي لدراسة علم الاجتماع السياسي، بحيث يتطرق عنده إلى دراسة كيفية تكوين السلطة والدولة ومدى علاقة ذلك بقوة "العصبية" أضعفها، سواء كانت مبنية على صلات: الدم، المصاهرة، الجوار، الولاء أو على صلة الاصطناع (الجند).

وفي ذلك يقول: "اعلم أن مبنى الملك على أساسين لأبد منهما، فالأول الشوكة والعصبية المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأموال"⁽³⁾.

تعود فعالية دراسة ابن خلدون إلى وصفه لأحوال الاجتماع السياسي كما هي عليه وانشغاله التام بالمدن والدول الواقعية لا بالمدن الفاضلة أو المثالية أو مدينة الله التي انشغل بها الفرابي، أفلاطون، القديس أوغيسطين.

¹ -Ibid , P 26

² - Duverger ,op-cit, P 27

³ -ابن خلدون، المقدمة ص 294

وقد استخدم في ذلك المناهج والتقنيات الميدانية من الملاحظة إلى المنهج التاريخي مستعينا بما جمعه من مادة علمية في الميدان وبما درس في كتب التاريخ ومن ثم توصل إلى وصف الوقائع الاجتماعية السياسية كما هي وحللها مستخرجا منها ما تنم عنه من قواعد وقوانين. وهي المناهج والتقنيات التي لا بد منها.

فعلى الباحث في علم الاجتماع السياسي حسب غاستون بوتول أن يصل إلى نظريات شاملة وإدراك تقسيم الوقائع الذي لا بد منه عن طريق **عرض تركيبي**.

ولبلوغ هذه الغاية يأخذ علم الاجتماع السياسي مصادره بين المعطيات الهائلة للتاريخ ؛ تاريخ الأحداث، تاريخ الأنظمة العامة، وأوجه التشابه والاختلاف الأمر الذي يمكنه من وضع نموذج للأحداث والأنظمة والبنى والسلوكيات والحوافز والدوافع⁽¹⁾.

وعلى كل فإن علم السياسة وعلم التاريخ و علم الاجتماع السياسي هي علوم مكملة لبعضها البعض وحصر البحث في هذا الأخير لا يعني فصله عن التاريخ.

ولا عن السياسة، على العكس فإنه لا يمكن أن يتم البحث دون الاستفادة من كل العلوم التي يقع في مجالها والنتيجة ستكون محصلة الفروع الثلاثة للمعرفة.

2- المجال الجغرافي:

يشمل نفوذ السلطة مجالا واسعا جدا، على شكل وحدات سياسية مستقلة عن بعضها البعض، الهقار، أزجر، اضاغ، آير. يطلق على كل

¹ - محمد السويدي ، مرجع السابق ، ص 12

واحدة منها إسم "الطبل" الذي يشير إلى وحدة سياسية مستقلة عن باقي الوحدات السياسية من نفس المجموعة الثقافية لـ "كيل تماهق" القاطنين بالصحراء والسودان على مساحة تقدر بحوالي 2.500.000 كلم².

يفصل هذه الوحدات التي يرأس كل منها "أمنوكال" خطوط افتراضية أو "تسراض" معترف بها عند كل القبائل وتحدد مناطق ونفوذ كل وحدة. ولقد أطلق عرب القرون الوسطى على هذا النظام اسم "المملكات" كما جاء في كتاب لابن بطوطة في قوله: "ولهم ملك يطاع" ثم اعتبرها المغامرون الأوائل "إمارات" مقارنة بالتنظيمات العربية وكانوا يسمون "أمنوكال" بـ "الأمير"، ثم قارنوها بالنظام الاجتماعي الاستقرائي الإقطاعي الذي ساد أوروبا في القرون الوسطى فاعتبروها إقطاعيات "Féodal"⁽¹⁾ ثم استقر بهم الرأي أخيرا في تسمية الكونفدراليات.

لكن التنظيم الخاص لـ "الطبل" يختلف عن كل هذه التنظيمات؛ ليس ملكيا لأن نظامه الوراثي الأمومي معاكس تماما للنظام الملكي الأبوي ولنفس السبب يختلف عن الإمارة بالإضافة إلى كونه يشمل تحالفات أكبر من "الإمارات" التي هي جزء من نظام الخلافة. وهو بعيد كل البعد عن الطابع الفلاحي والاقتصادي المرتبط أساسا بنظام ملكية الأرض ووسائل الإنتاج في النظام الإقطاعي. ولكنه يشبه قليلا نظام الكونفدراليات باعتباره يتأسس من حلف قبلي موحد ومستقل ذاتيا وهو إحدى مراحل تطور العصبية "يتولد عن اتحاد قبائل عديدة ما يعرف بـ قوم أو شعب، عرق، كونفدرالية"⁽²⁾. ولذلك سنستعمل كلمة كونفدرالية لاحقا للإشارة فقط على نظام "الطبل". اقتصرنا

¹ -Denis (P), *L'évolution des Tropes Sahariennes Françaises*, Thèse de doctorat, Sorbone, 1966, P28

² - عبد الغني مغربي، مرجع سابق، ص 153

على أزجر والهقار كون جزء كبير من الأولى وكل الثانية تنتمي الآن إلى الجزائر ولا تطرح مشكلا في التنقل والاختيار المزدوج سيسمح لنا من إيجاد معلومات أكثر تساعدنا في المقارنة واختبار المتغيرات بوجه أفضل.

يشكل توارق اهقار وأزجر ما يسمى "توارق الشمال"، تميزا لهم عن "توارق الجنوب" في كل من مالي والنيجر وبوركينا فاسو.

يتوسط كل من اهقار وأزجر نظام منعزل من الجبال، وهي كتلتان تمثلان ذروة هضبة الصحراء الوسطى، ونقطة تقسيم مياه بين حوض البحر الأبيض المتوسط وحوض المحيط الأطلنطي.

تشمل أزجر كامل هضبة التاسيلي ثم تمتد إلى "إن أزو" وتنتري، أسيو جنوبا لتفصلها عن أير وعن التبو. في الغرب تفصلها عن الهقار تفساست وأنهف.

أما في الشرق فيفصلها عن فزان الأراضي الواقعة شرق كل من غدامس ومرزوك اديري أوباري سردل.

وأخيرا يفصلها عن مناطق شمال الصحراء حمادة تيغريت والحافة الجنوبية للعرق الشرقي.

وهي تتحصر بذلك بين خطوط العرض 21° و 30° شمالا وخطوط الطول 5° و 14° شرقا. وتبلغ مساحتها 264.000 كلم² (1).

أما وحدة الهقار فتمتد شمالا إلى غاية حوض تيديكلت. و جنوبا إلى غاية قمم ادرار - ن - أفوغاس وآير. وغربا الحواف الشمالية لهضبة تادمايت وطريق القوافل الذي يربط اقبلي ب تين بكتو".

¹ - Dubief (Jean), *L'ajjer, Sahara central*, Karthala, Paris 1999, P 25

إذن فهي تتحصر بين 12° و 25° درجة شمالا وبين 3° و 6° درجة شرقا في مساحة تقدر بـ 530.000 كلم².

هذه على الأقل الحدود الفيزيائية المتطابقة تقريبا مع الحدود السياسية آنذاك، ولكن هذا لا يمنع بعض كيل ازجر مثلا من امتلاك أراض ومناطق لدى جيرانهم والعكس صحيح، خاصة في أنهف وامدغور، والأراضي الواقعة بين الكونفيدرالياتان فقد كانتا ولمدة طويلة تحت نفس السلطة.

3-المجال الزمني:

كما جاء في العنوان الموضوع محصور في بداية القرن العشرين، لكن ذلك لا يمنعنا من الرجوع إلى تواريخ حاسمة لها علاقة مباشرة بالوضعية الظرفية موضوع الدراسة لذلك يمكن تقسيم المجال الزمني إلى ثلاث فترات.

1- الفترة المحورية: 1900 - 1920 (بداية القرن العشرين)

وهي فترة الأحداث الناتجة عن قدوم الإدارة الفرنسية التي شكلت "تهديدا وعدوانا" للمصلحة المشتركة للجماعة "تحلة المعاش" وبالتالي إيقاظ العصبية.

2- 1750 - 1899: وهي الفترة التي شهدت اهتمامات أوروبا بالصحراء الوسطى، وانطلاق حركة المغامرين الأوائل والتي انتهت بالمهمات المنظمة من طرف الدولة لاستطلاع المنطقة المذكورة قبل غزوها.

3- القرون الوسطى:

إن مراحل نشأة التنظيم السياسي المذكور يجبرنا على العودة إلى الجذور الأولى حسب المصادر الشفوية وبعض المعطيات الأرشيفية التي ترجعه إلى هذا التاريخ.

المفاهيم

1- السلطة التقليدية:

بالرغم من وجود السلطة لدى كافة الجماعات الإنسانية، فإن مفهومها يبقى من أصعب وأعقد المفاهيم في العلوم الإنسانية. يرى (ميشل دينكن) أن "السلطة هي نوع من أنواع القوة التي تنظم جهود وواجبات الآخرين من خلال الأوامر التي تصدرها لهم"⁽¹⁾ وهو تعريف يقدم السلطة كمصطلح سياسي مرتبط بالأوامر وهذا مايرفضه (جان ويليام لابييار) قائلا: "السلطة ليست مفهوما سياسيا محضا، وإنما هي كالقانون، واقعة اجتماعية تكون حيث يكون هناك تجمع بشري"⁽²⁾ إذن فهي الوظيفة الاجتماعية التي تقوم على سن القوانين وحفظها وتطبيقها ومعاقبة من يخالفها، وهي أيضا التي تعمل على تغييرها وتطويرها كلما دعت الضرورة، وهي الوظيفة الملازمة لوجود الجماعة ذاتها ولتحقيق هذه الغاية يرى سميت ضرورة اللجوء الى وسائل الإقناع والإكراه معا حتى تكون للسلطة قدرة على التأثير الفعلي في الأشخاص⁽³⁾.

أما (بيتي J. Beattie) فيعتبر السلطة مفهوما خاصا للعلاقات الاجتماعية وتعني "القدرة على إجبار الآخرين ضمن نظام أو اخر في العلاقات بين الأفراد وبين الجماعات"⁽⁴⁾ مما يجعله مقتنيا لاثر (م.فيبر Max-weber) الذي يعرف السلطة بالإمكانية المتاحة لأحد العناصر داخل علاقات اجتماعية معينة لا يكون قادرا على توجيهها حسب مشيئته⁽⁵⁾ بينما

¹ - ميشال دينكن، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 1981، ص29

² - جان وليم لابييار، السلطة السياسية، ترجمة إلياس حنة إلياس، منشورات عويدات، بيروت، باريس 1977، ص84

³ - جورج بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة جورج إبي صالح، مركز الإتحاد القومي، ط1، بيروت 1986، ص37

⁴ - جورج بالاندييه، المرجع السابق، ص 37

⁵ - نفس المرجع، نفس الصفحة

يرى (بارسونس Parsons) ان هذه القدرة الشمولية تؤديها الوحدات المنتمية الى تنظيم نسقي من خلال واجباتها عندما تكون هذه شرعية تنتهي الى هدف جماعي⁽¹⁾

وعلى كل فاننا لانرى تناقضا بين بارسونس وماكس فيبر وهذا بالرجوع إلى تحليل هذا الأخير للسلطة وتصنيفه لانماطها.
أنماط السلطة:

تختلف الأنماط من حيث التعقيد على أساس مشروعية كل نمط.

1- السلطة الكارزمية:

تنعكس السلطة الكارزمية في شخصية الفرد الذي يتميز ببعض الصفات والمزايا المقدسة التي تدل على قابلياته الفذة وسحر شخصيته وصلاحيته للدور الذي سيلعبه.

ينفرد الزعيم ذو الأصل المقدس غالبا بسلطة لا تخضع للمناقشة ويتم اختياره على أساس عاطفي وليس على أساس مرتبته الاجتماعية التي يمثلها في سلم التفاوت الطبقي ولا يخضع القائد الكارزماي لقواعد التعيين والفصل والترقية وليس ثمة مجال محدود لاستخدام السلطة.

2- السلطة التقليدية:

وتقوم على أساس التقاليد المتوارثة التي تعطي الحق لبعض أعضاء المجتمع في الحصول على المراكز الاجتماعية المعينة بمعنى الاعتقاد بان نظمها ما هي إلا امتداد لنظم كانت موجودة في الزمن السابق وبذلك يقلد رئيسها منصبه بموجب مؤهلات معينة كانت شرعية في الماضي وان الأوامر

¹ - Duverger, (M). Op-Cit , P 26

التي يصدرها مدعمة بالأوامر التي كانت ماثلة في الزمن السابق ومتفق على التصرف بموجبها، وهذا يعني أن الجماعة تخضع للسلطة التقليدية وتطيع أوامر سلطتها بسبب شرعيتها التاريخية، وبسبب تعودها منذ زمن قديم على طاعة مثل هذه الأوامر. ويفتقر هذا النمط إلى وجود جهاز خاص يقوم بتطبيق القواعد والقرارات التي تصدرها السلطة ولا يقوم بين رجالها أي نوع من التفاضل الرئاسي أو بحكم نسق منظم للتعيين والترقية والتدريب الفني ولا يتقاضى هؤلاء أي مرتبات نقدية ثابتة كما لا تتميز العلاقات التي تقوم بين أعضاء المجتمع الذي تحكمه بالصورية أو الرسمية، فهم مرتبطون بعضهم البعض بعلاقات مباشرة وقوية في المجالات الاقتصادية والسياسية، وغالبا ما تقوم على أساس القرابة.

3- السلطة القانونية الرسمية:

وتقوم على أساس مبادئ قانونية والتي تنظم حقوق رجال هذه السلطة في إصدار الأوامر في مجالات معينة من النشاطات الاجتماعية، الدينية، العسكرية، الاقتصادية، الحكومية والعلمية، ولا ترتبط الحكومة القانونية بأنواع معينة من التقنين الذي يحكم العلاقات وأنماط التفاعل بين الأعضاء الخاضعين لهذه السلطة في مجالها المحدد. وكلما تميزت العلاقات بين الأعضاء في الوحدة الاجتماعية بالصورية والرسمية كلما كان هناك تنظيم رسمي يحدد القوانين والأوامر والنواهي فيما يتعلق بتنظيم السلوك في مجال معين وكلما كان هذا التنظيم يعتمد على موظفين يعينون لكفاءاتهم وتخصصاتهم بمرتبات محددة كلما تجسدت أمامنا السلطة القانونية التي يقوم

عمالها على نوع من التفاوت الرئاسي تحكمه موضوعية في الترقية والتعيين⁽¹⁾.

يتناسب مصطلحنا وموضوعنا مع النمط الثاني في المفهوم العلمي للسلطة وإن كان يساعدنا في تحليلها إلا أننا لا نتخذ نموذجاً للتحليل والذي اعتمدنا فيه على النموذج الخلدوني "العصبية" أما تركيب مصطلح السلطة بمفهوم "التقليدية" فهو للدلالة على التنظيم السياسي الذي كان سائداً في فترة البحث.

2- التنظيم السياسي:

كانت دراسة التنظيم السياسي أهم العلوم السياسية التي ارتبطت بأوثق العلاقات مع دراسة علم الاجتماع مما مهد لظهور علم الاجتماع السياسي ويستخدم هذا المصطلح إلى عهد قريب ليقصد به نظم الحكم المختلفة في الجماعات السياسية المختلفة، ودراسة الأشكال القانونية المختلفة لممارسة السلطة السياسية وهذا يعني أن دراسة التنظيم السياسي لدولة معينة ينبغي أن يقتصر على دراسة ممارسة السلطة السياسية في تلك الفترة كما ينظمها القانون القائم⁽²⁾.

لكن العلاقات السياسية لا تتجسد في أشكال تنظيمية معينة فالتنظيم لا يتخذ شكل الدولة فقط فهو يأخذ شكل التنظيم القبلي أيضاً وغياب الدولة لا يعني وجود المساواة الكلية بين أعضاء القبيلة، إن رئيس القبيلة الذي يجسد التعاون القبلي ينتمي إلى العشيرة أو الفصيلة المسيطرة وقد ألح ابن خلدون على هذه النقطة "أن القبيل الواحد وإن كانت... الاختلاف والتنازع"⁽³⁾.

1- محجوب محمد عبده، مرجع سابق، ص 285

2- تيسر عواد، محاضرات في النظم المقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2 1993

3- ابن خلدون، مقدمة ص72

لكن الشئ الذي يميز بعمق التنظيم السياسي القبلي هو غياب جماعة تحتكر أدوات القهر كما هو الحال عند الدولة؛ في القبائل كل الناس الشرعيين يحتفظون بالسلاح ودعم النظام يتحقق في الأساس على قاعدة من الاتفاق الخلقي. انتقد ابن خلدون هذه الوضعية قائلا "أما المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم الكافة ان يمتد على بعض أو يعدو عليه فهم مكبحون بحكمة القهر والسلطان على المظالم...وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة"⁽¹⁾.

على هذ الأساس يمكن أن نميز بين نوعين من القبائل⁽²⁾.

- قبائل بدون تنظيم سياسي، والتي تتطابق فيها العلاقات السياسية تقريبا مع علاقات القرابة.

- قبائل ذات تنظيم سياسي، والتي تصل فيها الأرستقراطية القبلية إلى أن تستقل ذاتيا وجزئيا وأن تضمن سيطرتها على باقي القبائل دون أن تقطع صلتها مع علاقات القرابة، ففي هذا التناقض بين السيطرة التي تمارسها الأرستقراطية القبلية ودعم العلاقات للتعاون القبلي يكمن المعنى العميق "للعصبية": "وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب مافوقها، فإذا بلغ رتبة السؤود والأتباع ووجد السبل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا"⁽³⁾. فما هي العصبية؟

¹ - نفس المرجع ص73

² - جغلول عبد القادر، الإشكالية التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت

1982، ص126

³ - ابن خلدون ، مرجع سابق ص79

3- العصبية:

حاول بعض شراح المقدمة تقديم العصبية على أنها "التماسك الاجتماعي" أو "روح التضامن"، "الالتحام القبلي"، "القراية بالعصب" أو "التضامن بالعصب"... الخ لكن حسب (عبد الغني مغربي) فإن هذه التعريفات لا تؤدي إلى المعنى الحقيقي لمفهوم العصبية⁽¹⁾ ويرى أن مفهوم العصبية يستهدف معنى سياسيا أكثر مما يستهدف معنى اجتماعيا، والعصبية لا تتعلق بعدد كبير من العوالم فقط بل متقلبة كذلك وغير مستتبة الوضع لينتهي إلى أن العصبية تعني الترابط و الاتحاد الذي جعل منه ابن خلدون مفتاحا للديناميكا الاجتماعية⁽²⁾. (انظر الفصل الموالي)

ويلزم العصبية في التحليل الخلدوني مصطلحات أخرى لابد من توضيحها أيضا باختصار:

1- الرياسة: وهي السلطة التي يمارسها شيخ القبيلة بحكم الأمر الواقع لا بحكم القانون، ويدفع الشيخ الذي بيده الرياسة أنصاره قهرا إلى غزو أرض أخرى لتحطيم العصبية الأخرى⁽³⁾ "الرياسة إنما هي سؤود وصاحبها متبوع وليس عليه قهر في أحكامه"

2- الملك: وهو السلطة والقهر "وأما الملك فهو التغلب والقهر" ويكون الملك تاما إذا كان صاحبه "يستعبد الرعية ويجني الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة"⁽⁴⁾ وهذا أيضا هو الملك الأعظم

1- عبد الغني مغربي، المرجع السابق، ص 144

2- نفس المرجع، ص 143

3- عبد الغني مغربي، المرجع السابق ص 145

4- ابن خلدون، مرجع سابق ص 80

وهو لا يكون إلا لأصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزخوف والحروب والأقطار والممالك.

3- الوازع: وهو السلطة التي تكبح جماح الفرد وتفصل "غريزته العدوانية" وهو نوعان:

- وازع ذاتي: ومرجعه إقناع الفرد وانقياده بمحض إرادته وهدى ضميره تحت تأثير التربية الدينية والخليفة.

- وازع أجنبي: وهو السلطة المفروضة على الشخص من الخارج بالتعليم أو بالعقاب وبالغلبة والقهر "الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبي وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع ذاتي"⁽¹⁾

4- القرابة والحسب: علاقة اجتماعية تعتمد على الروابط الدموية الحقيقية أو الخيالية أو المصطنعة، ولا يعني اصطلاح القرابة عند الانتربولوجيين علاقات العائلة والزواج فقط وإنما يعني المصاهرة أيضا.

وأهم قرابة بالنسبة لنا هي التي تتحدر من نسب الأم Matrilinéaire أو التي تعود إلى نسب الخال Avunculat. بالنسبة للأول فإنه يعني العلاقة القرابية من خلال خط الإناث، ولقد وضع بعض علماء الانتربولوجيا أهمية كبيرة في دور النسب الأمومي في بداية مراحل التطور الاجتماعي من حيث أسباب وجوده، وأسباب تطوره ولاسيما (مالينوفسكي) الذي قام بدراسة النسب الامومي 1929⁽²⁾.

أما نسب الخال: فهو العلاقة القرابية الخاصة التي تربط الرجل بخاله أو بأخي أمه، خصوصا في المجتمعات التي يطغى عليها النسب الأمومي.

¹- نفس المرجع، نفس الصفحة

²- ميشال دينكن، المرجع السابق، ص 143

وتعتبر هذه العلاقة مفتاح تحليل بنية المجتمع التارقي. كل العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية تتحدد في العلاقة بين الرجل وابن أخته. التي بدونها لا يمكن فهم بنية هذا المجتمع على الإطلاق.

5- الولاء: وهو مبدأ ارتباط جماعات القبائل بالقبيلة التي يمتلك شيخها الرياسة والتحالف معها.

6- القبيلة: لقد صنفت التجمعات البشرية على أساس الكثرة والقلة كما يلي:

الأمة، الشعب، الإمارة، البطن، القبيلة، الفخذ، العشيرة، والفصيلة. وأكثر هذه المصطلحات استعمالاً عند ابن خلدون هي القبيلة والعشيرة والبطن وأحياناً يستعمل الأمة والجيل بمعنى القبيلة الكبرى⁽¹⁾. وتضم القبيلة عادة ثلاثة أصناف من الأفراد:

- صرحاء النسب وهم طبقة من الأشراف وهؤلاء يتفاوتون في الشرف يتفاوت بيوتهم في الحساب.

- الموالى واللصقاء، أي الملتصقين بالقبيلة بواسطة الجوار أو الحلف أو بالاصطناع.

- أسرى الحروب والغزوات الذين يستعبدون عادة.

المنهج و التقنيات:

1-المنهج

كما جاء في مجال الموضوع وعلى مثال ابن خلدون يبقى المنهج التاريخي أكثر ملاءمة من غيره لتحليل الأحداث الواقعية. يمكن تعريف هذا المنهج "بمجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث للوصول إلى

¹ - محمد عابد الجابري ، العصبية والدولة ، دار الطليعة ، ط3 بيروت 1982 ، ص457

الحقيقة التاريخية وإعادة بناء الماضي بكل دقائقه وزواياه كما كان عليه في زمانه ومكانه وبجميع تفاعلات المعرفة الإنسانية وتكاملها ونهج اكتسابها⁽¹⁾.

ويهتم هذا المنهج بوجه خاص بالنقاط التالية⁽²⁾:

- 1- عامل الزمن، الذي يدخل في جميع مقومات التحليل، ويتم تحليل الظاهرة ومدلولها ومختلف مظاهر التعبير تبعا لاختلاف عامل الزمن.
 - 2- الاهتمام بدراسة الأحداث والوقائع فقط ويرفض التجريد.
 - 3- مراعاة التطور الذي يؤثر بالتاريخ لأنه لا يمكن استنباط نتائج جيدة من دراسة لها صفة الحتمية والاحتواء الكامل.
- بمعنى أنه يعتمد على ثلاثة محاور أساسية يمكن تلخيصها في جملة: تطور الأحداث في الزمن. لأن الأحداث مهما تشابهت في الزمان والمكان تبقى مختلفة عن بعضها البعض، فالتاريخ لا يعيد نفسه، والحوادث لا تتكرر ذاتها، وقد يبتز عنصر الصدفة أية محاولة لاستشفاف المستقبل والتنبؤ بالحدث قبل وقوعه.

وهذا ما يجعل هذا المنهج قابلا للتطور والاعتناء والتكامل، وكل بحث وكل جديد يمكن أن يكون عاملا في هذا التطور. لذلك فإن المنهج التاريخي لا يعني مجرد متابعة إلزامية للحوادث ولكن يقوم بوظائف لابد منها⁽³⁾:

- 1- تقديم أدلة لإثبات النظرية في التحليل السياسي
- 2- تقديم أساس ومصدر لبناء إطار فكري للتحليل
- 3- يعتبر بمثابة حقل تجارب بديلا عن التحليل المعمل

¹- ليلي الصباغ، دراسة منهجية للبحث التاريخي، مطبعة خالد ابن الوليد، دمشق 1979 ص 03

²- محمود إسماعيل محمد، دراسات في العلوم السياسية، شركة الجليل للطباعة، ط 3، دمشق 1984، ص 35

³- محمود إسماعيل محمد، المرجع السابق، ص 35

تجعل هذه الوظائف المنهج التاريخي من أهم المناهج الحيوية الفعالة في العلوم الإنسانية لاعتماده على التاريخ الذي يتوفر على عدد من المزايا نذكر منها⁽¹⁾:

1- إن التاريخ أداة أساسية في سبيل الوصول إلى فهم وتقييم المتغيرات والعوامل المختلفة المرتبطة بالأوضاع في الوقت القائم وهو على ذلك يبسر ويسمح بفهم الحاضر إلى حد كبير.

2- يمكن أن يقوم هذا التاريخ بدور الأداة السياسية في عملية بناء إطار للتحليل وهذا ما فعله ابن خلدون عندما حاول تفسير الظاهرة السياسية وتابع تاريخ الحضارة الإنسانية وسمح له ذلك باستخلاص طبيعة التطور السياسي الذي يقوم في رأيه على أساس ظاهرة العصبية التي يتحدد على أساسها الوجود السياسي والتطور بمختلف أبعاده.

لكن هذا لا يعني أن المنهج التاريخي يخلو من السلبيات سواء أكانت مرتبطة بموضوع الدراسة أو بالباحث ذاته، فمن أهم عيوبه وصعوباته:

1- الذاتية: يصعب على الباحث التخلي عن ميولاته الشخصية وطبيعة ثقافة المحيط الاجتماعي الذي نشأ فيه.

2- صعوبة جمع المعلومات الدقيقة والكافية حول فترة أو حدث تاريخي معين، فالمعلومات التي قد تتوفر لا يمكن أن تعكس الصورة الكاملة غالبا ما تكون انعكاسا لمصالح ولقيم مجموعة محدودة من الأفراد لا تشمل المجتمع بأسره.

¹- نفس المرجع ، الصفحة 36

المصادر:

إن صعوبة جمع المعلومات تعود إلى طبيعة المصادر نفسها والتي يجب على الباحث أخذها بعين الاعتبار مهما كانت، لأن هذا المنهج يقتضي أن لا يخترع الباحث الحوادث من ذهنه وخياله كما يفعل القصصى وإنما يعيد تركيبها بشكل مماثل لواقعها الماضي، ومن ثم عليه أن يستقيها من ينابيعها الماضية أي المصادر والتي رغم كثرتها يمكن أن تصنف إلى قسمين:

1- المصادر المكتوبة (الوثائق):

يعتبر جمع الوثائق أهم خطوة في هذا المنهج فالتاريخ يصنع بالوثائق، والوثائق عبارة عن الآثار التي خلفتها أفكار وأعمال البشر القدماء⁽¹⁾. إن سجلات الرحلات والسير والكتب ورسائل المغامرين والضباط الفرنسيين، قد قدمت لنا معلومات هامة حول الفترة المدروسة والتي يصعب التحقق منها في غياب وثائق في الجهة المقابلة التي اكتفت فقط بتسجيل الأحداث كما كانت تفعل دائما بصفة شفوية لذلك وجب علينا الرجوع إليها ومحاولة إيجاد التوافق والتناقض مع ما ورد في المصادر المكتوبة.

2- المصادر الشفوية:

لم يكن ليقدر هؤلاء الأوروبيين من الحصول على هذا الكم من المعلومات الوافرة حول تاريخ المنطقة وحتى في الجغرافيا والمناخ وعلم النبات والحيوان... لولا المساهمة الفعالة لبعض أصحاب المعرفة التقليدية المحلية الذين لهم اطلاع على "المنظومة المعرفية التقليدية" في مجالات المعرفة السابقة. عثمان أق البكري وديفرييه، جبرين ولوت، أحسن مثال على ذلك.

¹ - ليلي صباغ، المرجع السابق، ص 151

تحتفظ الذاكرة الجماعية بمنظومة معرفية هائلة لدى جميع الشعوب التي تسمى تقليدي، قبل أن تحطمها حركة المعرفة المعاصرة، مثلما تحطم بنيته السياسية والاجتماعية مع بداية نفوذ الاستعمار إلى مناطقها. رغم ذلك يمتلك الأشخاص المستجوبين معلومات جيدة، خاصة في المواضيع الثابتة والقوانين العرفية والتنظيم السياسي وعلاقات السلطة وتأسيسها بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لتفاصيل الأحداث والوقائع التي صادفت بداية القرن العشرين. لأنها كثيرة ومعقدة وتتالت في وقت ضيق جداً، يصعب على الذاكرة احتواءها بالتدقيق واكتفت بتسجيل العموميات أو الأحداث البارزة جداً فقط.

2-التقنيات:

بالرغم من أهمية المصادر الأرشيفية المكتوبة إلا أن المقابلة ضرورية لجمع البيانات الأصلية عن المواضيع والأحداث المذكورة، والتي لا يمكن الحصول عليها بواسطة الدراسة النظرية بالمصادر المكتوبة، بالإضافة إلى كونها تساعدنا في الاطلاع على ظروف المجتمع ورد فعله حول الموضوع الذي يجعله يعايش الأحداث من جديد. استعملنا المقابلة بنوعيتها؛ الفردية والجماعية.

أولا : المقابلة الجماعية

وهذا بالتحدث مع أشخاص وقع عليهم الاختيار مسبقا على شكل جماعي وإن كنا نعلم ان ذلك يجعل البعض يتحفظ إلا أن هدفنا هو اكتشاف "العارفين".

ثانيا: المقابلة الفردية

الإنفراد مع أهم الأشخاص وأكثرهم معرفة في شؤون السلطة وتاريخها. هم في الغالب حكماء كبار السن لهم دراية في المعرفة التقليدية للتاريخ والأنساب.

لقد أدرجنا قائمة لأهم المستجوبين (المصادر الشفوية)، أشرنا إليهم بحرفين فقط تقاديا لذكر الأسماء تلبية لطلبهم.

ونظرا لمعرفة اللغة والمجتمع فلم نجد صعوبات كبيرة في الاتصال، ولم يكن ذلك عائقا للموضوعية لأن الأحداث المتتالية تعتبر تاريخا مشتركا للجميع ولا مجال للذاتية فيها، لكن ذلك لا يمنعنا من التحفظ ومراعاة السلوك العلمي النقدي ومنهجيته في البحث.

الدراسات السابقة:

يظهر جليا اليوم ان "كيل تماهق" الذين يسمون "التوارق" هم أخلاف "القرامنت Garamentes" الموصوفين من طرف كتاب التاريخ القديم الإغريق والرومان، خاصة (هيرودوت) في القرن الخامس قبل الميلاد. نعلم أيضا بفضل ديفرييه Duveyrier أن الشعب التارقي منحدر من الليبيين والمازيوس⁽¹⁾.

¹ - Badi dida, *Touaregs de L'adagh des Ifoughas*, Mémoire de Magister, Université Mouloud Mammeri, Tizi ouzou, 2000, P 18 .

تكون الشعب التارقي نتيجة تراكب الشعوب البربرية التي يشهد عليها سابقا في الألفية الأولى من طرف علماء ماقبل التاريخ بفضل النقوش والرسومات الحجرية ولاسيما التي تخص العربات المكتشفة في تاسيلي واهقار وادرار-ن-فوغاس⁽¹⁾.

تمثل الكتابات الليبية والفنيقية همزة وصل بين الثقافة التارقية الحالية والشعوب البربرية في التاريخ القديم التي كانت تعيش في المغرب والصحراء⁽²⁾.

وعن طريق عرب القرون الوسطى تحصلنا للمرة الأولى على كتابات وصفية حول البربر القاطنين بالصحراء خاصة ابن حوقل (وصف الأرض 961-977) الذي يشير إلى قبائل تعيش داخل الصحراء بأسماء مازالت مستعملة إلى يومنا عند بعض مجموعات التوارق. البكري (1067)، يشير إلى "أهل اللثام" الذين سماهم ابن خلدون بـ "الملثمين".

ويتحدث هذا الأخير في كتابه "تاريخ البربر" عن هوارا الذين عرفوا على أنهم أصل كيل أهقار الحاليون عن طريق جدتهم الأولى تيسكي العرجاء.

أثار هؤلاء المؤلفون معلومات مفصلة عن التنظيم الاجتماعي للشعوب التي تعيش داخل الصحراء، وتمتد هذه المعلومات الوصفية على فترة خمسة قرون وتكتمل مع ليون الإفريقي 1552. ومن هذا الأخير لا نعرف شيئا عن قرنين ونصف من تاريخ الشعوب التي تعيش داخل الصحراء الكبرى إلى غاية

¹ - Lhote (H), *les chars rupestres sahariens*. Paris, 1982, P 62

² - Chaker (H), « études touaregs », *trav. doc. de l'Iremam* N°05, Axe-En – Provence 1988

القرن التاسع عشر. ونظرا لغياب التاريخ المكتوب لهذه الفترة، تبقى المخطوطات المكتوبة من طرف السكان وقصصهم الشفوية هي المصدر الذي يمكن أن نعرفنا عن هذه الفترة من تاريخ الصحراء⁽¹⁾.

أ- المراحل:

1- مرحلة المغامرة

الثورة الصناعية التي عرفت أوروبا في القرن الثامن عشر قد أدت الى ضرورة إيجاد منافذ لصناعات ومنتجات القوى لاستعمارية الكبرى وفي هذه الحركة الناتجة عن المنافسة الاستعمارية بدأت رحلات المغامرين وكان الالمانى بارث الذي موله الانجليز في رحلته لعبور الصحراء نحو منطقة آير وراء فضول المغامرين المستكشفين بعد نشر كتابه (رحلات واكتشافات في افريقيا الشمالية والوسطى) سنة 1860. أثرت المعلومات التي جاءت في هذا الكتاب كثيرا في توجيه نظرة الاوروبيين لفترة طويلة حول الصحراء وسكانها⁽²⁾.

ديفرييه الذي لم يكن بعيدا عن نفوذ الاستعمار الفرنسي. الذي وصل الى غاية مشارف أزجر، احتلال تماسنين 1860. قد أورد معلومات عن طرق المرور وعلى قبائل التوارق خاصة كيل أزجر وكيل أهقار معتمدا على القصص الشفوية التي جمعها بنفسه عند اصحاب المعرفة التقليدية ولاسيما دليله عثمان.

ان هذا المغامر الذي يصف التوارق Peuplades⁽³⁾ قد استأنف أطروحة بارث حول استيطان الصحراء التي حسبه كانت في البداية موطننا للسود

¹ - Badi dida, op-cit , P 19

² - Barth (H), Voyages et découvertes en Afrique Septentrionale et centrale, Paris, 1860

³ - Duveyrier (H), les Touareg du Nord. Challamel, Paris, 1864, P 03

الذين ترجع اليهم كل آثار الحضارة المادية التي نجدها حالياً في الصحراء. واعتبر الغرامنت بمثابة شعب أسود والذي توصل إلى درجة حضارية لم يصل إليها غيره بعد.

حادثة فلاترز 1881 قد أدت إلى توقف محاولات المغامرين والمبشرين لاكتشاف أسرار الصحراء وتأخر عملية التوغل الفرنسي لمدة عشرين سنة.

في هذا الوقت بقيت صحراء التوارق بمثابة بقع بيضاء على الخرائط الإستعمارية الفرنسية بإفريقيا الغربية والصحراء الوسطى، هذه الوضعية لم تؤد إلا بزيادة تكوين صورة أسطورة الصحراء وسكانها في خيال الأوروبيين وزيادة تحريضهم لاكتشافها وهو الاتجاه الذي سيطغى لاحقاً خاصة عند الضباط السامين للجيش الاستعماري.

2- المرحلة الاستعمارية:

يمكن تقسيم هذه الفترة إلى جزئين بسبب طولها أولاً ثم كونها قد طورت إلى حد كبير معرفة المجتمع التارقي.

- فترة الاتصال الغنيف:

عرفت هذه الفترة بعض المناوشات بين الجيش الاستعماري والمحاربين التوارق ابتداء من احتلال تين بكتو 1893، عين صالح 1900 إلى غاية المأساة الدموية

جاء التمردات التي حدثت إبان الحرب العالمية الأولى (أمود و إن قدازن 1916، فيهيرون أق الأنصار 1916، كاويسن 1919). وكنتيجة لعدم تكافؤ القوة فإن غلبة التقنية الغربية قد فرضت ما يسمى بالسلم الاستعماري،

مهما كان الثمن حتى وإن كان ضرورة إبادة مجموعات بأكملها واستعمال البعض ضد البعض الآخر وتفكيك البنية السوسيوسياسية للتوارق.

شهدت هذه الفترة اتصالا عنيفا بين التوارق الذين لهم صورة تقليدية للحروب التي تعتبر فعالة بالنسبة لهم والضباط الذين ينتمون غالبا إلى الطبقة البرجوازية الكبرى، والراغبين في تسجيل شرف احتلال أكبر عدد من المناطق في سجلاتهم الشخصية هؤلاء الذين سيستأنفون خبراتهم بالاتصال مع المجتمع التارقي في روح الغالب الذي يتحدث عن المغلوب⁽¹⁾.

ترك لنا بعضهم كتابات مهمة حتى وإن لم تكن تمثل سوى آرائهم الشخصية إلا أنها تمدنا بمعلومات مذهلة حول عقليتهم والطريقة التي يقدمون بها المجتمع التارقي

ولا سيما Gardel 1961, Richier 1924, Benhazera 1906.

العمل المرجعي للأب فوكولد، خاصة قاموسه تارقي - فرنسي 1918 لا يمكن أن يقارن على مستوى النوعية والعطاء العلمي بالأعمال السابقة التي لا تخرج عن الإطار الوصفي، مهمة بدون شك لكن يغلب عليها الطابع البيوغرافي الذي يؤثر غالبا على المعلومات التي يصعب التحقق منها، الشيء الذي يشكل صورة غير متكاملة للأحداث لدى المجتمع التارقي⁽²⁾.

- فترة السلم الاستعماري:

بعد استتباب "الأمن" أو السلم الاستعماري بالثمن الذي نعرفه فإن المرحلة المقبلة التي تميز العلاقات بين المجتمع التارقي والقوة الاستعمارية هي تكوين إدارة استعمارية.

¹ - Badi dida, op-cit, P 20

² - Badi dida, op-cit, P 27

ولا يمكن أن يتم ذلك في الواقع بدون العمل على البنى الاجتماعية السياسية للتوارق، وتغييرها بما يتناسب مع السياسة الاستعمارية، هذا الاهتمام الجديد للإدارة الاستعمارية قد انعكس على الأعمال التي تلتها والتي تتعلق بالمجتمع التارقي حيث أصبح يدرس من هنا فصاعداً عن قرب، والاهتمام أكثر فأكثر بمواضيع أكثر عمقا في الإثنولوجيا وهكذا بدأت تظهر في الأربعينيات مراكز علمية متخصصة تؤطر باحثين محترفين أكثر إهتماما بالمادة العلمية للمعرفة والتي أعطت دفعا شاملا للأبحاث المتناولة للمجتمع التارقي بصفة عامة من بين هذه المراكز IFAN في داكار، جامعة الجزائر، معهد الدراسات الصحراوية IRS، متحف باردو Crap... وساهمت في نشر وإثراء المعارف في مختلف الاختصاصات وفي مختلف الميادين لا سيما ما نشر في دوريات IFAN ولبیکا LYBICA وغيرها. ومن بين هؤلاء الباحثين نجد اسم M.REYGASSE الذي ساهم أعماله في مجال ما قبل التاريخ. وبالخصوص حفر قبر تين هنان في ألبسا عام 1925. بصفة فعالة في معرفة الاستيطان القديم للصحراء.

إن هذه الأعمال بصفة عامة وحفر قبر تين هنان بصفة خاصة قد أدت إلى مواصلة جدل كبير لم يغلق بعد بين علماء الآثار⁽¹⁾. ساعدت أبحاث M.REYGASSE في فتح اتجاه جديد لمعرفة استيطان الصحراء مما سمح لأول مرة بربط العلاقة بين الاستيطان في ما قبل التاريخ وفجر التاريخ لهذه المناطق مع الاستيطان الحالي خاصة ما يتعلق بالتوارق من خلال الآثار ما قبل التاريخية.

¹ -Badi dida ,op-cit , P 23

هذا الاتجاه الجديد للبحث سوف يستغل بفعالية من طرف الباحثين مثل Lhote 1982 و T.MONOD. وإلى اليوم تبقى بعيدين عن اكتشاف كل الأسرار. لكن هذه الأبحاث التي تتدرج في مجال المدرسة الفرنسية قد سيطر عليها الطابع المنوغرافي الوصفي في الوقت الذي كان رواد المدرسة الإنجليزية (RADCLIF BRAWN و EVANS PRITCHARD) قد أرسوا الأفكار الأساسية للأنثروبولوجيا الاجتماعية. لم تكن لتستفيد هذه الدراسات من ثمار الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلا بعد مجيء J.NICOLAISEN إلى الميدان والذي أدخل منهج المقارنة عند المتخصصين في الدراسات حول المجتمع التارقي، بمقارنة البنية السوسيوسياسية لأهقار مع نظيرتها في آير⁽¹⁾

3- المرحلة بعد الاستعمارية:

غادر معظم الباحثين الأوروبيين إفريقيا مع حركة الاستقلالات بينما بقي بعض الملتزمين في ميدان الدراسات التارقية لغرض مواصلة تلك الأعمال بصفة منتظمة مثال M. GAST الذي نشر كتابه (غذاء سكان أهقار 1968) و E. BERNUS.

هذا العدد الهائل للدراسات حول التوارق وإن كان قد تضاعف بالنسبة لتوارق أزجر وأهقار في هذه الفترة الأخيرة لصالح توارق الجنوب قد أدى إلى خلق تقليد قوي للأبحاث وإلى تكوين مجال حقيقي للدراسات والذي استمر حتى بعد استقلالات إفريقيا.

في الواقع إن الأرشيفات التي تم نقلها من المراكز العلمية القديمة (الجزائر وداكار) إلى المراكز المتخصصة لاسيما AIX- EN-PROVENCE و FROT VINCENNES قد ساهم في مواصلة الأبحاث على المجتمع

¹ -Ibid, P 24

التارقي وبذلك ظهر جيل جديد من الباحثين الفرنسيين في السبعينات مثل H. CLAUDOT، CASSAJUS و A.BORGEOT إلى جانب الإنجليز أيضا مثل L. BROCK. لقد وضع كل هؤلاء في التطبيق نظرية جديدة للأبحاث ميدانيا في مجالات الإثنولوجيا، الأدب، علم الأنساب، وقد سيطر هذا الأخير على العشرية 1970-1980.

ب-الاتجاهات في حقل الدراسات حول التوارق:

حتى وإن لم تكن هذه الدراسات اختصاصية فإنها تشهد على الاختلافات التي مازالت موجودة و ستبقى كثيفة في معرفة الشعب التارقي. هكذا أدى الانتاج الوفير للمعارف حول التوارق في هذه السنين الأخيرة إلى تكوين ثلاثة اتجاهات مختلفة يمكن تمييزها من بين المتخصصين⁽¹⁾:

الاتجاه الأول:

يمثل هذا الاتجاه قدماء ضباط الجيش والإداريين الاستعماريين لمنطقة AOF و OCRS، الذين لم يتخلصوا بعد 30 سنة من الاستقلالات من الحنين إلى المناطق الصحراوية والشعوب التارقية الذين سيرونهم رغم ذلك والعصا في اليد.

تمثل هذا الاتجاه حاليا على الخصوص جمعية "الراحلة RAHLA" التي تصدر مجلة تحمل نفس الاسم تحتوي على مقالات جيدة في الغالب على التوارق والصحراء على العموم. بالنسبة لهذا الاتجاه فإن المهمة الحضارية لفرنسا قد أوقفت جراء استقلالات الدول الإفريقية قبل أن تتوصل إلى أهدافها، واليوم أيضا على فرنسا أن تحتفظ بدور مناسب لدى هذه الشعوب.

¹ -Badi dida ,op-cit , P 26

مقالة J. CLAUZEL "إداري فرنسي بين الماضي والمستقبل في ذاكرة الاستعمار: العلاقة مستعمر / مستعمر (1994-217-221)"، يمثل بما فيه الكفاية رأي هذا الاتجاه.

الاتجاه الثاني:

لقد ظهر كما يبدو اتجاه ثان في هذه السنين الأخيرة، والذي يرى أن التوارق لم يكونوا على الإطلاق مجتمعاً متجانساً Homogene ولا يمكن حتى استعمال مصطلح "مجتمع" للإشارة إلى مختلف المجموعات التارقية والصواب أن نتحدث عن "مجتمعات" بالجمع. وحسب هذا الاتجاه فإن التوارق يقدمون منذ القدم على شكل مجموعة جماعات في نزاع بينها، والتي تتمتع ببنية غير متساوية ولا تسمح بتكوين "أمة" بأتم معنى الكلمة. يبدو Bourgeot من خلال كتاباته الأخيرة كالممثل الأكثر بروزاً لهذا الاتجاه، وعلى الخصوص في مدخل كتابه "المجتمعات التارقية" (Sociétés Touaregs 1995)، الذي يتكون من جمع مقالاته السابقة، خلال خبرته في مجال الدراسات التارقية. من الواضح أن استعمال كلمة مجتمعات بصيغة الجمع يحتمل أنه ليس هناك مجتمع تارقي واحد لكن مجتمعات عديدة، والواقع فقد التحق به بعض المؤلفين مثل D. Cassajus ⁽¹⁾ من خلال مقالة: "Les Amis français de la cause touarègues".

- الاتجاه الثالث

يرى هذا الاتجاه أن التنظيم السياسي، في الكونفدراليات المستقلة عن بعضها البعض التي وجد عليها الفرنسيون التوارق، اللغة، نمط الحكم والتنظيم الاجتماعي لا يخفي وحدة الثقافة التي تجمع التوارق.

¹ - Cassajus (D), « Les amis français de la cause touarègues » in *Cahier d'études africaines*, Vol. 35, N° 137. 1995, PP 237 - 250

يمثل حاليا هذا الاتجاه الباحثة H. CLAUDOT - HAWAD خاصة في كتابها (Touaregs Portrait en Fragment). تستند الأطروحة الأساسية لهذه الباحثة قوتها من مفهوم "تموست Tamust" من فعل "يموس Umas" الذي يعني "الهوية".

يستعمل هذا المفهوم تقليديا عند مجتمع التوارق في دوائر مركزية مختلفة، يستعمل أولها للا نتماء الى الكونفدرالية مثال "تموست ن- أهقار" والتي تدخل في دائرة أخرى أكثر اتساعا تجمع كل "الأمة" التارقية "تموست ن- أو تماهق" التي هي دائرة تعريف هوية أكثر اتساعا تميزها عن باقي الأمم. عاد مفهوم "توماست" إلى النشاط في السنين الأخيرة وبصفة خاصة في النمط الحالي عند الوطنيين التوارق.

يتصادم هذان الاتجاهان الأخيران في مناقشة فكرية، يستعرض فيها كل من Bourgeot و H. Claudot، في مقاربتيهما المتعارضتين حول المجتمع التارقي⁽¹⁾.

هذه المناقشات ستؤثر حتما في توجيه الأبحاث مستقبلا عن التوارق وتعلن بداية عهد جديد في نظرة الباحثين الأوروبيين خاصة إذا وجد هذان الاتجاهان من يتبناهما ضمن حتى الباحثين الوطنيين.

ج-الباحثون الوطنيون:

1- مالي و نيجر:

في الوقت الذي يستتبط مؤيدو مفهوم "تموست" حججهم من المعرفة العميقة للميكانيزمات التي تحرك المجتمع التارقي ومن معاينات ناتجة عن رؤى جديدة بين الأجيال الشابة فإنه كما يبدو وجدت أطروحات Bourgeot

¹ - Voir :A. Bourgeot, et H. Claudot, in *Cahiers d'études africaines*, Vol. 35, N° 137. 1995, PP 659 - 685.

بعض المؤيدين من بين الباحثين الوطنيين، خاصة الذين لهم روابط مع السلطات المركزية.

وهذا يعود إلى كون هؤلاء الباحثين متورطين مباشرة في صياغة سياسات معينة نحو مواطنيهم التوارق في نفس الدول. من بينهم A. Salifo في كتابه "La Question Touaregs au Niger 1994"، الذي ساهم في الماضي وبكثرة في معرفة المجتمع التارقي خاصة في فترة الاحتلال وتمرد كاويسن، ترأس عام 1991 الندوة الوطنية التي ستهيئ أرضية الديمقراطية في نيجر ثم ترأس المجلس الأعلى للثورة في الوقت الذي تجري فيه (أحداث الشمال) بين السكان التوارق في شمال نيجر وكتيبة "تين تبراضين". وفي الواقع فإن كتابه السابق جاء ردا على عرض منو دياك Mano DAYAK حول تلك الأحداث في كتابه "مأساة التوارق"⁽¹⁾.

باحث نيجيري آخر D. Hamani، وكما يبدو من خلال قراءة كتاباته يلتحق بأطروحة Bourgeot. حسب رأيه لم يسبق أن وجد على الإطلاق في الماضي مجتمع تارقي موحد لا سياسيا ولا إقتصاديا.

يظهر أن هذين الباحثين عبارة عن همزة وصل بين أنصار الاتجاه الثاني من الأوروبيين وهدف سياسة الدول التي عوضت الاستعمار الفرنسي في تسيير شؤون المواطنين. بالنسبة لهذه الدول فإن وجود "أمة" تارقية يتعارض مع تكوين "الدولة الأمة" حسب النمط الأوروبي.

ويجب الاعتراف بأن هؤلاء المؤلفين لهم الاستحقاق في توسيع مجال دراسات التوارق في العلاقات بين هذه الشعوب والدول الناتجة عن الاستقلالات.

¹ - Dayak (Mano), *Touaregs La tragédie*, Lattes, Paris, 1992

لقد تم طرح هذه العلاقات بصفة عنيفة من طرف الحركات السياسية العسكرية في السنين الأخيرة بصفة تنعكس من النظرة الأولى كإعادة حركية اجتماعية بعد الصدمة الاستعمارية. علاقات مثل هذه لابد أن تكون موضوع ملاحظة متأنية لدراسة معمقة⁽¹⁾.

2- ليبيا والجزائر:

وعلى العكس من مالي والنيجر لم يحظ حقل الدراسات في هذا المجال بالأبحاث اللازمة في هذين البلدين بعد الاستقلال إلا نادرا. القشاط في كتابه الذي يحكم فيه من خلال عنوانه أن "التوارق عرب الصحراء الكبرى"⁽²⁾ يمثل صورة الاتجاه السياسي الذي كان يسود المجتمع الليبي في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينات لتحقيق حلم وحدة الوطن العربي الكبير. فكانت مهمته إثبات الهوية العربية للتوارق وبالتالي الانتماء إلى الوطن العربي الكبير، وقد اعتمد على أبيات شعرية نسبها إلى هؤلاء وجعل منها أدلة قاطعة.

أما السويدي في رسالته "بدو التوارق بين الثبات والتغير"⁽³⁾، اخذ مدينة تمرناست التي اعتقد أنها واحدة! كعينة لدراسته التي كانت في جزئها النظري تعتمد على الطابع التوهمي والانطباعي الذي ابتدعه الفرنسيون لا سيما Henri Lhote. وتطرق في الجزء التطبيقي إلى معطيات إحصائية لتمجيد سياسات التخطيط والمخططات التي أفلست نصف الكرة الأرضية.

وعلى كل وإن كانت هاتان الدراستان تكشفان لنا النماذج السياسية السائدة آنذاك؛ شعارات، قوميات، أحلام الوحدة، فإنهما تفتحان مجالا جديدا

¹ - Badi, dida, op-cit p 29

² القشاط، محمد، التوارق عرب الصحراء الكبرى، الطبعة الثانية، سردينيا، اديتار 1989
³ السويدي محمد، بدو التوارق بين الثبات والتغير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986

للدراست العربية حول المجتمع التارقي التي كان آخرها في القرون الوسطى.

د- الباحثون المحليون:

لقد توسع مجال دراسات التوارق في السبعينات بقدم جيل جديد من الباحثين الوطنيين. بروز هؤلاء الباحثين سيسمح بإنشاء نظرة جديدة كانت غائبة في مجال الدراسات التاريخية ؛ لأول مرة ينتقل "الأتوكتون" من وضعية موضوع الدراسة إلى صاحب دراسة وفاعل يفكر حول مجتمعه.

يظهر جليا من خلال قراءة أعمال هذا الجيل أن أغراضهم ومصادر مقارباتهم لمجتمعهم سيختلف بالضرورة عن الدراسات التي نشطها الكرونولوجيون والمغامرون الأوائل في بداية القرن العشرين.

لا بد من التذكير أنه في الآونة الأخيرة ظهر عدم توازن واضح بين عدد الباحثين المحليين في مجال الدراسات التارقية لصالح بلدان الجنوب الصحراوي مقارنة مع توارق الشمال "أهقار وأزجر" حيث لا يتجاوز عددهم أربعة، وفي المقابل نجد في الجنوب أكثر من 30 باحثا، سواء بصفة منتظمة أو متقطعة. يمكن أن يفسر عدم التوازن هذا بقلة العدد مقارنة مع الجنوبيين⁽¹⁾.

اما المجالات والجرائد المستقلة منها والرسمية فقد عملت على إرساء صورة فلكلورية لا تتباعد كثيرا عن الأساطير التي تحدث عنها الاوروبيون كثيرا في القرن التاسع عشر، واتخذت من التوارق متحفا ومخزونا سياحيا بجانب الصور والنقوش ماقبل التاريخية والمناظر الخلابة للتاسيلي حتى أصبح التارقي مرادفا لرقصة فلكلورية أو لصورة تذكارية.

إذا كانت الإشكالية تتعلق بالتنظيم السياسي للسلطة التقليدية والعوامل

¹ - Badi dida, op-cit, P 30

الداخلية والخارجية المؤثرة فيها في فترة زمنية معينة، فإن الدراسة ستكون موضوعا لمجالات مختلفة: علم السياسة، الأنثروبولوجيا، التاريخ وعلم الاجتماع السياسي، لكن هذا الأخير يمثل الإطار الأمثل بالنسبة لنا لتناول الموضوع مستندين على الوقائع التاريخية التي شهدها السلطة التقليدية في كل مراحلها آخذين بعين الاعتبار منهجية ابن خلدون في كيفية تكوين السلطة ومدى علاقة ذلك بقوة العصبية أو ضعفها.

تبقى تقنيات المنهج التاريخي أنسب وسيلة للوصول إلى ذلك عن طريق المصدرين الأساسيين للتأريخ: المصادر المكتوبة والذاكرة الجماعية، لجمع المعلومات حول فترات الأحداث الثلاثة: القرون الوسطى، فترة المغامرة، بداية القرن العشرين.

حصرنا الموضوع في مجال جغرافي واسع لكنه كان يمثل وحدتين سياسيتين (الطبل): آزر وأهقار، وإذا كان هذا الاسم الأخير مشهورا فقد عوض الأول تقريبا باسم هضبة التاسيلي التي كانت جزءا صغيرا منه، ساهم في ذلك الدراسات الناتجة عن الاستكشافات الأثرية فيها إلى جانب طابعها السياحي منذ احتلال تلك الأوطان وتقسيمها حسب السياسة الاستعمارية.

لقد تحدثت عرب القرون الوسطى (كالبكري، ابن حوقل، ابن بطوطة، ابن خلدون...) عن التوارق وتنظيمهم السياسي والاجتماعي مثلما تحدث عنهم المغامرون الذين مهدوا لدخول القوات العسكرية والضباط الذين رسموا سياسة الصحراء واحتكروا ميدان الدراسات بذكراتهم في الفترة الأولى من الاتصال العنيف مع السكان إلى أن ظهرت معاهد متخصصة ساعدت في بروز اتجاهات مختلفة في السنين الأخيرة.

الفصل الثاني

الظاهرة الاستعمارية ونظرية الصراع العصبي

السياسة الاستعمارية: نظام الحكم المباشر وغير المباشر

السلطة التقليدية والنظرية الخلدونية

I- الظاهرة الاستعمارية وتطورها:

يعبر عن الاستعمار على أنه استغلال لبلد أجنبي وإخضاعه لضغط سياسي يفرض عليه خدمة دولة الأصل لتحقيق مصالحها الحربية وتمكينها من الاستغلال الاقتصادي للمستعمرة التي تفرض عليها قوانين تمنعها من التعامل مع غير المستعمر⁽¹⁾.

ان للاستعمار تاريخا قديما يعود إلى البدايات الأولى لتبلور القوى العظمى في العالم، حيث كانت تحركها المصالح السياسية والاقتصادية المختلفة، وعلى المدى أخذ أشكالا مختلفة تبعا لطبيعة هذه المصالح. وإذا كان الرومان أحسن مثال على الإمبراطوريات الاستعمارية في التاريخ القديم فان البرتغال، إسبانيا، إنجلترا وفرنسا أحسن أمثلة في "العصر الحديث" للاستعمار الغربي على امتداد خمسة قرون كاملة مر خلالها على ثلاث مراحل⁽²⁾:

- المرحلة الأولى:

ترتبط بعصر الكشوفات الجغرافية في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي الذي تميز بظهور الاحتكار التجاري وساهم بصفة فعالة في نمو الطبقة البرجوازية الأوروبية المنبعثة من أنقاض النظام الإقطاعي القديم، وكانت تلك الموجة الأولى من الاستعمار الأوربي الحديث والتي استمرت لمدة قرنين و نشط هذا الاستعمار على الخصوص في أمريكا والانتيل وجزر الهند الشرقية.

¹ - محمد حسنين ، الاستعمار الفرنسي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط4 ، 1986 ، ص 30

² - أحمد صديقي الدجاني، ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي ، 1886-1911 ، المطبعة الفنية الحديثة ، الزيتون ، 1971 ، ص32

- المرحلة الثانية:

بدأت مع ظهور الطاقة الميكانيكية الناتجة عن الثورة الصناعية الأولى بأوروبا أواخر القرن الثامن عشر، واستخدمت القوة الميكانيكية بديلا للعمل اليدوي في الانتاج الزراعي والصناعي وفي وسائل المواصلات المختلفة، كما استخدمت المصانع بديلا عن النظام التجاري الميركانتلي Mercantile، فتغيرت بذلك أشكال التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، وظهرت الرأسمالية وتحولت أهداف الاستعمار إلى الحصول على المواد الخام للصناعة في أوروبا من جهة وفتح أسواق جديدة في المستعمرات لتسويق منتجاتها من جهة أخرى.

- المرحلة الثالثة:

خطت الرأسمالية خطوة كبيرة في تطورها، وبلغ فيها الفائض كميات هائلة، فاتجهت إلى تصدير رؤوس الأموال إلى المستعمرات على شكل قروض أو إنشاء بنوك وشركات الملاحة وسكك الحديد، فتطورت بذلك الأوضاع في أوروبا وتحولت تدريجيا من مرحلة الرأسمالية الحرة إلى مرحلة الإمبريالية والاستعمار.

وكانت هذه المرحلة التي تتناسب مع الطور الثاني في الثورة الصناعية أخطر المراحل الثلاثة وأعظمها تأثيرا في تاريخ الاستعمار الغربي وفي تاريخ الإنسانية عامة⁽¹⁾.

بالرغم من أن بواده الأولى ظهرت في بريطانيا 1820 إلا أنه لم يعم القارة الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية و اليابان ولم يستقر إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

1- أحمد الصديق الدجاني، المرجع السابق، ص33

وقد برزت مع هذه المرحلة الأخيرة ظاهرتان هامتان في الغرب هما تطبيق العلم في الصناعة والزيادة الهائلة في الانتاج، ترتبت عنه ثورة جذرية في النقل والمواصلات وولادة الدول الضخمة، وظهور الإمبراطوريات مع ما يترتب عن ذلك من نتائج اجتماعية، ديمغرافية واقتصادية⁽¹⁾.

شهد العالم نوعين من الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر: الاستطاني والاستغلالي أو (الاستراتيجي).

أخذ الاستعمار الاستطاني مداه في ظل التطور الصناعي الأخير، وتضاعف عدد من هجر أوروبا في القرن التاسع عشر الى حوالي عشرة أضعاف من غادرها في القرون الثلاثة السابقة⁽²⁾.

وتوزع هؤلاء بين مختلف قارات العالم بفضل ثورة المواصلات الناشئة. وقد نشط الاستعمار الاستراتيجي خلال هذه المرحلة أيضا واتجه إلى إفريقيا المدارية والشرق الأقصى.

مثال فرنسا:

كانت فرنسا أهم الدول التي نشطت الاستعمار الأروبي، وتعود بداية نشاطها إلى القرن السادس عشر، إذا كونت لنفسها إمبراطورية استعمارية كبيرة في نصفي الكرة الأرضية على يدى ريشيليو وكولبير في عهد النظام الملكي القديم وتسمى هذه الإمبراطورية في التاريخ الفرنسي بالإمبراطورية الأولى⁽³⁾، وقد تفككت سنة 1763 حين أجبرت فرنسا على التخلي لإنجلترا عن كندا والهند في معاهدة صلح باريس التي اعقبت حرب السنين السبع، ثم تلاشت كلها تقريبا إثر إستيلاء الأسطول البريطاني عليها أثناء حروب

1- الدجاني، المرجع السابق، ص 33

2- نفس المرجع، ص 34

3- محمد حسنين، المرجع السابق، ص 11

نابليون الأولى بحيث لم تترك معاهده صلح باريس المنعقدة في 30 ماي 1814 لفرنسا من حطامها سوى بعض المستعمرات القليلة غير مهمة الشأن؛ المحطات التجارية بالهند وجزيرة الرئينون بالمحيط الهندي وجيان الفرنسية بأمريكا الجنوبية والمحطات التجارية بالسنيغال في إفريقيا الغربية وجزر الأنتيل في البحر الكاريبي وجزر سان بيير وميكلون في أمريكا الشمالية⁽¹⁾.

ثم قامت فرنسا مع ظهور الثورة الصناعية دعائم إمبراطورية استعمارية جديدة بدأت سنة 1817 وتولى زعامتها فيما بعد "جون فيري" وذلك للبحث عن تعويضات لفقدانها مستعمراتها في العالم الجديد والألزاس واللورين بعد انهزامها من طرف ألمانيا في حروب 1870، في نفس الوقت الذي تسعى فيه الى رد الاعتبار لشأنها ومجدها الضائع⁽²⁾.

وبدأت الغزو؛ الجزائر 1830، تونس 1881 وتتالت الأقطار الأخرى فيما بعد لتكون الإمبراطورية الإستعمارية الثانية « Le second empire colonial » التي أطلقوا عليها أسماء مختلفة "فرنسا ذات المئة مليون من السكان"، "فرنسا الممتدة في بقاع العالم الخمسة"، "فرنسا العظمى". وقد بلغت أقصى اتساع لها عام 1919 بعد الحرب العالمية الأولى، بما غنمته من المستعمرات الألمانية والولايات العثمانية تحت نظام الانتداب تنفيذا لمعاهدة فرساي المنعقدة في ماي وهي الطوغو، الكامرون من ألمانيا، سوريا ولبنان من تركيا. وبها تصل مساحة الإمبراطورية إلى 13 مليون كلومتر مربع تشمل أجزاء من: إفريقيا وآسيا والإقيانوسية والنصف الغربي من الكرة الأرضية، ويسكن هذه

1- نفس المرجع ، نفس الصفحة

2- نفس المرجع ، ص 13

المناطق حوالي 110 مليون نسمة آنذاك. وبذلك تكون الإمبراطورية الفرنسية ثاني إمبراطورية إستعمارية في العالم بعد الإمبراطورية الإنجليزية⁽¹⁾.

استمرت على هذا الشكل إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، أخذت تتقلص شيئاً فشيئاً، بدأت بإعادة إقليم كوانج إلى الصين سنة 1945 وبجلاء قواتها عن سوريا ولبنان في سنة 1947 تحت ضغط إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية، ثم تتابعت النكسات على فرنسا بضم منشآتها في الهند إلى الاتحاد الهندي إثر إستفتاء أجري في 19 ماي 1949، وخرجت الفيتنام الشمالية من الإتحاد الفرنسي بإتفاق الهدنة سنة 1954 بعد حرب دامت ثماني سنوات وما لبثت الفيتنام الجنوبية أن انسحبت منه أيضاً، وكانت الصدمة الكبرى باستقلال مراكش وتونس وإنهاء الحماية في سنة 1956، ثم انفصال غينيا أكتوبر 1958⁽²⁾.

وقبل ذلك عصفت الثورة الجزائرية بالجمهورية الرابعة ودستورها إثر إنقلاب عسكري قام به جنرالات الجيش الفرنسي بالجزائر ماي 1958 في محاولة يائسة للاحتفاظ بهذه المستعمرة دون جدوى لتتال استقلالها بعد أربع سنوات و بعد حركة إستقلالات دول الساحل الإفريقي؛ السنغال، نيجر، مالي 1960، لتتلاشى الإمبراطورية نهائياً.

ومهما يكن فإن النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد نهاية للاستعمار الذي أصبح يسمى بالتقليدي وظهرت منظمات وتكتلات احتكارية تؤدي وظائف شبيهة بوظائف الاستعمار التقليدي المباشر والذي كانت نتيجة له في جميع الميادين؛ السياسية، الاقتصادية، الثقافية، الإعلامية... ومن

¹- محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص 14

²- نفس المرجع ص 15

الواضح أن وضعية العالم اليوم قد حدد مصيرها أثناء فترة الاستعمار التقليدي.

السياسة الاستعمارية

لماذا يحظى الإنجليز باستقبال رحب في كل مكان بينما يكون الفرنسيون عرضة لكل أنواع الصعوبات وسوء الاستقبال حتى عند أصدقائهم؟ بهذا السؤال باغت أمنوكلال "اخنوخ"، زعيم أزجر، المغامر الفرنسي دفرييه أثناء إقامته بـ أزجر 1860 م⁽¹⁾.

وإذا كان دفرييه لم ينتظر مثل هذا السؤال في مثل هذه الصحراء المعزولة فإن أخنوخ بحنكته وبحكم منصبه السياسي استطاع أن يلاحظ هذا الفرق في السياسة البراغماتية الإنجليزية والدوغماتية الفرنسية الناتجتين عن أكبر مدرستين استعمارييتين في العالم.

وهي السياسة التي تحدد العلاقة القائمة بين دولة الأصل Métropole وشعوب الأقطار المستعمرة. يمكن رد هذه العلاقات إلى ثلاثة اتجاهات أساسية؛ الأول هو الإخضاع بمعنى إخضاع المستعمرات لدولة الأصل ولمصلحة هذه الأخيرة وحدها⁽²⁾، وهو ما اتبعته الإمبراطوريات الإستعمارية القديمة. ثم حل محله اتجاهان أساسيان؛ نظام الإدارة المباشرة (الإدماج) ونظام الإدارة غير المباشرة (نوع من الإستغلال الذاتي).

1- نظام الإخضاع:

وهو نظام اقتصادي وسياسي معا يهدف إلى استغلال مصالح المستعمرة لصالح دولة الأصل في كل ثرواتها ولا سيما المعادن النفيسة من

¹ - Duveyrier (H), *Journal de route*, Challamel, Paris 1905, P 176.

² - محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص 27

ذهب وفضة الى جانب المحاصيل الزراعية والمواد الخام مع احتكار أسواق المستعمرة والنقل البحري منها وإليها لصالح دولة الأصل دون أن تستفيد المستعمرة من شيء، فكانت "تستغل مواردها كما كانت ضيعة خاصة لجلب الثراء للمالك ودولة الأصل دون إقامة أي وزن لمصالح المستعمرات ذاتها فهو الغاية القصوى للاستعمار"⁽¹⁾. قد تذهب إلى أبعد من ذلك بفرض الضرائب لمصلحة خزintها.

إن سياسة الإخضاع ما هي إلا تنفيذ لمذهب التجاريين الذي ساد في القرن السادس عشر على التنافس بين الدول الناشئة في ذلك الوقت والتي قامت على أنقاض النظام الإقطاعي، وقد طبقت جميع الدول الاستعمارية القديمة، فأخذت به إسبانيا بالنسبة لممتلكاتها في أمريكا كما اتبعته هولندا مع جزر الهند الشرقية وأخذت به إنجلترا وفرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر بالنسبة لمستعمراتها في أمريكا الشمالية والأنتيل.

والأساس الاقتصادي لنظام الإخضاع هو المركزية الصارمة التي يحتفظ فيها بكل السلطات في أيدي الموظفين الإداريين المعيّنين من قبل الدولة الأصل والذين يخضعون بدورهم للسلم الإداري المركزي دون تدخل ممثلي السكان المحليين وبالتالي تنكر فكرة وجود مصالح منفصلة للمستعمرة من حيث المبدأ، في نفس الوقت الذي تحرم من أي حق في دولة الأصل، ولذلك يعرف هذا النظام بأنه حكم المستعمرة بواسطته ولصالح دولة الأصل وحدها⁽²⁾.

2- نظام الإدارة المباشرة: Directe rule

يقوم على أساس إعطاء شعوب الأوطان المستعمرة نفس النظام السائد

¹- نفس المرجع ، ص 29

²- محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص 31

في دولة الأصل لإدماجها "Assimilation". والإدماج هو التماثل بين المستعمر والدولة الأصل في نظام الحكم والتساوي بينهما، وينطلق الإدماج من فكرة مفادها أن إقليم ما وراء البحار ليس إلا إمتدادا لدولة الأصل فيجب إذن أن يوضع تحت نفس النظام هناك أو على الأقل تحت نظام مقارب له ما أمكن ذلك، وإن سكان الدولة القاطنين في الجانب الآخر من البحر يجب ألا تكون حقوقهم وضماناتهم أقل من حقوق وضمانات أولئك الذين يعيشون في الجزء الأقدم من الدولة⁽¹⁾.

بمقتضى هذا النظام لا تكون في المستعمرات أية مرافق خاصة بها وإنما مجرد فروع من المصالح العامة في الدولة تكون مقسمة بين فروع الوزارات المختلفة ، وهذا يعني أن احتلال مستعمرة جديدة ليس سوى مجرد إضافة مقاطعة جديدة للنظام الإداري القائم في الدولة.

إن هذا النظام نظرية فرنسية تعود إلى العهد الملكي القديم " L'ancien régime" وقد تبنته الثورة الفرنسية في شعارها التقليدي عن الوحدة والمساواة، وعدم التجزئة، وكانت سائدة في عهد حكومة المؤتمر، وسارت الجمهوريتان الثانية والثالثة على هذه السياسة⁽²⁾.

كان هذا النظام محل العديد من الانتقادات، فهناك من يرى أنه نظام مصطنع تنقصه المرونة الإدارية وملاءمة الظروف الخاصة لكل مستعمرة على حدا ويعني على فرنسا قصر النظر لأخذها بهذا النظام ، فإذا كان مثاليا من الناحية الفلسفية إلا أنه غير عملي، إذ لا بد أن يكون هناك تماثل واقعي حتى ينعكس في صورة تماثل قانوني. إن مثل هذا النظام ليس من شأنه أن

1- نفس المرجع ، نفس الصفحة

2- محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص35

يعطي للمستعمرة حرية التطور الذاتي الطبيعي حسب ظروفها الخاصة وفي اتجاهاتها الخاصة إنما يفرض عليها بالقوة تطورا مصطنعا لا يلائمها بل يعوق نموها، فهو يضحي به من أجل وحدة غير موجودة في الواقع، وهو يمسح سكان المستعمرات ويخرجهم عن طبيعتهم الأصلية وبالمقابل لا يحولهم إلى فرنسيين.

ويرى البعض أيضا أنه لم يكن هدف الفرنسيين وراء هذا النظام تنمية الحكم الذاتي مع إيجاد نوع وثيق من العلاقات مع الدولة الاصل ولكن الهدف هو جعل الممتلكات الفرنسية في المستعمرات جزءا لا يتجزأ من فرنسا بحيث لا يسمح للسكان بتنمية ثقافتهم المحلية⁽¹⁾.

يبدو أن مجموعة نقاط الضعف هذه أدت إلى فشل نسبي في تطبيق هذه السياسة حتى عندما كانت المستعمرات في أوجها خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، واتضح أن التطبيق العملي قد تخلف عن مسايرة المبادئ النظرية. إذ كيف يتمكن الفرنسيون من استيعاب الملايين الذين يقولون عنهم "بدائيين" بإفريقيا وآسيا في الثقافة الفرنسية؟ إذا لم يكن تدمير هويتهم وبث التفاوت بين أغلبية السكان والقلّة التي تتعلم وتتفرنس!

إذن فهذه النظرية لا تصلح إلا عندما يتشابه سكان المستعمرة مع سكان دولة الأصل ومن الأفضل أن تماثلها حتى في المناخ والظروف الجغرافية الأخرى. من حيث القانون فلا بد أن يسبقه إدماج فعلي بين المعمرين والسكان الأصليين أما فرض الإدماج القانوني قبل حصول الإدماج الفعلي فهو أمر سابق لأوانه ولا سيما إذا كانت المستعمرة تنتمي إلى حضارة أخرى تختلف عن حضارة المستعمر.

¹ - نفس المرجع ، ص 36

3- نظام الإدارة غير المباشر : Indirect Rule

إذا كانت الإدارة غيرالمباشرة تعني لدى الفرنسيين نهاية الاستعمار، فإن الإنجليز جعلوها بديلا لسياسة الإخضاع القديمة. وتتحصر هذه النظرية الإنجليزية الأصل في ترك سكان المستعمرة التابعة "يحكمون أنفسهم بأنفسهم في شؤونهم المحلية وهو استقلال سياسي في معناه ولكنه محدود في نطاق الاختصاصات الداخلية"⁽¹⁾.

إنه يتفق مع التقاليد الإنجليزية التي تتجه نحو الحكم النيابي، وقد شهد أول تطبيق له في القرن التاسع عشر عندما تم اقتراح كندا عام 1839 كنموذج تجريبي لتطبيق هذا النظام، وذلك بأن تطبق النظام البرلماني في نطاق الشؤون الداخلية بصفة عامة مع الاحتفاظ لدولة الأصل بالشؤون الخارجية.

لقد تطور هذا الحكم في كندا نحو النظام البرلماني الكلاسيكي تدريجيا أي أنه تحقق بالعرف الدستوري قبل أن يصدر لها البرلمان سنة 1867 دستورا اتحاديا يجمع بين مقاطعاتها الأربع وقتئذ في "دومنيون فدرالي" وأصبح بموجبه الحكم المحلي في يد وزارة فدرالية مسؤولة أمام برلمان فدرالي، أما الحاكم المعين من طرف الحكومة الذي يمثل التاج فلم تعد له سوى اختصاصات محدودة تقابل اختصاصات الملك في المملكة المتحدة⁽²⁾.

بعد ذلك انتقلت إستراليا إلى هذا النظام سنة 1900 ثم نيوزلندا 1907 وجنوب إفريقيا 1910 وتلقت جميعها دساتيرها وصارت تعرف بالمملكات الحرة او الدومنيون ومع التطور تحولت إلى مؤتمر الكومنولث البريطاني البرلماني

1- محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص 42

2- محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص 43

ومع أنه جهاز أساسي في الجماعة و يوجه سياستها العامة إلا أنه يبقى جهازا للتنسيق فقط وليست قراراته سوى مجرد توصيات ولا يتمتع بسلطة التقرير وكانت هذه المستعمرات المذكورة يسيطر عليها العنصر الأوروبي المستوطن بها، وما أن انضمت إليها الهند وباكستان حتى حذفت صفة "البريطاني" من الاسم الرسمي "الكومنولث". بينما بقيت مستعمرات التاج والمحميات والدول المحمية والأقاليم الواقعة تحت الوصاية خارج الكومنولث وتتبع مباشرة حكومة لندن، لأنها لا تعتبر أجزاء من الإمبراطورية⁽¹⁾.

يبدو أن سياسة الإدارة غير المباشرة هذه تدخل في اعتبارها المصالح الخاصة لأقطار المستعمرات، وهي إن لم تكن تطبيقا كاملا لمبدأ حق تقرير المصير إلا أنها تسير في اتجاهه أي الحق في اختيار السلطة التي تدعن لها بالسيادة وحتى تتجح هذه السياسة لا بد أن يتوفر شرطان أساسيان⁽²⁾:
أولا: أن تكون جماعة السكان في إقليم ما وراء البحار قادرة على الاعتماد على نفسها من الناحيتين الاقتصادية والمالية.

ثانيا: أن تكون رقعة الإقليم كافية و عدد سكانها وفيرا.

فإذا لم يتحقق هذان الشرطان فإن الحياة المنفصلة في ظل نظام الاستقلال الذاتي قد تكون صعبة لأن الاستقلال الذاتي القانوني لابد أن يسبقه استقلال ذاتي فعلي بحيث يملك القطر مقومات هذا الاستقلال من إقليم وسكان وثروة وأن يكون السكان على درجة من التجانس، فإذا كانت هناك عدة جاليات يفصلها الأصل والدين والمدنية فالاستقلال الذاتي يكون عرضة

1- محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص47

2- نفس المرجع ، ص64

بأن يتلوه نزاع يحطم الإقليم ويؤدي إلى طمس الجاليات الأقل قوة أو الأقل عددا، وبعبارة أخرى يجب أن يمتلك السكان مقومات "الأمة".

يقارن "روبرتس ستيفان" ⁽¹⁾ بين المدرستين الاستعماريتين عبر التاريخ ولاحظ أنه إذا كانت سياسة الإخضاع نظاما سابقا لدى معظم القوى الاستعمارية فإن الفرنسيين لا يرون بديلا عن سياسة الإدارة المباشرة من الناحية النظرية أما من الناحية التطبيقية فإن أي سياسة ستتحول على أيدي الموظفين الفرنسيين بالغريزة إلى المركزية والإدماج فالاعتبار الأول لدى الفرنسيين هو لمصالحهم الوطنية لا لمصلحة المستعمرة. وبالرغم من أن مذهب الإخضاع قد أصبح تاريخا فإنه قد أثر وبدون وعي في التصرفات الاستعمارية الفرنسية.

أما النظرية الإنجليزية فإن الفرنسيين يعتبرونها انعكاسا للفردية الإنجليزية القصوى وهي طابع النظم الإنجليزية، وتحت ظل هذا النظام تقوم في المستعمرة حكومة ذاتية التسيير في الشؤون السياسية والاقتصادية، لا تدمج ولكنها تتطور حسب ظروفها وبيئتها.

ويعتبر هذا التطور في نظر الفرنسيين فشلا ومشروعا غير مفهوم إطلاقا بالنسبة لهم أما الإنجليز فيرى روبرتس أنهم لا يمانعون في إعطاء المستعمرة حكومة مسؤولة فيما بعد حسب ظروفها.

وعندما بدأت فرنسا تنظيم إمبراطوريتها الجديدة كانت أمامها بوضوح التجربة البريطانية والتي تنحصر في التطور المتوازن وهي تخالف على خط مستقيم النظام الفرنسي الذي لا يسمح بالتطور إلا داخل الإطار الذي يرسمه الموظفون الإداريون بوزارة المستعمرات في باريس ، فهو تطور مصطنع وغير

¹ - محمد حسنين ، المرجع السابق ، ص 68

طبيعي، مرسوم مقدما وليس متروكا لسجيته حتى الربع الأول من القرن العشرين.

ويواصل روبرتس أن الإنجليز يضعون القواعد العامة ويتركون الأحكام التفصيلية للمستعمرات بما ليس فيه مساس بتلك القواعد الأساسية، أما الفرنسيون فجريا وراء الوحدة والتماثل يتشبثون بالنص كما هو في مقاطعه متجاهلين مبدأ الملائمة.

ومؤدى الرأي الفرنسي هو نبذ فكرة الاستقلال الذاتي والاتجاه نحو الإدماج؛ المبدأ الذي يستهدف محو كل اختلاف في النظم بين المستعمرة والبلد الأصل على أساس أن المستعمرة هي مجرد إمتداد لدولة الأصل فيما وراء البحار وأن المستعمرة تنظم كما لو كانت مقاطعة في فرنسا، وتمثل في باريس كأى مقاطعة من مقاطعات فرنسا الأوروبية ولها نفس القوانين ونفس التبعية للسلم الإداري ونفس المجالس المحلية ونفس المحاكم ونفس الحكومة ولا يوجد أدنى اختلاف في أي شئ لأن الهدف هو بسط النظام القديم و تكيف الظروف الجديدة عليه أكثر منه خلق نظام جديد أو تكيف النظام القديم على الظروف الجديدة . ومن الناحية الثقافية فترى النظرية الفرنسية أن الحضارة الفرنسية "كنز" وإن فتح هذا الكنز لأهل المستعمرات هو أنبل ما يخطر على قلب بشر وأن على السكان أن يتلاءموا مع العادات والتقاليد الفرنسية وأن يفكروا كفرنسيين. هكذا فإن هيكل الحياة المحلية بأسره يجب أن يعاد صهره على هذا الأساس فهي تتضمن الهدم وإعادة البناء وتقوم هذه النظرية بطبيعة الحال على افتراض أن السكان الأصليين يمكنهم أن يتخلوا عن مدنيتهم القائمة وطرقهم الخاصة في التفكير، وان يستوعبوا العادات

والتقاليد الجديدة فهدف نظرية الإدماج بالنسبة للسكان هو التجنيس ثم الاستيعاب والاحتواء، وفي هذا الصدد يصبح مثالية قصيرة النظر. وقد يندفع بعض السكان مؤقتا بنشوة المساواة المطلقة المطروحة، فيدمرون بغير اكتراث كل ما هو حيوي في كيانه ثم يظهر بعد فوات الأوان أن غالبية السكان لا يمكنهم أن يقفروا إلى المستوى الجديد وأن القلة إذا وصلت فسوف تتشغل بمصالحها الخاصة ومع ذلك فسوف تجد نفسها غريبة منبوذة حتى من هذا الجديد الذي وصلت إليه.

ويعتقد روبرتس أن الإدماج وهمي وإن كان يبدو أنه يحقق كل الأهداف إلا أنه يشل مرافق المستعمرة ونموها ولا يقدم شيئا للسكان وعلى هذا النحو تكون أكثر السياسات الاستعمارية تحررا هي في الواقع أسوأها.

II - الإنتربولوجيا والسياسة الاستعمارية:

لقد سجلت الرحلات الأولى نحو الصحراء وإفريقيا بين القرنين (18-19)، لكنها بقيت في طابع المغامرة إلى غاية 1860، ظهر نوع جديد من الرحالة المتعلمين ثم الغزاة بعدهم ومن ذلك الحين أصبحوا المصادر الرئيسية للوثائق الإثنوغرافية.

في ذلك الحين كانت أوروبا تشهد تغيرا كبيرا، تبحث على إدراكه، لا ننسى أن مفهوم الإقطاعية بالمعنى العصري لم يحدد حتى نهاية الإقطاعية الأوروبية عند مونتسكيو⁽¹⁾.

أنشئت المدرسة الانتولوجية الفرنسية سنة 1839، والبريطانية في 1843 ورغم حداثةهما إلا أنهما تقدمان لنا الفرق في تصورات الإمبرياليتين الاستعمارييتين.

¹ - Gerard (leclerc), *Anthropologie et colonialisme*, Artheme Fayard, Paris 1972, P20

وأقل ما يفرق بينهما هو الغايات النهائية لكل منهما للاستعمار والوسائل القانونية التي تم التوصل إليها.

إذا كان الإدماج هو غاية نظام الإدارة المباشرة والمركزية الفرنسية، فلم تكن كذلك بالنسبة للسياسة البراغماتية الإنجليزية المعاكسة تماما للسابقة. فبعد محاولات تطبيق النظام السابق الذي يستعمل فيه بعض الأعوان المحليين دون الأخذ بعين الاعتبار "هيكلم التقليدي" وأمام الصعوبات الكبيرة من احتجاجات، وتمردات، انتهى الإداريون والأنثربولوجيون الإنجليز إلى صياغة نظام إدارة غير مباشرة. إن سياسة مثل هذه يفترض أن تؤتمن شؤون السكان المحليين إلى الزعماء التقليديين لتنفيذ "الوظائف الأكرهية" للاستعمار كتحصيل الضرائب وتسوية النزاعات... إلخ

بمعنى أن المستعمر لا يعين موظفين بصفة تعسفية ولكنه يعين الذين لهم إجماع مسبق من طرف أهلهم للقيام بتلك الوظائف.

إن ضرورة الأبحاث الميدانية المعمقة قد استوعبت سريعا من طرف (ليوقارد Lugard) الذي يحدد في مشروعه الخطوة الأولى لهذه السياسة وهي "إيجاد الزعيم" "Find The Chief" قائلا: "أول ما يجب القيام به هو محاولة إيجاد رجل له نفوذ كزعيم وجمع الكثير من القرى والمناطق الممكنة تحت سلطته. وأن تعلمه كيف يمثل سلطاته وأن تجعل خزينته مهمة وتساند نفوذه وأن تلقن له معنى المسؤوليات التي سيؤديها"⁽¹⁾.

إنه من الأساسي فهم هذه التنظيمات القبلية وهذه التقاليد الاجتماعية لاستعمالها كإطار لبناء علاقات الحكم، ومن المفضل أن تدرس ويتمتع قيم

¹ - Gerard (leclerc), op-cit, P51

المجتمعات المحلية التي تتمتع بنفوذ كبير في ضمير السكان ومن الممكن أن تكون عوامل فعالة في النظام الإداري المحدد لهذه القبائل.

لقد اقترح (ليوفارد) أيضا مخططا لنظرية ما يمكن أن يسمى "بالمجتمعات المجزأة" أين تتكون السلطة السياسية من التحالفات والمعارضات. ومهما يكن فإن الإنترنتولوجيا أصبحت حملا ثقافيا ضروريا للإداريين على مستوى كل الخبرات.

وقد أخذ (مالينوفسكى) نظرية "إيجاد الزعيم" من ليوفارد واستعملها في عدة دراسات وأبحاث ميدانية فيما سيطلق عليه لاحقا اسم الإنترنتولوجيا السياسية لأن الزعامة لم تكن سوى مؤسسة سياسية هامة من البنية الاجتماعية العامة، رغم أن مالينوفسكى يرى أن التفسير الحقيقي لنظام الإدارة غيرالمباشرة لا يتلخص في إيجاد الزعيم، ولكنه يشمل على فهم بنية المجتمع المحلي، والعلاقات المتبادلة بين أعضائها واقامة تحاليل أنترولوجية حول (إشكاليات واقعية) لجعل الزعامة تتأقلم مع السياسة الاستعمارية والتمكن بالتالي من تسيير هذا التأقلم⁽¹⁾

ولقد عبر مالينوفسكى أيضا عن قبوله للمبادئ العامة للإدارة غير المباشرة، رغم أنه يرفض تطبيقها وتوصل إلى ذلك بعد نقاش هام للنظامين، وبعد دراسة متأنية للمناهج المختلفة والتي تمكن النفوذ الأروبي من الوصول إلى قبيلة "الاندجان" ويقول: "إن رأيي ورأي كل الأنترولوجيين الأكفاء أن الإدارة المباشرة هي الأفضل تماما"⁽²⁾.

¹ - Ibid, P, 119

² - Gerard (leclerc), op-cit, P 116

ربما لأن هدف الاستعمار مهما اختلف لم يكن سوى الإدماج الحقيقي، بينما يعتبر ليووارد من جهته أن "الفرق الحقيقي بين الإدارة المباشرة والإدارة غير المباشرة يتمثل في أن الأول يفترض أنه بإمكاننا أن ننشئ في مرة واحدة نظاما شاملا جديدا، يمكننا من تحويل الأفارقة إلى مواطنين شبه أوروبيين و شبه متحضرين في بعض السنوات. أما الإدارة غير المباشرة فبالعكس تعترف بعدم إمكانية تحقيق أي تحول سريع أو سحري من هذا النوع لذلك ستكون كل تنمية اجتماعية بطيئة جدا والأفضل تحقيق ذلك بتغيير تدريجي آتيا من الداخل"⁽¹⁾.

أما لوسي Lucy Mair فيعلن سنة 1935: "أن السبب الذي جعل الأنثروبولوجيين يؤمنون بنظام الإدارة غير المباشرة، ليس فقط لأنه يهدف إلى الحفاظ على مجتمعات (الاندجان) في شكلها الأصلي ولكن أيضا لأنه يجعل تغير ظروف المجتمع الإفريقي يحدث بدون تفكك مضر لبنيته. وهذا كما نعتقد يمكن أن يتم بالحفاظ على تأقلم هذه المؤسسات التي مازالت تعمل وهي قابلة للتأقلم"⁽²⁾.

لقد قدم نظام الحكم غير المباشر على أنه سياسة ليبرالية منطقية وكوسيلة لتطور المجتمعات (البداية) نحو العصرية بصفة تدريجية دون الانسلاخ، لكن ومع نضج "النظرية الوظيفية" لم يعد ذلك سياسة إدارية فقط بل أصبح مفهوما شاملا للمجتمعات غير الغربية الخاضعة للاستعمار. فبعد أن طرحت الأنثروبولوجيا فكرة الحماية للمجتمعات الأهلية، ظهرت فكرة حماية "القطاع القديم" أو "التقليدي" للمجتمعات المستعمرة.

¹ - Ibid P 116

² - Ibid P 117

إذن التنمية تعتبر من الآن فصاعدا الفرضية الأساسية لنظام الحكم غير المباشر ومدافعيه الذين اعتبروا "محافظين".

أما سياسة الإدماج والحكم المباشر فإنها يمكن أن تعتبر عكسيا من طرف بعض "المتناقضين" ك معبر للمرور إلى "العصرنة" المزعومة ولنا مثال في وضعية اللغات المحلية أمام اللغات الأوروبية وبالتالي فإن غاية هذا النظام هي القضاء على بنى المجتمع و ثقافته مهما اختلفت.

إذا كانت سياسة الإدارة غير المباشرة لا تستجيب لضرورات التغير والتنمية السريعة" فهل تستجيب لضرورات الحفاظ على المؤسسات التقليدية وحمايتها؟

وهل تعزل الحوافز القوية في بعض الأحيان للحضارة المادية؟ وهل سيحظى باحترام حتى من طرف المؤسسات المحلية؟.

يرى معظم أنصار هذا الإتجاه أنه لا يحترم من طرف المؤسسات المحلية، فهي تشوهه وتحرفه من خلال استعمالها له لأهداف أجنبية "استعمارية" وفي انتظار نفي أو تأكيد ذلك يبقى أنه مهما اختلفت الإتجاهات والسياسات فالغاية واحدة الهيمنة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بأقل ثمن وبأسهل الوسائل وفي ذلك تصبح الأنثربولوجيا الاجتماعية عنصرا هاما من هذه النظريات ، للسياسة الاستعمارية.

III- السلطة التقليدية والنظرية الخلدونية

العصبية والصراع العصبي:

لقد جعل ابن خلدون من "العصبية" مفتاحاً وأداة لتفسير الدينامكية التاريخية والصراع السوسيو اقتصادي الذي لا بد منه لتكوين النواة السياسية التي تنتهي بالدول والإمبراطوريات ثم تتلاشى. كيف تتكون العصبية وما هي العناصر اللازمة لظهورها وكيف تتحول إلى دولة؟ وما هي المراحل التي تمر بها من الميلاد إلى الاضمحلال؟ هذه هي الإشكالية التي انطلق منها ابن خلدون ليصل إلى نظريته "العصبية".

1- العصبية: المفهوم

كما رأينا سابقاً العصبية "إنما هي تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه"⁽¹⁾، والمعقود بالنسب ليس الرابطة الدموية، فهو بهذا المعنى "أمروهمي لا حقيقة له"⁽²⁾ ويضيف ابن خلدون "وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم"⁽³⁾. فالمقصود من النسب فائدته وثمرته وهي "هذا الإلتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة والنصرة وما فوق ذلك مستغنى عنه"⁽⁴⁾. وكل ما يقع في هذا الإلتحام فهو داخل في معنى النسب ومنه "الحلف والاصطناع وطول المعاشرة والصحبة وسائر أمور الموت والحياة"⁽⁵⁾. غير أن هذا الإلتحام لا يشتد ويصبح عصبية إلا إذا كان هناك ما يهدد كيان الجماعة "

¹- ابن خلدون ، المقدمة ص 141

²- نفس المرجع ص 142

³- نفس المرجع ص 144

⁴- ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 142

⁵- نفس المرجع ص 145

فإذا القريب يجد نفسه عضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين مايصله من المعاطب والمهالك نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا⁽¹⁾ وبالنظر الى ماتقدم يرى الدكتور مغربي عبدالغني ان "العصبية التي تساعد على بناء وتأسيس الدولة عبارة عن تأليف الالتحام الاجتماعي من جهة وعلاقة تبعية وسيطرة وسيادة الزعيم المفدى من جهة أخرى"⁽²⁾.

بينما يرى الجابري أنها: "رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية لا شعورية تربط أفراد جماعة معينة قائمة على القرابة المادية أو المعنوية ربطا مستمرا يبرز ويشد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة"⁽³⁾.

إن تقييد يقظة العصبية بوجود تهديد أو عدوان يعني أن فاعلية العصبية لا تشتد الا عندما تمس المصلحة المشتركة للجماعة وهي المصلحة التي تشكل فيها " نحلة المعاش " العنصر الرئيسي والفعال إذن فلا بد من استحضار هذه الصبغة الاقتصادية في الصراع العصبي لفهم نظرية ابن خلدون كما أن الفاعلية السياسية تستهدف في الدرجة الاولى الحصول على الجاه والملك من أجل "توابعه من الترف والنعم".

العصبية نوعان : خاصة وعامة

الأولى مبنية على النسب القريب والثانية تقوم على النسب البعيد، وكل عصبية عامة تتألف من عدة عصبيات خاصة ومن هنا كانت العصبية تقوم على أساس الكثرة داخل الوحدة وعلى التنافس والتنافر داخل التعاون

1- نفس المرجع نفس الصفحة

2- عبد الغني مغربي، مرجع سابق ص 159

3- محمد عابد الجابري ، مرجع سابق ص 458

والتناصر، ولا تصبح العصبية قوية إلا إذا التحمت العصبية الخاصة المتنافسة في إطار عصبية عامة واحدة. لكن العصبية المشار إليها يعتبرها ابن خلدون عصبية طبيعية إذ لا بد منها في الحماية والمطالبة والمواجهة. أما العصبية المستندة فقط على التعصب للأنساب والاعتداد بها فهي (عصبية جاهلية) لا فائدة منها مطلقاً⁽¹⁾.

إن قيام الحياة الاجتماعية وبالتالي بقاء الأنساب يتطلب نوعاً من السلطة كي تحفظ للمجتمع تماسكه وتعمل على تقوية التعاون بين أفرادها وكبح عدوان بعضهم على بعض سواء كإفراد أو كجماعات. وينظر ابن خلدون إلى العصبية من حيث الدور الذي تلعبه في الدفاع عن الجماعة على اعتبارها تقوم في البداية بنفس الدور الذي تقوم به في المدن، إنه يعني بالعصبية فقط من حيث إنها رابطة دفاع أو قوة مواجهة وتنظيم العلاقات الخارجية للمجموعة المتماسكة.

2- أساس العصبية:

إن السؤال الرئيسي الذي ملك ابن خلدون عليه نفسه هو: ما هي القوة التي تستند إليها الأسر الحاكمة في استيلائها على السلطة، ويعطي في هذا النص تلخيصاً عاماً "أن كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة ملك أو دعوة إنما يتم بالقتال عليه ولا بد في القتال من العصبية"⁽²⁾.

إذن فالعصبية هي الحافز، إذ تقوم أساساً على رابطة النسب كما رأينا: "...أن النسب إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه وذلك لأن صلة الرحم طبيعية في البشر إلا في الأقل ومن صلتها النعرة على ذوي

¹- الجابري، المرجع السابق، ص 459

²- الجابري، المرجع السابق ص 459.

القريبى وأهل الأرحام أن ينالهم خيم أو يصيبهم هلكة فإن القريب يجد نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك: نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الإتحاد والإلتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجرد ما ووضوحها، وإذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنوسي بعضها و يبقى منه شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه. ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نعمة كل أحد على أهل ولائه وحلفه للألفة التي تلقى النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريبا منها⁽¹⁾.

يمكن استنتاج عاملين هامين لأساس العصبية من هذا النص⁽²⁾

1- أن أساس العصبية هو الاستعداد الطبيعي الفطري الذي يدفع الفرد إلى نصرة قريبه في الدم والدفاع والنعرة عليه.

2- إن هذه النعرة والتناصر تكون أشد قوة وأكثر وضوحا بين الأفراد الذين يجمعهم نسب قريب، والتعصب للنسب القريب (الخاص) أشد من التعصب للنسب البعيد (العام)، ويوسع ابن خلدون مفهوم النسب إلى درجة أنه يدخل في إطار كل رابطة تنشأ بين الأفراد بسبب طول المعاشرة، فالعصبية نتيجة ما يسميه بـ "ثمرة النسب" وليست نتيجة للنسب نفسه "وإذا وجدت ثمرات النسب فكأنما وجد"⁽³⁾، ويعني بثمره النسب أو فائدته: "هذا الإلتحام الذي

¹- ابن خلدون ، المقدمة ص 142.

²- محمد عابد الجابري ، مرجع سابق ، ص 217

³- ابن خلدون ، المقدمة ص 147

يوجب صلة الأرحام حتى تضع المناصرة والنصرة⁽¹⁾ ولهذا نجد ابن خلدون لا يقيد العصبية بالنسب بل بالالتحام الحاصل بسببه، أو الحاصل بما يدخل في معنى النسب فهو يرى أن النسب بمعنى انتماء جماعة ما إلى جد مشترك هو "أمر وهمي لا حقيقة له" سواء كان الانتماء حقيقيا أو وهميا فالنسب "هو الانتماء إلى جماعة معينة... أي إلى عصبه ما... إذن الأساس الحقيقي والفعلي للعصبية هو المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة"⁽²⁾. وهذا ما جعل ابن خلدون يربط دائما بين العصبية والعنوان، فالعصبية عنده هي قوة المواجهة، لا تبرز ولا تشتد إلا عندما يكون هناك خطر يهدد العصبية في مصلحتها المشتركة، وهي المصلحة المرتبطة دائما بـ "تحلة المعاش" إذن فهي ظاهرة تستلزمها المعطيات الاجتماعية والاقتصادية السائدة في المجتمع. إذا كان النسب في الأصل رابطة جمع وتوحيد فهو أيضا عامل تفريق، "فالتعامل من أجل المصلحة المشتركة داخل العصبية الواحدة يقابله التنافر بين مصالح العصبيات"⁽³⁾. ونفس الشيء بالنسبة للسيادة والزعامة مثلما تصلح لأن تكون عامل توحيد فقد تصبح عامل تفريق وصراع نتيجة تنافس أفراد الأرستقراطية القبلية على الرئاسة. ومن ثمة كانت الحياة القبلية في العمران البدوي خاصة حياة صراع دائم.

هذا الصراع العصبي الذي جعل منه، ابن خلدون محركا للتاريخ ويعتبره طابعا من طبائع العمران هو نتيجة طبيعتين بشريتين متناقضتين:

1- نفس المرجع ، نفس الصفحة

2- محمد عابد الجابري ، مرجع سابق ص 259

3- الجابري ، المرجع السابق ، ص 262

"صلة الرحم التي هي نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا"⁽¹⁾ من جهة و"الطبع العدواني" الذي يشكل أهم مظاهر آثار الحيوانية فيهم من جهة أخرى⁽²⁾.

إن العدوان الذي يتحدث عنه ابن خلدون ويجعل منه الحافز الموقظ للعصبية يستهدف في الدرجة الأولى "حلة المعاش"، فسكان البادية منهمكون في تحصيل الضروري من المعاش "فاجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفاعة إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك"⁽³⁾.

وهكذا فالصراع العصبي ليس صراعا بين "الدماء" ولا راجعا إلى مجرد الاعتداد بالأنساب، ولكن صراع من أجل "تحصيل المعاش" وإذا كان هذا الصراع لا يأخذ شكلا اقتصاديا واضحا فهو يبدو في شكل صراع بين العصبيات أو الجماعات التي تنتسب إلى نسب معين، وما ذلك إلا لطبيعة الظروف الاجتماعية الاقتصادية السائدة في العمران البدوي الذي جعل منه ابن خلدون موضوعا لدراسته، ومن هذه الظروف ما يلي:⁽⁴⁾

- 1- إن أهل البادية يعيشون أسرا وماعات متباعدة يقل الاحتكاك بينها، فالصراع مع الطبيعة من أجل تحصيل المعاش يستغرق جل النشاط البدوي.
- 2- إن البدوي المشغول بتحصيل عيشه طول وقته خاضع للطبيعة وتحت رحمتها... لا تتردد الجماعة عندما تجد نفسها مهددة بالفناء تحت وطأة الجذب أو غيره من الظروف القاسية في الهجوم على مواطن الجماعات الأخرى.

¹ - ابن خلدون ، المقدمة ص 74

² - محمد عابد الجابري ، نفس المرجع ص 263

³ - ابن خلدون ، المقدمة ص 69

⁴ - محمد عابد الجابري ، المرجع السابق ، ص 263

3- يضاف إلى ذلك عامل آخر له دور في إشاعة الفرقة والتناحر في المجتمع القبلي وهو ما يعبر عنه بـ "عادة الثأر" وهذا ما يعرض المجتمع البدوي إلى خطر الفناء مما يدفعه إلى إيجاد نوع من التعايش السلمي بين الجماعات التي يتشكل منها. والتخفيف من هذه العلاقات "السلبية" بأعراف وتقاليد ونظم معينة وأهمها نظام الحلف وهو أشبه بالمعاهدات التي تجري اليوم بين الدول تحت شعار الصداقة وحسن الجوار والتعايش السلمي وهو أيضا عبارة عن تكتل مجموعة (قبلية) ضد أخرى من أجل الحفاظ على المصلحة المشتركة القائمة بالفعل أو من أجل اكتساب مصالح مشتركة جديدة على حساب الآخرين دوما.

3- العصبية والملك : الملك غاية طبيعية للعصبية

تتحول العصبية في أحد أطوارها من مجرد رابطة قبلية معينة إلى قوة للمطالبة والسعي وراء السلطة ومن ثم تأسيس الدولة لأن "الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك"⁽¹⁾

وأن "الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها بإختيار، وإنما بضرورة الوجود و ترتيبه"⁽²⁾.

أي أن انتهاء العصبية إلى ملك حتمية تاريخية، للعمران، والتي تتم بكيفية معينة لها أسبابها وعللها.

إن وراء الملك الذي هو غاية العصبية عوامل موضوعية أساسية أبرزها ابن خلدون بوضوح لكن دون أن يجعلها مسؤولة عن هذه الظاهرة، وفق تصوره لتتابع الحوادث.

¹- ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 153

²- المرجع نفسه ، ص 79

أ-العصبية والرياسة: تكون الرياسة

تبدأ من الوقار الذي يستند إليه الشيوخ والكبراء في سلطتهم التي تمكنهم من القيام بدور "الوازع" داخل العصبية الواحدة أو عدة عصبيات مترابطة بالنسب. ولا يتم ذلك إلا بتوافر شروط ومؤهلات يراها ابن خلدون ضرورة لمن يتولى الرياسة في المجتمع القبلي⁽¹⁾

أ-1: النسب الصريح

يقول ابن خلدون: "إن الرياسة على أهل العصبية لا يكون في غير نسبهم"⁽²⁾ لأن العصبية قد تضم أفراداً آخرين لا تربطهم بها قرابة الدم بل تشدهم روابط أخرى كالحلف والولاء والجوار، هؤلاء هم في الدرجة الثانية بالنسبة لصرحاء النسب، لكن هذا الشرط ليس مطلقاً فصراحة النسب لا تعني بالضرورة نقاوة النسب وإنما تعني فقط أن هذا الشخص المؤهل للرئاسة قديم الانتماء إلى العصبية، ذو مركز فيها الشيء الذي يجعل ارتباطه بها ارتباطاً متيناً وتشعبه بأحوالها وروحها الجمعية. المقياس الفعلي هو "طول المعاشرة" ولذلك كان الأشخاص المنتمون إلى العصبية بوجه من وجوه النسب يصبحون هم أيضاً مؤهلين للرئاسة عليها إذا تقادم العهد بهم داخلياً ونسي منسبهم الأصلي "ولبسوا جلدها كأنهم عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها"⁽³⁾ وأصبحوا بذلك أعضاء فعالين فيها.

إن العصبية في هذا المستوى تتطوي على ثلاثة عناصر متطابقة⁽⁴⁾:
عنصر بيوي (البادية)، عنصر إحيائي (النسب)، وأخيراً عنصر أخلاقي الوقار.

1- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 273

2- ابن خلدون، المقدمة، ص 145

3- نفس المرجع، ص 149

4- عبد الغني مغربي، مرجع سابق، ص 149

أ-2: الشرف والنسب

والشرط الثاني هو أن يكون الشخص المؤهل للرئاسة على العصبية من "قوم أهل البيت".

"ومعنى البيت أن يعد الرجل في آبائه أشرفا مذكورين تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل بيت جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلاله..."⁽¹⁾.

إن الرئاسة مجد "والمجد له أصل يبني عليه وتتحقق به حقيقته وهو العصبية والعشيرة وفرع يتم وجوده ويكمّله وهو الخلال"⁽²⁾.

إذن النسب لا يكفي وحده كمؤهل للرئاسة لابد من الحسب والشرف وهو شئ متوارث أبا عن جد، وواضح أن الوراثة هنا لا تعني وراثة الدم بل وراثة الخلال الحميدة التي جعلت من الجد الأول رئيسا. والخلال المطلوبة هي أساسا ما يحقق المصلحة للعصبية ككل وذلك مثل الشجاعة والكرم وعلى العموم التضحية بالنفس والمال وخدمه الصالح العام للعصبية، إن ثمرة النسب مرتبطة بالحسب، فهو يزيد في قوتها وفي شرفها "فحيث تكون العصبية مرهوبة ومخشية، والمنبت فيها زكي محمي، تكون فائدة النسب أوضح وثمرتها أقوى وتعيد الأشراف من الآباء زائد في فائدتها، فيكون الحسب والشرف أصلين في أهل العصبية لأنه سرها"⁽³⁾.

¹- ابن خلدون ، المقدمة ص 147

²- نفس المرجع ص 81

³- ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 148

وفكرة الحسب أو الشرف هامة جدا إذ أنها تسمح لنا بأن نفهم السبب الذي من أجله لا ينكر الأفراد علو مقام الحاكم بالرغم من أنهم يعرفون أن المبدأ للتجمع والإتحاد بين أفراد القبيلة لم يعد في الحقيقة يلعب دوره⁽¹⁾.

ولكن لا يجب أن نغفل حقيقة هامة بصدد الرئاسة الحاصلة بالنسبة والحسب وهي أنها رئاسة معنوية أكثر منها سلطة قاهرة، يقول ابن خلدون "إن الرئاسة إنما هي سوؤد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه"⁽²⁾. إن الرئيس بهذا المعنى على الرغم من أنه يحظى بتقدير الجميع واحترامهم لا ينأى عن النقد وبمقدار ما يتقبل ذلك بصدر رحب وبمقدار ما ينزل نفسه منزلة المرؤوسين بمقدار ما تعظم مكانته في نفوس أفراد عصبته.

الرئاسة ليست من الأمور التي يطمع فيها أي شخص، فبالإضافة إلى خلال الحميدة التي يجب أن يتصف بها الفرد شخصيا لابد من شرف المحتد أي لابد من عراقة الجاه، فالمنصب هنا وراثي.. "والرئاسة لابد أن تكون موروثة عن مستحقها"⁽³⁾. وهكذا فبداخل الديمقراطية العصبية تنمو وتقوى بشكل طبيعي الارستقراطية القبلية التي تساعد بدورها على خلق تكتلات بدوية عصبية تزيد من حدة الصراع العصبي وإخضاع أفراد الجماعة لنظام تسلسلي قوي وضروري لبروز هذه العصبية⁽⁴⁾.

أ-3 : الغلب

تبدأ الرئاسة من النواة القبلية الخاصة إذا توفرت الشروط السابقة، بمعنى رئاسة شيوخ القبائل على ذويهم وغيرهم، أما بالنسبة للرئاسة العامة

1- عبد الغني مغربي ، مرجع سابق ، ص 157

2- ابن خلدون ، نفس المرجع ص 153

3- ابن خلدون ، المرجع السابق، ص 75

4- عبد الغني مغربي ، المرجع السابق ، ص 154

وهي التي يجري مفعولها على العصبية المترابطة بالنسب العام فلا بد من إضافة عنصر آخر هو الغلب⁽¹⁾، "لا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقروا بالاذعان والاتباع"⁽²⁾. "وإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم.. فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فروع ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه"⁽³⁾ والسر في اشتراط الغلب في الرئاسة العامة هو أن "الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون. والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة أحدهما. وإلا لم يتم التكوين"⁽⁴⁾

إن مثال ابن خلدون هنا واضح: إن المجتمع القبلي مكون أساسا من وحدات أو جماعات يفرق بينها النسب القريب أو البعيد فهي بمثابة أخلاط. ولكي تتشكل من هذه الجماعات المتغايرة والمتنافرة وحدة كبرى تضمها جميعا، لابد من غلبة أحدها على الباقي تماما كما هو الشأن بالنسبة للأخلاط التي يتشكل من اجتماعها مزاج معين.

ب- من الرئاسة الى الملك:

يصف ابن خلدون مراحل هذا التطور في هذا النص: "ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فإن كافاتهما أو مانعتها كانوا إقتتالا وانظارا ولكن واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم

¹- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 277

²- ابن خلدون، المقدمة ص 145

³- نفس المرجع، نفس الصفحة

⁴- نفس المرجع ص 146

وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم على الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة فإن ادركت الدولة في هرمها ولم يكن لها "ممانع" من أولياء الدولة وأهل العصبية استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها وإن انتهت التي فوقها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل العصبية انتظمتها الدولة في أولياءها تستظهر بها على ما يعين من مقاصدها وذلك ملك آخرون دون الملك المستبد... فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وإنها إذا بلغت غايتها حصل للقبيلة الملك أما بالاستبداد أو بالمظاهرة حسب ما يسعه الوقت المقارن لذلك. وإن عاقتها عند بلوغ الغاية عوائق كما نبينه وقفت في مقامها إلى أن يقضى الله أمره⁽¹⁾.

يبدو أننا هنا أمام توسيع آلي للعصبية الغالبة، ويتم بامتصاص العصبية الأخرى القريبة ثم البعيدة، وابن خلدون لا يرى أن هناك وقعا لهذا التوسع خارج العصبية نفسها.

فالعصبية "بطبعها" تسعى إلى التغلب على العصبية الأخرى واستتباعها إدراجها تحت لوائها لأن العصبية الغالبة تكون جديرة على قيادة تحالفات للقبائل فالنزاع ضد القبائل الأخرى يسمح لتقاليد التعاون بأن تستمر في السير وأن تبسط سلطة الأرستقراطية للقبيلة المسيطرة⁽²⁾. ويشرح ابن خلدون هذه الفكرة أكثر في قوله: "وسره في ذلك العصبية العامة للقبيل هي المزاج... بل لا بد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها

¹ - ابن خلدون، المقدمة ص 154

² - جغلول عبد القادر، مرجع سابق، ص 126

وتؤلفها وتصيرها عصبية شاملة لجميع العصائب، وهي موجودة في ضمنها وتلك العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل البيت ورئاسة فيهم. ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالبا عليهم فيتعين رئيسا للعصبيات كلها لغلب منبته لجميعها. وإذا تعين له ذلك فمن طبيعة الحيوانية خلق الكبر والأنفة فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة من استتباعهم والتحكم فيهم؛ ويجيء خلق التآله الذي في طبائع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم، لفساد الكل باختلاف الحكام، فتجدع حينئذ أنوف العصبيات وتفزع شكائهم على أن يسمو إلى مشاركته في التحكم وتقرع عصبتهم عن ذلك وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لأحد منهم في الأمر ناقة ولا جملا فينفرد بذلك المجد بكليته، ويدفعهم عن مساهمته وقد يتم ذلك للأول من ملوك الدولة وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات وقوتها إلا أنه لابد منه في الدولة⁽¹⁾

ولهذه الأسباب "كان الملك طبيعيا للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع وكان العصبية تقضي إلى الملك، لا بإختيار وإنما بضرورة الوجود وترتيبه"⁽²⁾.

إن ترابط العصبيات بالنسب القريب أو البعيد، وطبيعة المجتمع القبلي القائم على التعاون والتعاضد داخل التناحر والتنافس، ثم إن قيام الرئاسة في هذا المجتمع على الحسب والنسب وشرف المحتد كل ذلك من شأنه أن يجعل الغاية التي تجري إليها العصبية والنهائية التي تقف عندها هي الملك⁽³⁾.

1- ابن خلدون، المقدمة ص78

2- نفس المرجع ص79

3- محمد عابد الجابري، المرجع السابق ص 279

ولكن لابد أن تكون وراء هذا "الامتداد" العصبي عوامل موضوعية "خفية" هي التي تدفع إلى الجرى وراء السلطة خاصة إذا نظرنا إلى ما قرره ابن خلدون من قبل بخصوص العلاقة بين السلطة والثروة، هذه العلاقة التي تلخصها عبارته المشهورة "الجاه مفيد للمال" وهذا ما يعني أن الغاية التي تتوخاها العصبية من جريها وراء الملك هي الثروة، ومن ثمة فهي إحدى الحوافز الاقتصادية المهمة لامتداد العصبية⁽¹⁾.

¹ - نفس المرجع ص 279

ب-1- شروط نجاح العصبية:

إن العصبية لا تلعب دورها التاريخي الذي يعزوه ابن خلدون إلا إذا توفر شرطان⁽¹⁾:

1- وجود "عصبية عامة" جامعة لعصبيات متفرقة كما جاء في النص السابق.

2- وقع الدول في طور "الهرم".

ويتحقق هذان الشرطان في ظروف العمران البدوي، لأنه وحده منبت العصبية ومجالها الخصب، وبما أن هذا النوع من العمران يضم صنفين من البدو، تختلف الشروط المادية والأحوال العامة لكل منهما، فإنه من المتوقع أن تختلف الظروف في هذا الصنف عنها في الصنف الآخر.

ومن الظروف التي تمكن هذين الصنفين من تأسيس الملك:

ب-1-1- الدعوة الدينية و السياسية:

إن العلاقات العصبية داخل صنف بدو "العرب ومن في معناهم" لا يمكنها أن تتطور إلى عصبية جامعة تستهويها الحضارة وسكنى المدن وسلطة الملك وثمراته إلا إذا تبدلت أحوالهم وتفتحت أمامهم آفاق جديدة لأبد إذن لكي تجمع كلمة هؤلاء على المطالبة من عامل آخر يذهب عنهم الغلظة والتنافس والألفة ويزرعهم عن التحاسد والتنافس. قد يكون هذا العامل ديناً أو دعوة دينية سواء كانت نبوة أو رسالة، أو دعوة إصلاحية تعتمد في نشاطها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

¹ - الجابري، المرجع السابق، ص 283

ب-1-2- العصبية و هرم الدولة:

إن الدعوة الدينية إنما يحتاج إليها باعتبارها عامل توحيد للعصبيات المتنافرة في ذلك المجتمع البدوي الذي يتشكل من البدو والرحل. أما في المجتمعات الزراعية والتي تتميز بطابع الاستقرار فليس من الضروري لتوحيد صفوف أفرادها في عصبية عامة قيام دعوة دينية، ذلك لأن الشروط المادية لحياة هؤلاء تساعد هي نفسها على قيام مثل هذه الوحدة المنشودة: إن الأساس الذي تقوم عليه العصبية عندهم ليس النسب وحده، فهو مختلط وأثره ضئيل بل إن عصبية هؤلاء تقوم على رابطة أوسع وأمتن هي المصلحة المشتركة التي يولدها وينميها طول المعاشرة، إنهم كمجتمعات مرتبطة بالأرض تقوم بينهم علاقات اقتصادية معينة لكن مع ذلك لا بد من توفر ظروف معينة توقظ عصبيتهم وتوحيدها وتحملهم على المطالبة أي الثورة ضد الحكم القائم. وليست هذه الظروف المطلوبة هنا إلا تلك التي يعبر عنها ابن خلدون، "هرم الدولة" بمعنى تلك المرحلة التي تفسد فيها العصبية الحاكمة.

ب-2- أسباب فساد العصبية:

مثلاً للعصبية أسباب للنجاح فلها أيضاً أسبابها تؤدي إلى فشلها، ويصنف ابن خلدون العوامل التي تعوق العصبية عن تحقيق الغاية التي تجرى إليها (الملك) إلى قسمين⁽¹⁾: قسم يشل فاعلية العصبية في البداية، وقسم يقف بها في منتصف الطريق ويشرح ذلك:

¹ - محمد عابد الجابري ، مرجع سابق ، ص 280

ب-2-1- لا عصبية بين الخضوع و الانقياد

يرى ابن خلدون أن: "من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم"⁽¹⁾. ويشرح ذلك بكون المذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها "فإن إنقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا المذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة"⁽²⁾ ويقول في مكان آخر أيضا إن الأحكام مفسدة للبأس ذاهبة بسورة العصبية بل إنه يذهب إلى ابعد من ذلك فيؤكد: "ان الأمة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء"⁽³⁾.

إن السلطة لا تشتد ولا تلعب دورها التاريخي إلا حيث يكون الناس أحرارا من كل سلطة خارجية، سواء كانت سلطة الدولة أو سلطة عصبية غالبية مستبدة.

وسواء كانت هذه السلطة تحكما في النفوس أو استغلالا للخيرات والأموال بوجه من وجوه الاستغلال ولو كانت من ضرائب وغرائب، ذلك: "لأن في المغارم والضرائب خيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا إستهوتته عن القتل والتلف وأن عصبيتها حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية"⁽⁴⁾. وهكذا "فإذا رأيت القبيل بالمغارم في ربة من الذل فلا تطمعن لها بملك اخر الدهر"⁽⁵⁾.

¹ - ابن خلدون ،المقدمة ص 80

² - نفس المرجع، نفس الصفحة

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة

⁴ - ابن خلدون ، المرجع السابق ، ص 81

⁵ - نفس المرجع نفس الصفحة

ب-2-2- لا عصبية بين الترف والنعيم:

1- إن العصبية إذا غلبت بعض الغلب "استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعيم و الخصب في نعمتهم"⁽¹⁾. وهذا يعنى أن العصبية مرتبطة بهدف الحصول على مستوى أحسن من العيش لذلك تقف العصبية من منتصف الطريق راضية بما حصلت عليه من مكاسب مادية.

2- إن "عوارض الترف و الغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية"⁽²⁾. وذلك إلى درجة انه بمقدار ما "تذهب خشونة البداوة تضعف العصبية والبسالة"⁽³⁾. وهذا يدل على أن العصبية مرتبطة وإلى أبعد الحدود بشطف العيش الملازم بخشونة البداوة.

4-الدولة وتطورها: الدورة العصبية:

إن مفهوم الدولة عند ابن خلدون هو "الامتداد الزماني والمكاني لحكم عصبية ما"⁽⁴⁾، ولهذا الإمتداد مجال مكاني غير ثابت يتوقف تطوره على مدى نفوذ الدولة واتساع حال عصبيتها من جهة وحال العصبية في المناطق التي تحكمها أو تريد بسط نفوذها عليها من جهة أخرى.

بينما يكون كل ذلك نتيجة تطور في الزمان يمكن تسميته "بالدورة العصبية" ولها مدة محدودة: "إن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص" أي من الطفولة (التأسيس)، الشباب (طور العظمة)، الشيخوخة (الهرم) ويحددها ابن خلدون في ثلاثة أجيال تتم في مدة 120 سنة.

1- نفس المرجع ص80

2- نفس المرجع نفس الصفحة

3- نفس المرجع ص79

4- ابن خلدون ، المقدمة ص 76

- مستويات تطور الدولة ووامله:

يدرس ابن خلدون الدولة بناء على المعاني التي يعطيها لها باعتبارها امتدادا حكم عصبية ما في الزمان، يدرس هذا التطور من خلال كون الدولة شخص يملك، عصبية تحكم، وعصبية غالبية وأخرى مغلوبة ، وهذا يعني أن الدولة تتطور في أن واحد على ثلاث مستويات⁽¹⁾:

- المستوى الأول: إن الدولة باعتبارها ملوكا متعاقبين على الحكم نجدها تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متعددة لا تعد وفي الغالب خمسة أطوار:

1- "طور الظفر بالبغيّة وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد... لا ينفرد دونهم بشيء منهم لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد لحالها"⁽²⁾.

2- "طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التناول للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال واتخاذ الموالى والصناع والاستكثار من ذلك لجذع أنوف عصبية وعشيرته المقاسمين له في نسبه الضاربين معه في الملك بمثل سهمه"⁽³⁾.

3- "طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت فيستفرغ (صاحب الدولة)

1- محمد عابد الجابري ، مرجع سابق، ص 330

2- ابن خلدون ، المقدمة ص79

3- محمد عابد الجابري ، مرجع سابق، ص 330

وسعه في الجباية... وتشديد المباني... وإجازة الوقود... واعتراض (استعراض) جنوده وإدراج أرزاقهم... فيباهي بهم الدولة المسالمة ويهرب الدول المحاربة⁽¹⁾.

4- "طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه سلما لأنظاره من الملوك وأمثاله مقلدا للماضيين من سلفه"⁽²⁾.

5- "طور الإسراف والتبذير ، يكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته في مجالسه كان سلفه يؤسسون، وهادما لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمّن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها منه برء إلا أن تنقرض"⁽³⁾.

هذه الأطوار الخمسة التي تجتازها الدولة باعتبارها شخصا يملك، مرتبطة وموازية لنفس الأطوار التي يمر بها الحسب خلال تعاقبه في الملوك واحدا بعد الآخر فكما أن المُلْك غاية طبيعية للعصبية فهو أيضا "غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب"⁽⁴⁾. وكما تفسد العصبية يفسد الحسب المكمل لها. وفساده راجع إلى أن وارثه يستفيد منه دون أن يعمل من جانبه - في الغالب - على تعزيزه وإتساعه لذلك كانت نهاية الحسب التلف والاضمحلال وغالبا ما لا تتعدى مدته "في العقب أربعة أباء".

-المستوى الثاني:

إذا كان تطور الدولة باعتبارها شخصا يملك راجعا إلى الحسب فإن تطورها باعتبارها جماعة تحكم يرجع إلى حال العصبية في هذه الجماعة أي

1- نفس المرجع ص96

2- نفس المرجع نفس الصفحة

3- نفس المرجع ص79

4- ابن خلدون ، المقدمة، ص 79.

إلى مدى تدرج العصبية في أهل من القوة إلى الضعف من الالتحام والتعاقد، إلى الانحلال والتخاذل، ويحدد ابن خلدون عمردولة في ثلاثة أجيال كما رأينا لا تتعدها في الغالب والمقصود هنا ليس الأجيال ذاتها بل حال العصبية في كل منها⁽¹⁾.

إن الجيل الأول من العصبية الحاكمة هو الجيل الذي قام بالثورة فهو جيل بدوي مازال "على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك بالمجد فلا تزال بذلك العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبين"⁽²⁾.

أما الجيل الثاني فقد تربى في أحضان الملك والرئاسة، ونشأ (بالعاصمة)، قلب المجتمع الحضري وبما أن "الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه"⁽³⁾، فإن حال هذا الجيل سيختلف عن الأول رغم أنهم "أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم وسعيهم إلى المجد ومرامهم في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ماذهب"⁽⁴⁾. فالجيل الثاني إذن جيل وسط لم يغرق في الحضارة إلى الدرجة التي ينسى معها خلق البداوة بالمرة.

أما الجيل الثالث والأخير فإن أفرادهم "ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفتقوه(استمتعوا) من النعيم وغضاضة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة(...)

1- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 233

2- ابن خلدون، المرجع السابق، ص 97

3- ابن خلدون، المقدمة، ص 97

4- نفس المرجع نفس الصفحة

فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أجل النجدة، ويستكثر بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الفناء حتى ياذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما جمعت⁽¹⁾.
المستوى الثالث:

- من خشونة البداوة إلى رقة الحضارة:

إن التطور العام للدولة الكلية العامة سيسير على نفس الخط وسيتجاوز نفس المراحل: مرحلة الالتحام والقوة، مرحلة الاستبداد والمجد، ثم مرحلة الضعف والتفكيك. وهكذا فإن الدولة ككل تجتاز ثلاثة أطوار رئيسية: طور التأسيس والبناء، طور العظمة والمج، طور الهرم الاضمحلال⁽²⁾.
أ- طور التأسيس:

يتميز بالخصائص التالية:

1- استمرار العصبية: تكون العلاقات السائدة في هذا الطور الأول هي المساهمة في السلطة والمشاركة في الثروة الناجمة عن الغنائم "لأن المجد مشترك بين العصابة وكان سعيهم له واحدا كانت همهم في التغلب على الغير... وممرامهم إلى العز جميعا وهم يستطيعون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم..."⁽³⁾.

2- والخاصية الثانية هي أن علاقات الدولة برعيتها من جنس علاقات أفرادها بعضهم مع البعض فإذا كانت العلاقات القائمة بين أهل الدولة أفراد العصبية الحاكمة هي علاقات مشاركة ومساهمة فإن علاقاتها أيضا مع أهل العصبيات الذين أصبحوا تحت سلطتها، ومع سكان المناطق الخاضعة

¹- نفس المرجع نفس الصفحة

²- محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 337

³- ابن خلدون، المقدمة ص 95

لنفوذها هي أيضا علاقات تتسم بكثير من الرفق والتسامح لأنها صادرة عن خلال الحميدة التي جعلت العصبية الحاكمة تتبوأ منصب الرئاسة ومن ثمة الملك.

3- والخاصية الثالثة التي يتميزها التأسيس تتعلق بالسياسة المالية وهي سياسة تابعة للأساس الذي كانت سياستها حينئذ قائمة على "سنن الدين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزع".

أما إذا كان الأساس الذي قامت عليه الدولة هو العصبية وحدها فإن سياستها المالية في هذه الحالة لا بد أن تكون مبنية على خلق البداوة "والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي في أموال الناس، والغفلة على تحصيل ذلك إلا في النادر فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة (الضرائب) والوزيعة التي تجمع الاموال من مجموعها وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتماد ويتزايد محصول الاعتباط بقلّة المغرم"⁽¹⁾ ثم إن الدولة في هذا الطور ونظرا لقربها من حياة البداوة "تكون قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده، فيكون خرجها وإنفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ و ناء بازيد منها بل بفضل منها كثير من حاجاتهم"⁽²⁾.

ب- طور العظمة والمجد:

يتميز هذا الطور هو الآخر بثلاثة خصائص تكاد تناقض مميزات الطور الأول وهي:

¹- ابن خلدون ، المقدمة ص96

²- نفس المرجع نفس الصفحة

نتيجة الرخاء الذي ساد الدولة في آخر الدور السابق وبدلاً من خشونة البداوة تبدأ "رقّة الحضارة" وبدلاً من المساهمة والمشاركة يبدأ الاستبداد والانفراد بالمجد وعوضاً من اعتماد صاحب الملك على عصبية وعشيرته يلجأ إلى الموالي والمصطنعين الذين يأخذ في الاعتماد عليهم والاستغناء تدريجياً عن عصبية، كل ذلك نتيجة تدخل العنصر الاقتصادي في الميدان بشكل أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً مما يبرز المصالح الخاصة الشخصية التي تتناقض مع المصلحة المشتركة التي كانت أساس العصبية والملك⁽¹⁾.

ت- ظهور الهرم و الاضمحلال:

إن العصبية والمال هما الدعامتان الأساسيتان الرئيسيتان اللتان يقوم عليها كيان الدولة فبالعصبية والشوكة تستطيع العصبية النائرة المطالبة إحراز النصر وتأسيس الملك وبالمملك تستطيع أن تبني مجدها، فتنقل من خشونة البداوة إلى رقة الحضارة. والهرم إنما يصيب الدولة إذا أصاب إحدى هاتين الدعامتين أو كليتهما ضعف أو خلل، وهذا ما يوضحه ابن خلدون في فصل "كيفية طروق الخلل الدولة" في قوله "أعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما: فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند وإقامه ما يحتاج إليه الملك من الأحوال والخلل إذا طرقت الدولة طرقها في هذين الأساسين"⁽²⁾.

ولقد لخص الجابري رأي ابن خلدون في هذا الصدد في ثلاثة نقاط⁽³⁾

1- إن تفكيك عصبية الأسرة الحاكمة لاتستلزم حتما انهيار الدولة.

1- محمد عابد الجابري ، المرجع السابق ، ص 343

2- ابن خلدون ، المقدمة ص95

3- محمد عابد الجابري، نفس المرجع ، ص 346

2- عندما تصادف مرحلة هرم الدولة وجود مطالبين أو منازعين أو عصبيات قوية تروم الاستلاء على السلطة.

3- انتقال السلطة الفعلية إلى بطانة صاحب الدولة من الموالى والمصطنعيين واحتفاظه هو بالسلطة الاسمية فقط.

وهكذا إذن حسب ابن خلدون كل ظاهرة تحمل في ثناياها منذ بروزها في مجريات الحياة جرثومة هزلها وسبب خرابها وهذه الحركة مدرجة في طبيعة الأشياء نفسها⁽¹⁾.

تعود الظاهرة الاستعمارية إلى البدايات الأولى لتبلور القوى العظمى في العالم، التي كانت تتصرف بموجب مصالحها الإقتصادية خاصة. تطور الاستعمار مع الزمن وأخذ أشكالا مختلفة حسب طبيعة تلك المصالح. ولعل الرومان قديما، البرتغال، إسبانيا، إنجلترا وفرنسا حديثا احسن أمثلة للاستعمار الغربي خلال الخمسة قرون الماضية، التي مر فيها على ثلاث مراحل:

1- مرحلة الاستكشافات الجغرافية ق15

2- مرحلة الثورة الصناعية ق18

3- مرحلة الرأسمالية ق19-20

إذا اعتبرت كل من إنجلترا وفرنسا أكبر مدرستين استعماريّتين فإنهما تختلفان تماما في السياسة المتبعة تجاه المحكومين (المستعمرين)، تعتمد الأولى على نظام الحكم غير المباشر بينما تتناقضها الثانية نظريا في سياسة الحكم المباشر (الإدماج)

وكلاهما نابعين من سياسة الإخضاع القديمة.

¹ - عبد الغني مغربي ، مرجع سابق ، ص 120

إذا كانت تلك السياستان نابعتين من أفكار الأنثربولوجيين الغربيين. أمثال ليوقارد ومالينوفسكي. التي استفاد منها السياسيون والإداريون في علاقاتهم مع المحكومين فإنها لا تقدم لنا نظرية متكاملة لتفسير الديناميكية التاريخية للسلطة التقليدية: نشأتها وتطورها، شبكتها الداخلية والخارجية على عكس نظرية الصراع العصبي لابن خلدون الذي جعل من مفهوم العصبية أداة لتفسير الصراع السوسيو اقتصادي اللازم لنشأة النواة السياسية التي تتطور وتنتهي بالدول والإمبراطوريات ثم تهزم وتضمحل لأسباب مختلفة تحت وطأة الحتمية التاريخية: فكل ظاهرة تحمل في ثناياها أسباب فناءها.

الفصل الثالث

السلطة التقليدية

التأسيس وظهور العصبية

التنظيم السياسي

القاعدة بين النظرية والتطبيق

السلطة التقليدية

1- التأسيس:

أ- الأصول الأولى:

يبدو أن البربر يشكلون شعبا كبيرا من القبائل ويشتركون في عدد من السمات والعادات التي تميزهم عن غيرهم. لقد احتكوا قديما ببلدان السودان وقاموا بحروب طويلة من طرابلس إلى طنجة، من المحيط الاطلنطي إلى جنوب النيجر والسنغال⁽¹⁾ وإلى مشارف نهر النيل بمصر.

وكان "الملثمين" مكانة معتبرة في التجارة العابرة للصحراء حيث زاحمت تجارة مملكة مالي التي نافستها "تادمكات" أو ما يسمى حاليا "السوك" المنتشرة آثارها شمال غرب كيدال، والتي كانت أيضا نقطة تمركز الملثمين الأولى.

بعد مغادرة "السوك" النهائية اتجهت هجرات القبائل إلى الجنوب نحو ضفاف النيجر من جهة وإلى الشمال تجاه أهقار والشمال الشرقي بأزجر من جهة أخرى، وصاحب ذلك تحولا كبيرا في طرق القوافل العابرة للصحراء لتظهر أسواق جديدة مزدهرة: عين صالح، غدامس، غات.

إلى ذلك الحين كانت تسيّر هذه المنطقة مجموعتان كبيرتان:

- الأولى شمالية تدعى "اهلن ملن" تجمع أهقار وأزجر

- الثانية جنوبية تدعى "اهن سطفن" تجمع اضاغ وأير.

كان "كيل أهقار وأزجر يشكلان قبيلة واحدة"⁽²⁾ تحت الاسم الأول الذي يعني أصحاب "الخيمة البيضاء" مقابل "أصحاب الخيمة السوداء"⁽¹⁾ بالجنوب.

¹ - Marceau (gaste), Histoire de Commandement en Ahaggar, Doc.(CNRPAH), P 01, S.D

² - مصدر شفوي، رقم: 03

وبالتالي كان كيل أهقار واجر تحت لواء سلطة واحدة في "إمبراطورية" كبيرة مترامية الأطراف « تشبه في نظامها إلى حد كبير نظام "الطبل" »⁽²⁾.
وقد يكونون جزءا من صنهاجة⁽³⁾ الملتمين القاطنين حسب ابن خلدون
"وراء الرمال الصحراوية بالجنوب... منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها"⁽⁴⁾.
وإذا كان هذا النظام يشبه نظام الطبل فهذا يعني:

1- وجود سلطة عليا يشغلها حاكم أعلى يمثل العصبية الغالبة
"امنوكال".

2- ان تناقل السلطة يتم على خط نسب الأم.
ظهرت هذه القاعدة قبل الفتح « القرن العاشر » في الصحراء وتحدث
عنها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر باستغراب.
وكما يبدو فإن هذه السلطة مبنية على وازع سياسي-اقتصادي يقوم
على نسب القرابة وعلى أساس ضرورة التعاون والالتحام للغاية المشتركة
(نحلة المعاش) في هذا الوسط الصعب: الصحراء من جهة والدفاع ضد
العصبيات الأخرى من جهة أخرى.

¹ - مصدر شفوي ، رقم: 01

² - مصدر شفوي ، رقم: 07

³ - وقد تكون أيضا نفس القبيلة التي تحدث عنها ابن خلدون بإسم أبناء "تيسكي" المرأة البربرية التي يسميها العرب "تيسكي العرجاء" والتي يسميها ابن بطوطة "هكسور" القاطنة بالصحراء الوسطى في القرن الرابع عشر .

⁴ - ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج 6 ، ص 371

ب- امانان : إنتهاء العصبية الأولى:

بعد مجئ الإسلام الى المنطقة، في حدود القرن العاشر كانت مجموعة من امانان قد حلت بها قادمة من تفيلا لت، وهم " شرفة حقيقيون نصف منهم ادارسة والنصف الآخر علويون"⁽¹⁾، والأشراف " فئة إجتماعية مرموقة قديمة قائمة في بعض المجتمعات العربية والإسلامية يجمع بينها القول بالانتساب إلى الرسول محمد^(٨)، أو المقربين من عائلته واكتسبت مكانتها من احترام المجتمع لنسبها ومن تولى أفرادها الوظائف الاجتماعية والدينية ومن ملكيتها للأراضي وإدارتها للأوقاف ومن مواقعها في قيادة القبائل أو الفرق الصوفية وكان الرسول قد أوصى خيرالذريته"⁽²⁾.

وحسب Benhazera فإن امانان من بين أوائل الذين حولوا التوارق إلى الإسلام⁽³⁾ وكونهم من احفاد الرسول فرض احترامهم من طرف المسلمين "الجدد"، ومنحهم الحاح والوقارالذي عظم مكانتهم وقدرهم، وسلطتهم السياسية والإيديولوجية⁽⁴⁾. ويبدو أن هذا ما جعل "كيل اهن ملن" يسلمون لهم السلطة برضاهم دون أية مواجهة أو اعتراض، إذ لم يتحدث أي مصدر من قبل حول مجرد خلاف صادر عن هذا التنقل السلمي للسلطة التي انبسطت على كامل "الإمبراطورية" المذكورة. ومن الواضح أن ذلك جاء من "طول المعاشرة" التي أسقطت عليهم صفة الأجنبي وربطتهم بروح الجماعة وثقافتها لأن « النسب الواجب لتناقل السلطة ليس من الضروري أن يكون مبنيا على "قرابة الدم". ثم الحسب لا يخصهم إطلاقا "أن يعد الرجل في آباءه أشرافا مذكورين يكون

¹ - Voir ; Duveyrier,(H), OP-Cit

² - عبد الوهاب الكيالي ، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية لدراسات والنشر ، ط2، بيروت 1993 ص 76

³ - Benhazera (M), *six mois chez les touaregs du HOGGAR*, A. Jourdin, Paris, 1908 P 101

⁴ - Marceau (Gaste), « Pastoralisme nomade et pouvoir : la société traditionnelle de KelAhaggar », In *pastoralisme* 4 - Edisud, Paris 1987, P 212

له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته ، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفه بخلالها⁽¹⁾ فهم أحفاد أشرف شخصية لدى المسلمين. هذه الشروط تؤهلهم بدون منازع إلى "الرياسة".

وهكذا انتهت عصبية مبنية على وازع سياسي-اقتصادي وبرزت عصبية جديدة بوازع ديني-أخلاقي.

أدخل امانان تغييرين أساسيين في نظام الحكم:

- 1- تحويل لقب الحاكم إلى "السلطان" مع الاحتفاظ باسم "أمنوكال".
- 2- تغيير قاعدة تناقل السلطة التي أصبحت تشترط "أن يكون الوارث من أب وأم ينتميان إلى امانان ويرث الأب لابنه".

وكما يبدو فإن هذين التغييرين يشملان جزءا من القاعدة القديمة وجزءا من القاعدة الجديدة، ويفسر ذلك باقتران العادات العربية والايديولوجيا الإسلامية التي يحملها امانان مع الثقافة المحلية؛ في نفس الوقت الذي تحفظ العادات والأعراف القديمة تمرر عادات وتقاليد جديدة كمرحلة انتقالية. الهدف منها الحفاظ على النفوذ واستمراره. لكن رغم ذلك لم يتم تبني تلك القاعدة في نسق التنظيم السياسي والاجتماعي للمجتمع.

شهدت فترة حكم امانان توسعا نحو الجنوب الغربي إلى أدرار-فوغاس⁽²⁾ مكونين حلفا قبليا كبيرا، يشمل عدة عصبيات، إلا أن شوكتهم وقوتهم الضاربة وحلفاءهم الإستراتيجيين هم رجال قبيلة "إمنغساتن". وقد سمحت لهم فترة حكمهم الطويلة في إعادة توزيع ملكية الأراضي والمناطق الرعوية وتنظيمها.

¹ - ابن خلدون ، المقدمة، ص 75.

² - Claudot (H -helene), *la sémantique au service de l'anthropologie*, ed.C.N.R.S 1982, P 39

جعل "السلطين الجدد" من المدن مراكز لإقامتهم خاصة غات وجانت حتى آخرهم وهو "قوما" الذي وصلت العصبية في عصره إلى الطور الثاني من المستوى الأول لتصور ابن خلدون "طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التناول والمشاركة" وهذا حسب مضمون المصادر الشفوية التي تورد أن هؤلاء السلطين ورطوا البلاد في حروب عديدة ومتلفة، وطريقة حكمهم القاهرة ستجعلهم غير مرغوبين لاحقا وتاذن بزوال "إمبراطوريتهم".

ت - اوراغن: اعتلاء السلطة

يحتفظ اوراغن بتفاصيل كاملة عن روايتهم الطويلة لاعتلائهم السلطة والقضاء على إمبراطورية امان إلى الأبد.

يعود أصل اوراغن إلى ضواحي سوكنة وكانوا يقطنون مناطق ضواحي غات وأزواغ وهو إقليم يقع على الحافة اليسرى لنهر النيجر شرق تين بكتو، ومن هنا كانت بداية أحداث الرواية التي أسست عليها سلطة إوراغن بهذه الكيفية⁽¹⁾: « في حوالي منتصف القرن السابع عشر⁽²⁾ كان رجل يدعى محمد أق تين كرباس أحد أكبر أسياد إوراغن وقد أخذته أمه وهو صغير من أزجر مسقط رأسه إلى أزواغ، هربا من إمان حتى كبر واشتد ساعده. وفي إحدى مباريات لعبة "تكاتشيلت"¹ كانت ضرباته القوية لا فته للانتباه، وجانبا كانت امرأة حكيمة تلاحظ وتشاهد، ثم قررت أن تتحدث بسر قديم وبإيماء العجائز قالت له: - كم هي رائعة ضرباتك لو كانت في موطنك! اندهش واستفسر: - واين موطني ألسنت في وطني؟ أجابته ببداهة

¹ - مصدر شفوي رقم: 01، (نفس الرواية تقريبا التي سردها اوراغن للمغامر Duveyrier قبل أكثر من 145 سنة مع بعض الإضافات).

² - تاريخ تقريبي حسب شجرة النسب، والذي قيمه دفيريه في حدود سنة 1660 م

العارفين؛ -أزجر، موطنك أزجر! هكذا ببساطة، لم يكن ذلك ليقتنعه إلا بعد ان تحدثا طويلا عن كل التفاصيل والأسرار، حينها قرر أن يعود إلى موطنه الأصلي وموطن أمه وأقاربه، للانتقام لإخوته الذين اضطهدوا ومازالوا. جمع عددا كبيرا من إوراغن الساكنين بأزواغ وكل أير فتوجه الجمع إلى أزجر. وأثناء مروره بمدينة جانت التي تعود ملكيتها إلى إمان وجد أق تين كرباس امرأة فقيرة تبكي وقد أخذ السلطان منها عشاءها القليل، وفي شكايتها تتحدث على نحو محزن وتذكر إسم محمد أق تين كرباس على أنه الوحيد الذي يستطيع وقف كل هذه الإهانات التي يتعرض لها كيل أزجر. اندهش من كون اسمه معروفا في هذا المكان البعيد عن إقامته فاقترب من المرأة وسألها عن سبب حزنها فحكّت له بالتفصيل المأساة التي تعرض لها إخوانه ثم سألها إن كانت تعرف أق تين كرباس فقالت: نعم، له علامة على جبهته. كشف المعني عن جبهته وقال: لا تقولي شيئا سينتهي الأمر قريبا. وهنا يتذكر المسافر عن ما سمع سابقا حول الذل الذي كانت جماعة قبيلته هدفا له من طرف امان في سوق غات الذي يترددون عليه وتذكر أيضا الشكاوى الحديثة الموجهة إلى القبيلة الكبيرة بـ أزواغ من طرف فرقة صغيرة من إوراغن الساكنة بـ أزجر. ولهذه الأسباب بدأ الهجوم وتمكن أحد إوراغن المسمى "بيسكا" من قتل قوما الذي استعبده شخصيا، ولم يكن هذا الحدث خارج الأسباب التي أدت أق تين كرباس بالسفر إلى أزجر. وفي نفس الوقت هناك زعيم إنغساتن "كوتيك" الذي كانت له في شبابه سمعة كبيرة في الشجاعة والاعتبار لكنه، أصبح الآن معمرا وفاقدا للبصر؛ وحتى يصل إلى مكان الوضوء والغسل يضع حبالا يمتد من منزله بـ غات إلى مزرعته المجاورة للمدينة أين يمتلك بثرا يسمى تانوت ن- منان. كان

الأعمى قد وصل إلى مزرعته مستدلاً بحبله عندما غادر إوراغن غات نحو قرية "فيوت" بعد أن غيروا منحى الحبل ليسقط الأعمى في البئر لا شيء إلا لإثارة غضب إمنغساتن أصدقاء وموالي إمانن الأساسيين. بدأت كلبة تنبح في المزرعة فصوب إليها أحدهم الرمح الذي اخترقها لكنها لم تمت في الحال، ركضت نحو غات تجر الرمح العالق ببطنها، لتدل إمنغساتن على فاعل الجريمة.

غرقت مدينة غات في اضطراب وقلق وردد الجميع جملة "يوجر أجن إوراغن تنغي -ن- تيديت" بمعنى "ما فعله إوراغن أكبر من قتل الكلبة" لكن يجهل إلى ذلك الحين موت كوتيكاً.

في اليوم الموالي خرج من المدينة رجل يخشاه الجميع اسمه "ادوكن" ويجد آثار قاتلي الكلبة ويتبعها إلى قرية فيوت، وكان إوراغن قد أخذوا طريق العودة إلى ذويهم، لكن ادوكن الذي عرف المسافرين أنذر إخوانه من إمنغساتن وإمانن الذين شرعوا في متابعتهم، إلى أن أدركوهم فكانت المعركة، تمكن خلالها أقي تين كرباس من قتل أدوكن بيده تحت شجرة طلع سميت ازل -ن- ادوكن أو "طلع ادوكن" وادى موت هذا الأخير إلى زعر شديد بين إمنغساتن الذين فروا بينما بقي إمانن يقاتلون إلى النهاية». ثم تواصلت القصة عن مصير إمانن والقبائل المتحالفة معهم: «إمانن فروا إلى أقاربهم سلاطين اقدز، إمنغساتن يلجؤون إلى عرب المقارحة، أما اجضانارن فالى أير عند "كيل فدي" والتجأت قبائل أخرى إلى فزان» أما عن القبائل التي قدمت خضوعها لإوراغن في الحين فهي "كيل تين ألكم وسكان المدن غات، جانت، غدامس لأنهم مستقرون".

عين محمد أق تين أكرباس على رأس البلاد معيدا سيطرته على السلطة، ومن حينها انفصلت الهقار عن أزجر.

من خلال هذه الأسطورة التأسيسية يمكننا أن نلاحظ بوضوح انها تحتوى على خطاب السلطة الجديدة الذي يعتمد على محورين متلازمين:

1- نقد سياسة السلطة السابقة

2- تبرير الاستيلاء

الأول: ويقوم على النقد بتقديم سياسة سابقه كمتعسفين مستبدين وظالمين يشتكي منهم الفقراء الذين يستعبدون مثال "المرأة التي أخذ عشاءها" بالإضافة إلى الإهانات الموجهة لنفس الفئة (الضحية) حتى يكون الانتقام شرعيا.

الثاني: تقديم الحل الشرعي والحق في الثأر للقبيلة نفسها ولل سكان على أن هذا ما يجب فعله لإعادة الاعتبار للسكان ولل قبيلة المعينة ولا يكفي فقط القضاء على رموز السلطة "قوما" وإنما حتى الموالين لهم كإمنغساتن القوة العسكرية التي تحميمهم بإزالة زعمائهم و أعيانهم كوتيكاء، أدوكن.

بمعنى آخر تقديم صورة السلطة القديمة على أنها شريرة لاتصلح وتقديم السلطة الجديدة في صورة المنقذ الحامل للأمل والخير، ووصف أعضائها كأبطال أسطوريين تستمد منهم الشرعية التاريخية، خاصة إذا علمنا أن هؤلاء يعتبرون ان الجد الأول لاهن ملن الحكام الأقدمون هو رجل من اوراغن، وبالتالي تعود اليهم السلطة حتى عن طريق القرابة الدموية: فلم يقوموا سوى باسترجاعها.

وإذا تتبعنا سياق أحداث الأسطورة وما جرى بعدها نجد أنها تمر على نفس مراحل تكون العصبية، أق تين أكرباس هو الشخصية المناسبة للرياسة

كونه معروفا حتى في الأقطار البعيدة بفضل الصفات الحميدة التي يتميز بها: الشجاعة، القوة، الإقدام، فهو الذي بيده الخلاص المنتظر بفضل هذا الاستعداد الفطري والطبيعي وهو الذي يحقق اجماع واتحاد العصبية، بمعنى أنه يمكن ان يقوم بدور الوازع داخل العصبية التي لابد منها للمطالبة والمواجهة والحماية ونصرة أقاربه في الدم وهذا ما حدث عندما جمع أعضاء قبيلته ب أزواغ كما كان ينتظر إخوانه ب أزجر الذين لا يجهلون مشاريعه الانتقامية وكانوا يترصدون قدومه من أجل تقديم المساعدة في حالة الضرورة بناء على رابطة النسب القريب التي تجمعهم به باعتباره من "قوم أهل البيت" ويتمتع بالخلال الحميدة. نال منصب الرياسة وعين قائدا للبلاد بفضل هذا النسب الذي تحول إلى "نسب أبعد" بعد "التغلب" على القوى المجتمعة؛ امان وامنغساتن وتفكيك إمبراطوريتهم التي كانت في طور "الهرم" بصفة نهائية، وتحولت العصبية الخاصة إلى العصبية العامة لأنه "لا بد في الرياسة على القوم أن تكون من عصبية غالبية لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم أقرؤا بالاذعان والإتباع"⁽¹⁾ وهنا حدث التوسع الآلى للعصبية بعد أن قامت قبائل كل من كيل تين الكم والمستقرين ولائهم للعصبية الجديدة، بالإضافة إلى أعضاء اوراغن الذين استدعاهم اق تين كرياس من منطقة ازواغ لتدعيم سلطته كخطوة أولى. ثم وتقاديا لأعمال انتقامية سمح لكل الفارين بالعودة الى أزجر في مناطق رعيهم أونفوذهم القديمة، بما فيهم امان وامنغساتن، لكن بهيكل جديد؛ سلاطين بدون سلطة، لهم الحق في ملكية الأراضي، وتحصيل الجباية "توسي" من بعض القبائل التي كانت تابعة لسلطتهم.

¹ - ابن خلدون ، المقدمة ، ص 75.

وهذا نوع من "التعايش السلمي" يسمح بالتخفيف من العلاقات "السلبية"، يتم بسن أعراف وتقاليد ونظم سياسية غايتها تكوين "الحلف" الذي يسمح بحماية المصلحة المشتركة "تحلة المعاش".

ومنه ظهر نظام الكونفدراليات الجديد وهي البداية الفعلية لنظام "الطبل"، بعد رجوع العصبية المغلوبة وانضمامها إلى "العصبية الكبرى" في عملية امتصاص الأجزاء لإنشاء الكل، وصاحب ذلك ظهور نظام تسلسلي تفاضلي، تحدده علاقات القوة بين الغالب، المغلوب، الموالي، التابع. وينكر مبدأ المساواة بين الأفراد والجماعات وتبقي السيطرة للعصبية الغالبة على السلطة دون غيرها. كان هذا في أزجر أولا ثم في أهقار بعد ذلك.

تشكل الحلف:

I- أزجر

بعد انتهاء حكم امان تغيرت الوضعية السياسية والاقتصادية وحتى الإقليمية ونتج عن ذلك ثلاثة احلاف كبرى يتضمن كل واحد منها اتحادات وكتل داخلية. يقود هذا التحالف اوراغن في أزجر، كيل غلا في أهقار.

1- اوراغن

لابد ان نميز بين فصيلتين من اوراغن:

- "وزجروتين" أو الكبار "نسبة الى الطول" ومن بينهم محمد اق تين اكرباس وهم فقط المؤهلون لمنصب امنوكال أو الرئاسة.

- "وجزولنين" أو الصغار، ليس لهم الحق في المنصب المذكور.

وقد يعود أصل هذا التمييز الى كون الفصيلة الأولى ممن سافروا مع اق تين كرباس ب ازواغ. والثانية من الذين كانوا في أزجر تحت سلطة امان.

بالإضافة إلى رئاستهم لكل قبائل كونفدرالية أزجر، لهم قبائل موالية بصفة مباشرة وتمثل معها كتلة قبلية قائمة على علاقات اقتصادية تتمثل في الضرائب، ملكية أراضي الرعي وتنظيمها، من بينها: (اجراجرون، كيل تانجيت، كيل توبرن، افلالن، كيل ان تونين، كيل اراس، كيل فضنون، كيل مداك، اورورن، افرقن، ازوواتن، امقرغن، ازججائن، افيلالن، جزء من كيل اهرير، جزء من كيل جانت).

تقطن معظم هذه القبائل منطقة التاسيلي خاصة مداك. بينما يرتحل اوراغن في وديان وسفوح اغرغارن، امهرو، تارات، تادارت، وضواحي جانت.

2-امنان:

بعد عودة امنان الى أزجر، بقيت تربطهم مع اوراغن علاقات سياسية فقط في نفس الوقت الذي يشكلون فيه أيضا كتلة مع بعض القبائل التي كانت تابعة لسلطتها سابقا، لكن في إطار اقتصادي شبيه بالذي يجمع اوراغن بالقبائل المذكورة سابقا، منها: ابطنائن، اكندمن، ابتامن، جزء من كيل اهرير وجزء من كيل جانت.

لكن تبقى هذه القبائل مرتبطة سياسيا بأوراغن، اذ على هؤلاء الاستجابة لخوض معركة ما أو أية أوامر في حالة ما اذا طلب منهم ذلك من طرف القبائل الحاكمة سواء بمعارضة أم بموافقة امنان رغم احتفاظهم بـ "الطبل"(*) الذي يرمز إلى السيادة التي كانت في أيديهم قبل انهزامهم، مثلما يسمون رئيس قبيلتهم بـ "امنوكال" وكل نسايم بـ "تمنوكلين".

استمر هذا اللقب بعد "قوما" وتناوب عليه كل من:

* - طنبور ينق لاعلان التجمع بأمر من امنوكال

مهاوة، وان-الله، جبور، هما، محمد، المختار، امود آخر السلاطين
1923.

يضاف إلى هاتين الكتلتين قبائل أخرى يمكن اعتبارها موالية للسلطة القائمة وبالتالي تنحصر علاقاتها أيضا في المجال السياسي، يرأس كل منها "امغار" ولها استقلال ذاتي يسمح لها بتسيير أراضي رعيها وممارسة نشاط تجارة القوافل أو النقل وحماية القوافل العابرة لـ آزر. وإذا لم يكن لها أي حق في رئاسة الكونفدرالية، فإن رأيها مهم جدا في اختيار أحد مرشحي القبيلة الحاكمة وانتخابه في منصب امنوكال.

من بين هذه القبائل:

- امنغساتن:

يوجد مقرهم الرئيسي بـ واد الشاطي تارجا أو واد درج، ينقسمون الى ثلاث فصائل:

* تجهي -ن- ابار

* اننكاتن

* تجهي -ن- بدن

ويشكلون كتلة صغيرة مع القبائل: اكلزن، كيل تون

- افوغاس:

وهم رجال دين في الغالب، يتفرع بعضهم الى الزاوية التجانية بـ تماسنين. يعود أصلهم الى "السوك" قبل ان يتوزعوا في جميع مناطق تواجد التوارق. ينقسمون بدورهم الى فصيلتين:

* وين اقضااض

* وين الطبل

وكانت الفصلية الثانية على علاقات جيدة مع سلاطين امان القدماء

-اجضاتارن:

يرتحلون كثيرا بين ازجر واهقار، وتعود منطقة نفوذهم الأساسية في آدمر.

نميز من بينهم ثلاث فصائل:

* وبين تمولات

* وسطافنين

* كيل درقو او كيل انقاجي

بالإضافة الى قبائل أخرى نذكر منها:

* المتين

* امتغلان

* كيل ازيان

لكل هذه القبائل مناطق نفوذها الذاتي التي تدخل بدورها في الإطار العام لدائرة نفوذ السلطة التقليدية أو "العصبية العامة".

II - اهقار:

رغم أن كيل اهقار يقرون على أن بداية ظهور الكونفدرالية يعود إلى تاريخ الانفصال المذكور عن أزجر بعد أن كانتا تحت إمرة امان إلا أنهم يرجعون رواية التأسيس إلى شخصية أنثوية "تين هنان" والتي جاءت أيضا من تفيالنت وينتسب إليها كيل غلا وكيل تايثوف.

في الوقت الذي اعتلى اوراغن السلطة في أزجر وشرعوا في تنظيم التجارة واستتباب الأمن، سادت الفوضى بأهقار وضواحيها، وشهدت حروبا وغزوات داخلية وخارجية. قبل ذلك تم غزو واحتلال توات وقورارة في الشمال

1581 من طرف "الشريف المنصور" والذي أخضع أيضا جزءا من السودان عندما استولى على تين بكتو 1591 التي أصبحت منذ ذلك الحين مركز نفوذ رجال الدين، الشرفة، التواتيون، أو الكنتاويين ولم يتدخلوا لمساعدة امان اقاربهم في "النسب" أثناء تفكك إمبراطوريتهم⁽¹⁾.

كيل أهقار من جهتهم لم يتوقفوا عن غزواتهم على مناطق توات من جهة وعلى كونتا من جهة أخرى، في نفس الوقت الذي تشهد فيه الوضعية الداخلية حروبا اهلية عديدة بين كيل أهقار أنفسهم.

ولقد استمرت هذه الإضطرابات نحو قرن من الزمان، لينتق كيل أهقار أخيرا على أن يجعلوا من بينهم زعيما يعترفون به ممثلا للسلطة، تحت لقب أمنوكال، كما هو الحال في أزجر، وتم اختيار صالح الذي تمكن من استتباب السلم بعد اتفاق مع رجل الدين ب كونتا سيدي محمد عبد الرحمن بن ابي نعامة. خلف صالح ابنه محمد الخير الذي استمر في العلاقات الجيدة التي ارساها أبوه مع رجال الدين ب كونتا، وهو أيضا يخلفه ابنه سيدي أق محمد الخير.

وإلى ذلك الحين كانت المجموعة المسيطرة على السلطة هي "تجهي-ن-أو سيدي" بينما لم تمثل قبائل كيل غلا، تاييتوف، تجهي ملت سوى مجموعات ثانوية، لكن زواج سيدي من "كلة" سليلة تين هنان، وسلف كيل غلا قد ادى إلى انقلاب الوضعية لصالح الأنساب الجدد كيل غلا، بعد أن انقرضت تجهي-ن-أو سيدي. فوجد تاييتوف وتجهي ملت انفسهم مقصيين من السلطة. وظهر من جديد الصراع العصبي وبدأت الاحتجاجات

¹ - Benhazera , op-cit, p102

والتنازعات و"المطالبة" حتى بالاستقلال عن "الطبل" اقليميا واجتماعيا وسياسيا.

ولكي يستتب الأمن والسلم، والحفاظ على الوحدة والقوة، ولحماية مصالحه بعد زواجه من كلة وجد سيدي نفسه، مجبرا على إعادة تنظيم الكونفدرالية فقسمها الى ثلاث مناطق نفوذ داخلية لها إستقلال ذاتي:

1- الكتلة الشرقية : لصالح تجهي ملت وتضم معها فصيلتين من إسقمارن: كيل أهنت وكيل تروريت وفصيلة من ايت لواين.

2- الكتلة الغربية: لصالح تايثوق وتضم معها جزء من كيل أهنت امسلتن، وتجهي-ن- أفيس.

3- الكتلة المركزية: ترك سيدي لنفسه الأقاليم الحصينة في اتكور والمجموعات الأكثر عددا "داق غالي، اجوه ن- تهلي، إسقمارن الوسط". وبعد وفاة سيدي حاول كيل تجهي ملت منع الطرق المؤدية في الشرق إلى أسواق توات المعلنة تحت حماية كيل غلا، لكن حدث العكس عندما تغلب عليهم هؤلاء، وفر كيل تجهي ملت ليستقر جزء منهم شمالا نحو توات⁽¹⁾.

وحاول كيل تايثوق أيضا القيام بمبادرة مماثلة ولكنهم انهزموا رغم المساندة التي تحصلوا عليها من "كيل أير" ليبقي كيل غلا العصبية الغالبة التي لها الحق في "الرياسة" إلى النهاية، ومن أجل إرساء المصالحة وتقريب النسب وجعله "حقيقيا" تم تزويج أبناء سيدي، يونس واق مامة ببنات من تايثوق، وهكذا اختلط النسب واقتربت الأهداف المشتركة خاصة بعد اعتلاء أبناء يونس واق مامة رئاسة كيل تايثوق.

¹ -Marceau (Gaste), « Histoire de commandement en Ahaggar », op-cit, p3

إن التقسيم السابق للكونفدرالية داخليا، وانصهار الأنساب مع تايئوق ليس سوى "ثمرة للنسب" الضروري لتشكيل الحلف الذي يحفظ المصلحة المشتركة للجميع. وبقي لـ كيل غلا الحق في الرياسة دون غيرهم كما كان لأوراغن في أزجر، ويقابل ذلك نظام تسلسلي يحدده نسق من العلاقات السياسية- الاقتصادية والاجتماعية- التاريخية، وهذا النظام هو نتيجة لتلك العلاقات وليس العكس كما يعتقد الأوروبيون عند تحليلهم للتنظيم الاجتماعي.

1- كيل غلا:

نميز من بينهم ثلاث فصائل وهي (انمبا - ابوغلان - كيل غلا) وهي أقوى قبيلة في الكونفدرالية من حيث نفوذها وعدد القبائل الموالية لها، وموقعها الذي يحتل وسط وقمة هضبة اهقار، فهم في مركز الكونفدرالية الرئيسي.

يرأس زعيم كيل غلا التحالف المذكور. وله الحق في الجباية على القوافل الاجنبية التي تعبر أراضيهم "العادة" بينما يتقاضون ضريبة رمزية عينية "توسي" من القبائل الموجودة ضمن كتلتهم المستقلة ذاتيا، نوع العلاقة هنا سياسي-اقتصادي. ومن بين هذه القبائل: داق غالي(إمسلتن)، اجوه ن-تهلي(كيل خفسا)، جزء من اسقمارن، ايت لواين، اكلان ن-توسيت، داق وان توات.

2- تايئوق:

قوة هذه القبيلة تساوي تقريبا لقوة كيل غلا ولها وزن كبير في رجحان القرار بأهقار، ومعروفة لميلها إلى الاستقلال، حيث كادت أن تشكل كونفدرالية خاصة بها لو استمرت. وبناء على التقسيم السابق تحتل المنطقة الغربية من اهقار وهي منطقة تقربها من الطريق الحيوي عين صالح-تين

بكتو واضاع، وإذا كانت العلاقة التي تربط كيل تايتوق بـ كيل غلا تتحصر في العلاقة السياسية فإن لها ارتباطاً سياسياً اقتصادياً مع القبائل التي تعيش في كتلتها التي تمارس فيها سلطتها السياسية الذاتية، فهي أيضاً تتلقى "توسي" من القبائل:

- كيل أهنت المتمركزين في المرتفعات الواقعة بين تين بكتو واضاع.
- جزء من امسلتن، تجهي-ن- افيش، اورورن، اكوئسن، كيل ان تونين، اكرمين، اسوكلان.

3- تجهي ملت:

ويسمون أولاد مسعود أيضاً، لها استقلال ذاتي في الجزء الشرقي بـ أهقار "نقدست" مع القبائل التالية: (كيل أوهت، كيل تروريت ومجموعات أخرى صغيرة).

بالإضافة إلى هذه القبائل توجد أخرى لها مناطق نفوذ محدودة جدا وتربطها علاقة سياسية مع القبيلة الحاكمة في إطار الحلف أو العصبية العامة كما هو الحال في أزجر.

هكذا تأسست كونفدراليتان على وازع سياسي اقتصادي مثلما كانت قبل مجيء إيمان وانتظمتا على شكل تسلسلي بنيوي تحدد فيه المكانة حسب دور كل قبيلة أو فصيلة في قصة التأسيس، إحداها تركز على الشخصية الذكورية (محمد أق تين كراس) والثانية على شخصية أنثوية (تين هنان).

ومهما كان فهما نموذجان بنيويان تم تبنيهما "كمراجع ايديولوجي" تستمد منه العصبية الحاكمة شرعية سلطتها وحقوقها في الرياسة وما يترتب عن ذلك من حوافز اقتصادية واجتماعية.

ولا يتم ذلك إلا بتثبيت مؤسسات الحكم التي تحدد وظائفها بأعراف تسمح باستمرارها جيل بعد جيل حتى تكتسب طابعا فطريا وقديما، هذا ما يحدد في التنظيم السياسي التقليدي.

2-التنظيم السياسي التقليدي:

بعد التأسيس تأتي الخطوة التي لا بد منها للحفاظ على المجد والرياسة وهي سن قوانين تدعم استمرارية العصبية وتحفظ كيان الجماعة وهويتها وتنظيم علاقاتها الداخلية والخارجية من حقوق، واجبات، عقوبات غزوات، تحالفات، إصدار قرارات... إلخ.

إلا أن ممارسة السلطة تختلف من جماعة إلى أخرى حسب سيورتها التاريخية وظروفها الجغرافية، ففي العالم اليوم وفي التاريخ آلاف من بني وأشكال ممارسة السلطة⁽¹⁾.

إن أهم ما يميز المجتمع التارقي عن باقي المجتمعات المغاربية هو تنظيمه السياسي⁽²⁾. إذا يتميز بوجود سلطة مركزية يشغلها امنوكال "حاكم أسمى" كسلطة تنفيذية يساعده مجلس شيوخ القبائل والأعيان كهيئة استشارية في التسيير واتخاذ القرارات. وينتج عن ذلك تكامل وظيفي بين الفاعلين السياسيين لـ "الطبل".

¹ - لايبار، المرجع السابق، ص 19.

² - Marceau (Gaste), "Ajjer ", In *Ancyclopedie berbère*, n° VI , 1990, P206.

I - امنوكال:

المفهوم:

أ- لغويا: امنوكال نتاج كلمتين: "مسيس" التي تعني "سيد" و"اكال" يعني "البلد" أو "الأرض" وتركيبهما يكون "مسيس -ن- اكال " بمعنى "سيد البلد" أو "سيد الأرض"، وأدت الضرورة اللغوية إلى تطور الكلمة وتحولها إلى "أمنوكال" لتصبح مفردة مستقلة. وهناك من يرى أيضا أن هذه الكلمة ناتجة عن تركيب كلمتي: "أمغار" الذي يعنى "رئيس" أو "زعيم" والتي تطلق في الأصل على رئيس القبيلة بكلمة "اكال"، والاقتران يؤدي إلى "امغار -ن- اكال" أو "رئيس البلد" ثم حذف النصف الثاني من الكلمة الأولى، وتحول الحرف الأول من الكلمة الثانية من (أ) إلى (و) لتسهيل ارتباط الكلمتين الذي يتم به أداة الوصل والملكية (ن).

لتتحول في النهاية إلى "أم -ن- وكال"

ب- اصطلاحيا:

هناك عدة تفسيرات لهذه الكلمة، ومن بين ما يطلق عليها:

- رئيس كونفدرالية الذي يورث عن طريق الخط الأمومي للمجموعة الحاكمة التي يرمز إليها عن طريق "الطنبور" الكبير الذي يدق لنداء "الميعاد".

- يطلق للدلالة على مكانة الفرد، وتبجيله المعنوي؛ القوة، الرفاهية، الذكاء، الثقافة، الحنكة السياسية...

- يطلقه اموهاغ على الزعماء الأجانب: الملك، السلطان، الإمبراطور أو أي زعيم مستقل.

- يطلق بصيغة الجمع "منوكالن" على بعض أفراد العصبية الحاكمة أو التي حكمت ولنا مثال جيد في امانان الذين حكموا اهقار وأزجر وجزء من أدرار - فوغاس حتى منتصف القرن السابع عشر.

لقد كان هذا اللقب موضع تفسيرات عديدة خاطئة في معظمها من ناحية الأوروبيين وغيرهم إذ أعطت اعتقاداتهم هذا المصطلح كلمة "مالك الأرض" أو المالك وأنه الضامن للأراضي الجماعية للطبل⁽¹⁾. وهذا يعود إلى عدم فهم علاقة السيادة بالأرض والتي تنظم قواعد استغلالها ووراثة في مجال نفوذ "الطبل" وهذا لا يعني ملكيتها، لأن في "الطبل" هناك نوعين من الأراضي.

- أراضي خاصة يمكن وراثتها عبر العائلات.
- أراضي السيادة التي تعتبر جماعية، ويسيرها أمنوكال ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن تتوارث عائليا.

فهناك بعد سياسي اقتصادي في هذا الشكل التنظيمي، إذا كانت الأرض هي المورد الأساسي لنمط حياة الرحل في تربية الماشية واستعمال خشب الأشجار فإنها تمثل أيضا مجالا للسيادة وممارسة حقوق الحكم المختلفة.

وبالنتيجة نجد أن لكل "عصبية" حقا في منطقة معينة ضمن أراضي الطبل حسب الكتلة السياسية-الاقتصادية المستقلة ذاتيا التي تنتمي إليها، بينما لا تحصر أراضي معينة للعصبية المسيطرة التي تحكم في الطبل؛ يمكن لماشيتهم أن ترتع وتجتاز كل الأراضي المخصصة للعصبيات الأخرى،

¹ - Lhote (H), Les Touaregs du hoggar, Payot, Paris 1955.

وبعود ذلك إلى العلاقات السياسية القائمة في الكونفدراليات، والتي هيئت نظام إمتياز وقواعد خاصة تشترح حقوق المرور ولرعي.

لذلك فإن الإتجاه الذي يبحث عن اسناد أمنوكال دور "مالك" أو "قائد" لهذه الأراضي، والذي انتهى بـ "أمين الأرض"، ليس بريئاً. ذلك أنه يحاول تفسير هذا المفهوم بثقافة أخرى ماسحا بذلك خصوصيته واختلافه الذي لا يتناسب مع أي مفهوم أو مؤسسة بنيوية خارج التنظيم السياسي للمجتمع التارقي.

وقد يفهم ما هو أمنوكال أحسن بتحليل وظيفته، صلاحياته ودوره في الوحدة السياسية، الإقليمية والثقافية التي يشكلها "الطبل" أو الكونفدرالية. أمنوكال هو "الرئيس الأسمى" للمجموعة القرابية "الحقيقية والوهمية" لـ "توساتن" أو القبائل التي يتشكل منها الإقليم المشترك "الطبل"، تربط بينهما علاقات ذات طابع سياسي واقتصادي.

كيفية الانتخاب:

يختار أمنوكال من بين الوارثين الذكور ضمن العصبية السائدة المعترف لها بحق الحكم: اوراغن في أزجر، كيل غلا في اهقار، حسب القاعدة.

وينتخب أمنوكال من طرف كل رؤساء العصبيات الأخرى وشيوخ العائلات والأعيان، ومن بين عدة مترشحين ورثة حق الحكم على الخط الأمومي والذي تعرف أسلافهم إلى الجيل الرابع أو الخامس.

يتم الاختيار وفق معايير وميزات خاصة لا بد من توفرها، تختبر فيها شخصية المرشح وسيرته على ثلاثة أبعاد: السياسية، الأخلاقية والثقافية، الجسمانية.

-**السياسية:** وهي الأهم فلا بد أن تكون له حنكة سياسية، شعبية، مساندة وتزكية العصبيات الأخرى وأن يكون مطلعاً على الشؤون السياسية للطليل بصفة جيدة كما يشترط أيضاً إثبات البراعة في التفاوض.

-**الأخلاقية:** كحسن السيرة، الشجاعة، البسالة، الحكمة، الصبر، الكرم والاحترام، الثقافة وأداب الحديث.

-**الجسمانية:** القوة، وسلامة الأعضاء، والنضج، غالباً ما يشترط سن الثلاثين.

لابد من ثقة متبادلة وروابط متينة بين أمنوكال وشعبه، لأنه لا وجود لجهاز ردع "الجند" في هذه المرحلة من سيرورة العصبية ومازالت قائمة على نسب القرابة (القريب والبعيد). وهو الذي يستند إليه أمنوكال لتطبيق صلاحياته.

الصلاحيات: نستطيع إيجازها في:

1- الصلاحيات السياسية:

* يمثل الكونفدرالية في كل علاقاتها الخارجية والناطق الرسمي باسمها.

* الأمر بدق الطنبور لإعلان موعد "الميعاد" لمناقشة أي أمر طارئ.

* إستدعاء مجلس الرؤساء والاعيان.

* إعلان الحرب الجماعية أو الهدنة بموافقة ومساندة أعضاء المجلس، والدفاع عن أي تهديد للتماسك المعنوي لجماعته وشرفها.

* يقود رجاله في المعارك ويوزع غنيمة الحرب.

* يتلقى ولاء العصبيات الجديدة أو المنضمة.

* تحديد مصير الاسرى.

2- الصلاحيات الاقتصادية

- غلق وفتح مناطق الرعي وتنظيم استغلال الخشب.
- السماح بمرور القوافل التجارية الأجنبية.
- يتلقى الرسوم العامة التالية:
- * ضريبة سنوية رمزية لإثبات "الولاء" على رؤوس الماشية، والسلع الناتجة عن تجارة القوافل التي تدفع من طرف أعضاء "الحلف" الذين تربطهم به العلاقات الاقتصادية والسياسية وتسمى تويسي Tiwse.
- * جباية على المزارع التي تفلح بالأراضي الواقعة في الإقليم "الطبل".
- * حقوق المرور على القوافل التي تعبر الإقليم وتسمى "العادة".
- * حصة من غنيمة الغزو التي يتحصل عليها "مولوه" المنتمون إلى كتلته، وليس على الذين ينتمون إلى الكتلة المستقلة ذاتيا.
- * الجباية الواجبة على القبائل الخارجة عن إقليم الطبل والتي تطلب الحماية من امنوكال أوأقارية الحقيقيون ضد النهب والسلب وتسمى تماز لاغت Temazlart.
- يتلقى أمنوكال أيضا هدايا الماشية التي تشكل احتياطيا عموميا، له الحق في الانتفاع بها كما يمكنه أيضا أن يساعد بها الفقراء عند إلتماسهم لإعارة نوق أوماعز حبلي.
- ويتلقى شخصا:
- * الأرباح الممنوحة لنسبه القريب من حصة تماز لاغت.
- * هدايا عديدة، نقدية وعينية، والتي ترفق في بعض الأحيان بالمداخل المذكورة، والممنوحة من طرف الأجانب، أو من المنتمين إلى كتلته، أو من أي شخص آخر يلتزم مساعدته أو العفو لسبب أو لآخر.

3- الصلاحيات القضائية و الاجتماعية:

- تسوية النزاعات على جميع المستويات الفردية منها والجماعية.
 - إعادة الثروة الحيوانية المسلوقة في الغارات المعزولة
 - إصدار الأمان على من هو مهدد من طرف ما
 - الصدقة على الفقراء والمحتاجين
 - حماية الفقراء ومساعدتهم اقتصاديا.
- كما نلاحظ أن امنوكال هو نقطة تلاقي "الطبل"، وهو رمز الأمن والعدالة، والمرجع الذي يسمح بالسير الحسن للحياة الجماعية سواء كانت سياسية اقتصادية، اجتماعية أحتى معنوية وأخلاقية. ويعتبر زعيما سياسيا وقائدا عسكريا في نفس الوقت يقوم بوظيفته هذه بمساهمة نظرائه من مجلس الشيوخ و الأعيان.

II- مجلس الشيوخ والأعيان:

لم يكن أمنوكال حاكما مطلقا، بل يشاركه في السلطة هيئة استشارية تستمد أهميتها من قوة شخصيات "أماغن" أو الشيوخ رؤساء القبائل.

أماغن لغويا يطلق في الغالب على كبير السن. على الأب، الجد وعلى كل الأسلاف الذكور تقريبا. وفي مجال التنظيم السياسي الاجتماعي فإن لهذا المفهوم معنى "القائد"، "الزعيم"، "رئيس" أو "السيد" الذي يحكم أو يملك سلطة مهما كانت رتبته ونوعها.

"أماغن -ن- توسيت" إذن هو رئيس أو زعيم قبيلة، وكل أمنوكال هو أماغن والعكس غير صحيح، ولكل قبيلة رئيس مهما كان حجمها وأهميتها.

أماغن يتوسط بين قبيلته وأمنوكال، يوصل أوامر هذا الأخير ويسهر على تنفيذها،

ويأخذ حصة قبيلته من الغنيمة، أو الضرائب سواء كانت له أم عليه، تشكل بعض القبائل كتلاً مستقلة عسكرياً وجغرافياً، تتضمن كتلتها قبائل موالية لها، يتمتع رئيسها بنفوذ يضاهي نفوذ أمنوكال كما هو الحال عند تايثوق.

ومهما كان نفوذ أمغار فإنه يشارك في انتخاب امنوكال، ومناقشة القرارات الكبرى التي تخص الكونفدرالية في المجلس الذي يجمع: أمنوكال، أمغارن ومجموعة من الأعيان والمرافقين. يجتمع المجلس في حالتين:

- 1- بدعوة من أمنوكال الذي يرأسه.
 - 2- في حالة شغور منصب أمنوكال بسبب الوفاة أو حدوث مانع ما أو لعزله وانتخاب أمنوكال جديد حسب القاعدة.
- في الحالة الأولى يتعرض المجلس إلى القضايا المهمة أو الطارئة في السياسة و الإقتصاد أو في الشؤون الاجتماعية الداخلية.

1- القضايا السياسية:

التشاور حول مستجدات الوضع واتخاذ القرارات المناسبة إزاءها كإعلان الحرب أو اقرار السلم والأمان، أو الاتفاق على المعاهدات وتفويض أمنوكال لتمثيل الكونفدرالية في "ميعاد" خارجي.

2- القضايا الاقتصادية:

تتمثل في مناقشة أمور الجباية وتحصيلها وتقسيمها، نشاط تجارة القوافل وحقوق النقل والمرور والحماية وتحديد مناطق الرعي والترحال وتنظيم أوقات غلقها وفتحها كي تستغل بشكل أحسن.

3- القضايا الاجتماعية:

يتعين على المجلس أيضا أن يفصل في النزاعات والشكاوى الواردة على جميع المستويات بين الأفراد أو القبائل داخل الكونفدرالية، إلى جانب الاهتمام بالفقراء والأرامل والمحتاجين وتعيين وكلاء عنهم لمساعدتهم.

إذن كما نلاحظ لا توجد مفاهيم تتوسط بين أمنوكال وأمغار في هذا التنظيم السياسي الخاص: امنوكال هو الحاكم الأسمى للجميع، بعد إرساء ايدولوجية التأسيس المرتكزة على علاقات القرابة التي تربطه بأصل (سلف) نموذجي وتخلده الأسطورة؛ في أهقار لم يسبق لغير كيل غلا أن مارس منصب أمنوكال منذ ظهوره، مثلما كان الشأن لأوراغن منذ اعتلائهم السلطة منتصف القرن السابع عشر، فما هي اذن القاعدة التي جعلت العصبية الغالبة تحتفظ بهذا اللقب دون غيرها منذ تأسيسها؟

3-قاعدة الحكم: بين النظرية والتطبيق

1) القاعدة: العرف الأمومي

على خلاف كل المجتمعات المغاربية تتم كل عمليات الإرث المعنوي والمادي لدى التوارق عن طريق "الخط الامومي" وهذا حسب القاعدة النظرية المعروفة: "وارث الرجل هو ابن أخته، ولا يرث العقار أو الحبوس إلا أخت الرجل، أو ابنته، ولا يرث المرأة إلا ابنتها".

من الواضح أن هذه القاعدة ظهرت قديما عند بعض المجتمعات التي تعود إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط القديمة، والناجمة عن "الحق الامومي عند البربر الذي ينتمي إلى الحضارة الإيبيرية الأيجية في البحر الابيض المتوسط والتي انتقلت إلى السودان مع الفتح البربري ثم إلى غربي السودان وإلى ساحل الذهب وساحل العاج، واختفى في معظم المناطق

الشمالية وظل محافظا على نفسه بين قبائل التوارق والبيجا التي تعيش في مناطق منعزلة⁽¹⁾. وقد لاحظ ابن بطوطة سنة 1350 هذه القاعدة أثناء مروره بأهقار فوصفها باستغراب: "وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب. فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله. ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود"⁽²⁾.

كما جاء على لسان ابن العيد (1286): "عندهم ابن الأخت هو الذي يرث حسب قاعدة تعود إلى ما قبل الإسلام"⁽³⁾.

هذه القاعدة العامة التي تدور في محيط الأم وتستبعد أن يرث الرجل لأبنائه، جعلت الكثير من الانثروبولوجيين يعتبرون خطأ هذا المجتمع "اموسيا" وهذه ميزة هؤلاء عندما يتطرقون إلى مكانة المرأة ودورها في المجتمع التقليدي⁽⁴⁾.

إن العبرة ليست في "قربة الدم" في حد ذاتها وإنما في "القربة" المتخذة أساسا لبنية الجماعة. تكون القربة عند التوارق من جهة الأم لذلك يتخذ الميراث طابعا أموميا، فورثة الشخص هم أقاربه من أمه وفي مقدمتهم أخوته لأمه وأولاد أخوته وأخواله وخالاته وأولاد خالته ومن ثمة يعود انتماء الشخص إلى قبيلة أمه مهما كان انتماء أبيه الذي لن يكون له أدنى تأثير.

¹ - عبد الجليل الطاهر، *المجتمع الليبي*، دراسات اجتماعية و انثروبولوجية، بيروت 1979، ص 87.

² - ابن بطوطة، *تحفة النظار في غرائب الأمصار*، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت 2002، ص 687.

³ - Claudot (H), *Le Fils Et le neveu, jeux et enjeux, de parenté Touarègue*, Cambridge Université press, edit maison des sciences de l'homme, Paris, 1986, P193.

⁴ - Pritchard (E-e), *La femme dans les sociétés primitives et autres essais d'anthropologie* Paris p. universitaire 1971, P35.

ومن هذه القاعدة العامة اشتقت أيضا الحقوق السياسية حيث يتم اختيار "امنوكال أو أمغار" من بين الوارثين الذكور ضمن العصبية المسيطرة المعترف لها بحق الحكم، على خط الأم وتكون الأولويات حسب شخصية المترشحين. يبدو أن هذا الامتياز يعود إلى سند السلطة الأنثوي التي بنيت عليها كل التنظيمات الاجتماعية والعلاقات السياسية التي تربط بين نفس أفراد العصبية الواحدة.

وهو نظام يناصف الجنسين باعتبار المرأة "أم الأسياء" هي مرجع ومصدر شرعية السلطة لابنها. وتساعد حركة هذه القاعدة على انتشار دوري عموديا وأفقيا في نفس الوقت وبالتالي يسمح بتداول أوسع على السلطة داخل نفس العصبية وليس داخل نفس العائلة.

وكما يظهر فإن الخصوصية الايديولوجية للسلطة عند التوارق تهدف إلى الحفاظ على هيئاتهم الاجتماعية السياسية وحمايتها من الاستيلاء الأجنبي للسلطة. ولاسيما من يجعل سنده إلى أسلاف أبويه. لأنهم يقبلون بالزواج الخارجي، وبالتالي فإن الإطار النسبي مفتوح، وهذه القاعدة هي الضمان الوحيد لبقائها لأن المرأة ومهما كان زوجها لا تغادر في أي حال من الأحوال قبيلتها.

هذا نظريا لكن هل يمكن القول إن هذه القاعدة حافظت فعلا على هذه الهيئات من الأجانب؟ وهل طبقت كما جاء في العرف؟ أم أن هناك استثناءات ناتجة عن ظاهرة الصراع حول السلطة بين الطموحات الشخصية للأفراد والجماعات؟ وهل يمكن خلال ذلك استنتاج قاعدة خاصة تفصل القاعدة العامة؟. إن اختبار تاريخ سيرورة السلطة منذ نشأتها والأشخاص الذين تناوبوا على منصب امنوكال من شأنه أن يقدم لنا مثالا ملموسا عن مدى صرامة العرف أو مرونته.

(2) تاريخ الحكم

إذا كان اوراغن يتمسكون بتفاصيل أسطورة التأسيس التي كان بطلها محمد اق تين كرياس، وكيل أهقار يحتفظون بتفاصيل أسطورة تين هنان فليس الأمر كذلك لما تبع من الأحداث، إلا بشكل عام وکلي غامض في بعض الأحيان. لذلك لم نتمكن من الحصول على بعض المعلومات في هذه المبحث إلا بالرجوع إلى بعض المصادر المدونة في القرن العشرين ورغم ذلك فإن المعلومات التي حصلنا عليها تمكننا من اختبار حالة كل امنوكال على حدة، والمنتخبين منذ انفصال الكونفدراليتين.

أ- في آزر:

احتفظت الذاكرة بأسماء كل "امنوكالن" الذين خلفوا اق تين كرياس في الفترة 1660- 1824 دون تفاصيل تذكر حول نسبهم وكيفية انتخابهم واختيارهم أو حتى مدة حكمهم لكن أكد الكثير أن الانتخاب قد تم حسب القاعدة ولم يسمعوا عن أي مشكل حول ذلك وحسب نفس المصادر التي تؤكد ما دونه دوفرييه فإن الذين خلفوا اق تين كرياس هم:

- 1- اق تين كرياس - النصف الثاني من ق17 م
- 2- الغود "لم تؤكد المصادر ولم تتف كونه ابن أخت اق تين كرياس"
- 3- سيدي الحاج الصديق
- 4- الباك
- 5- محمد اق اميدي
- 6- ان تقا
- 7- اق السعاد
- 8- اكيا

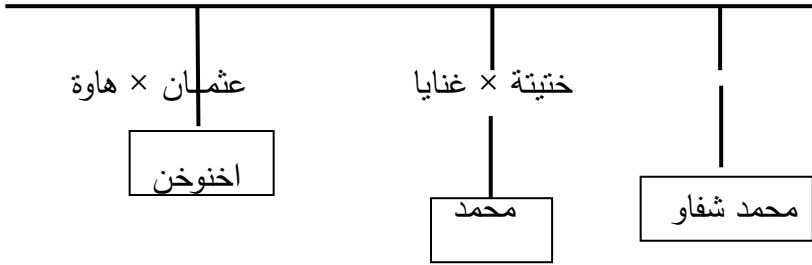
9- تافريس

10- محمد شفاو: توفي سنة 1824

11- محمد اق خنتية واخنوخن اق عثمان 1824- 1886

بعد موت محمد شافاو اق السغاد وحسب القاعدة فإن اخنوخن هو المؤهل لوراثة لقب امنوكال لأنه الابن الأكبر للبنات البكر لأخت شفاو. لكن اخنوخن تنازل عن حقه هذا لصالح ابن خالته "الأخت الصغرى لشفاو" محمد اق خنتية الذي هو زوج أخته في نفس الوقت، كان ذلك بمحض إرادته لأنه لا يريد الخضوع لواجبات المسؤولية المتمثلة في البقاء والاستقرار كما يجب على أي امنوكال في أزجر، لكن ورغم ذلك فإن القوة والسلطة الفعلية بقيت في يد اخنوخن لأن الناس يرون أنها تعود اليه بالطبيعة منذ الولادة. وبقي محمد غير معترف به رسميا

اق السغاد "أمنوكال" 7 x ؟

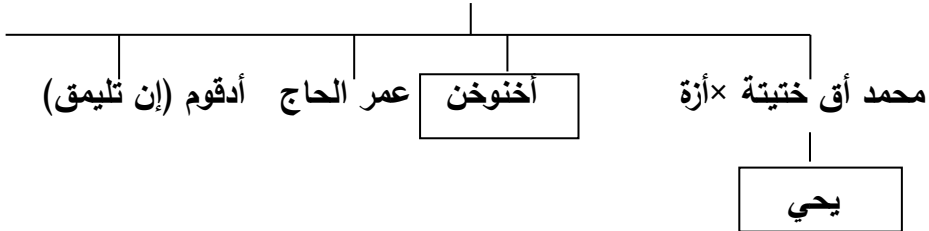


وعلى كل حال ما كان دفريبه ليعود حيا لولا حماية اخنوخ، ككل المغامرين الذين تمكنوا من الوصول إليه للحصول على إذنه بالمرور والحماية نظرا لسياسته الانفتاحية نحو الخارج، وهو ما جعل أراضي أزجر في فترته مرتعا للمغامرين، والقوافل التجارية والنتيجة انتعاش سوق غدامس وغات. وهو ما جعل أيضا الحاكم العام للجزائر يطلب إقامة علاقات دبلوماسية معه ويرسل إليه لجنة انتهت باتفاق غدامس 1862.

توفي اخنوخ سنة 1886، بعد أن عاش أكثر من قرن (1785-1886) وهذا سر آخر لتخليده تاركا وراءه مثالا يقتدي به إلى اليوم "لم تشهد أزجر امنوكال مثله لا قبله ولا بعده"⁽¹⁾

12 - يحيى اق ان تليمق: بداية 1886 - نهاية 1886

عثمان × هاوة



يحي هو ابن الأخت الوحيدة لأخنوخ وابن ختيتة الذي تنازل له اخنوخ عن الحكم بصفة رمزية.

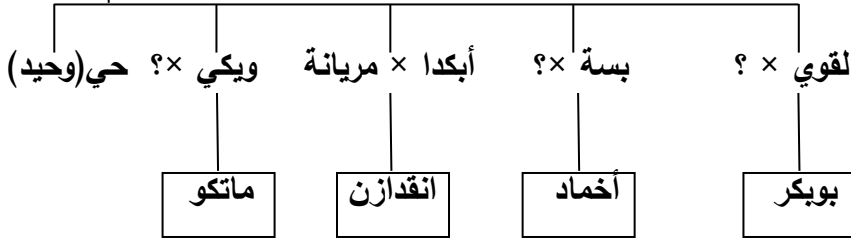
كان يحي رجلا صارما ويحب الاستقلال وهو ما جعله يعلن مباشرة بعد تنصيبه الحرب على الأتراك المحتلين لغات منذ 1875، والتي حررها مؤقتا

¹ - مصدر شفوي رقم: 01.

في معركة قضت على الحامية التركية الموجودة فيها لكنه تلقى فيها رصاصة قاتلة برأسه في نهاية نفس السنة التي نصب فيها.

(13) انقدازن اق ابكدا: (1886-1916)

محمد ان تليمق × أزة



كما نلاحظ ماتكو هو الابن الأكبر للأخت البكر ل امنوكال المتوفى، حسب القاعدة فإنه هو المؤهل بأن يخلف خاله في الحكم إلا أن المصادر ترجع ذلك إلى كونه صغيرا لا يبلغ سن التأهيل، ولم يتمتع بالشروط الواجب توفرها لهذا المنصب، الشيء الذي جعل "كيل ويلي" القبائل المنتمية إلى كتلة اورغن ترفض تنصيبه وفي هذه الحالة وعلى نفس الخط النسبي تم اختيار انقدازن الابن الأكبر للأخت الثانية لامنوكال الفقيد.

انقدازن رجل صارم أيضا وله علاقات جيدة مع الزاوية السنوسية وشهدت فترة حكمه أصعب فترات ازجر والمتمثلة في بداية استعمال القوة والعنف من طرف الفرنسيين الذين خاض ضدهم معارك عديدة ، ولم يقبل باي تسوية معهم إلى مماته سنة 1916 بليبيا.

(14) بوبكر اق لقوي 1916-1932:

نظرا لصغر أبناء أخت انقدازن فقد بقي الاختيار على نفس الخط الوراثي السابق لكن نلاحظ أن بوبكر هو الابن الأكبر للأخت الصغرى

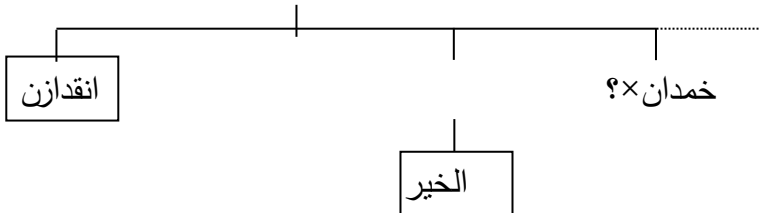
لامنوكال الأول يحي وهو ابن خالة امنوكال السابق انقدازن وعلى نفس الخط النسبي وحسب الترتيب فإن إخماد اق بسة بن الأخت الثالثة أولى من بوبكر، ورغم ذلك لم يوكل إليه هذا المنصب.

حسب المصادر⁽¹⁾ فإن هذا الأخير لا يقوى على هذه المسؤولية لا معنويا ولا جسمانيا، فهو ضعيف البنية ولا يقدر على قيادة الكونفدرالية في هذا الظرف الصعب الذي يشهد اضطرابات لم تحدث من قبل.

إذن بوبكر اق لقوي هو آخر امنوكال لـ ازجر الموحد والمستقل ففي فترته بسطت القوتان الاستعماريّتان سيطرتهما على الكونفدرالية التي قسمت إلى نصفين بصفة نهائية في 1919، بقي لقوي و من معه من فصيلة اوراغن وزجروتين القاطنين بالجزء الشرقي تحت السيطرة الإيطالية، وفقدوا اتصالاتهم مع اوراغن وجزولنيين القاطنين بالجزء الغربي تحت الاستعمار الفرنسي، والذي أقدمت سلطاته على تعيين ابراهيم اق ابكدة كقائد له (انظر الفصل السادس) وهو لا يتفرع من خط النسب الحامل لحقوق امنوكال لأن نسبه في الاتجاه الأمومي يرجع إلى التبو.

15) الخير اق خمدان: 1932-1995

ابكدا اق كداش × مريانة



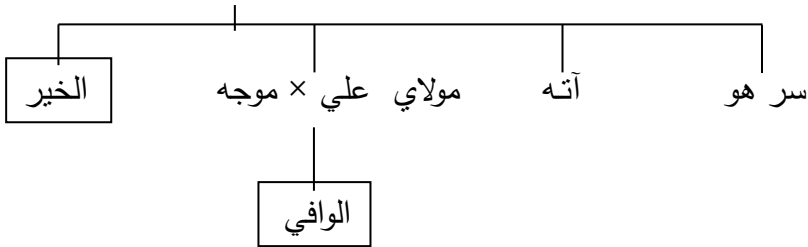
¹ - مصدر شفوي رقم: 01.

الخير إذن هو ابن أخت امنوكال ما قبل السابق وحفيد خالة امنوكال السابق بوبكر اق لقوي.

فيما أقدمت السلطات الإيطالية في شهر افريل 1932 على تتصيب الحسيني ك امنوكال خلفا لأبيه بوبكر لقوي المتوفي يوم 18 جانفي 1932 في احتفال حضره العقيد "Gigliarelli" والماجور "Moccia"⁽¹⁾

(16) الوافي اق مولاي علي: 1995

وهو ايضا ابن اخت الخير خمدان × ؟



- استنتاجات جزئية:

1- نلاحظ أن 5 من 6 امنوكال قد خلفوا بأبناء أخواتهم من الحادي عشر إلى السادس عشر. وهذا ما يرجح القول بان السابقين لهؤلاء قد تم اختيارهم بالطريقة نفسها أو مشابهة لها.

2- اثنين من بين المؤهلين (ماتكو) و (اخمد) لم تتم تزكيتهم لأسباب تعتبر موضوعية حسب المصادر.

3- لم يسبق أن مارس أب أي واحد منهم منصب امنوكال وبالتالي لم يسبق للخلافة أن أخذت مسار الخط الأبوي، الذي لا تحتفظ المصادر حتى بانتمائهم الأبوي، مع عدم الأخذ في الاعتبار تعيينات السلطات الاستعمارية.

¹ -Dubief (J), « Les Ouraghen de kel Ajjer », In IRS, Vol.XIV, 1956, P 122.

4- لم يخرج الاختيار من نفس القبيلة اورغن ونفس الفصيلة وزجروتين.

5- القاعدة إذن حسب الأولويات والظروف:

• ابن الأخت

• ابن الخالة

• حفيد الخالة

ب- في أهقار

على عكس أزجر حظي أهقار منذ احتلاله بدراسات دقيقة في كل الميادين خاصة في الانتربولوجية منها⁽¹⁾ لذلك فالمعلومات الواردة هنا أدق من السابقة. إذا حاولنا أن نختبر أيضا الأشخاص الذين تداولوا على منصب منوكال من صالح إلى منتصف القرن العشرين فإننا سنحصل على المعطيات التالية⁽²⁾:

1- **صالح:** لا يعرف اسم أبيه ولا أمه، حكم خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ولقد وصل إلى السلطة بفضل اتفاق بين شرفة توات والشيخ كنته زعيم الكنتاويين.

2- **محمد الخير بن صالح:**

هو ابن أمنوكال السابق ولا يعرف الكثير عنه أيضا.

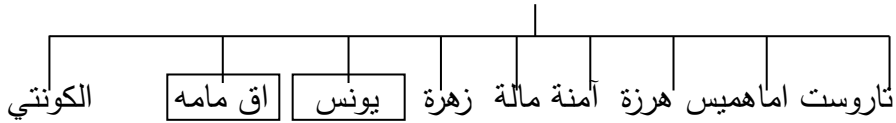
3- **سيدي، ابن محمد الخير بن صالح**

ابن أمنوكال السابق، وهو الذي تزوج بـ كلة سليلة تين هنان

¹ - لاسيما دراسات كل من M.gaste و C.helene 1982.

² - وهذا بالاعتماد على المصادر الشفوية: 13، 15، 17، 18.

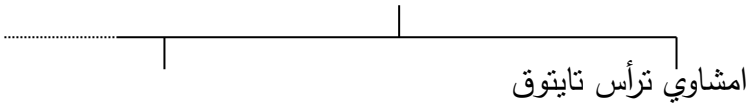
سيدي بن محمد الخير x كلة ولت تهنكت



4- يونس اق سيدي:

خلف اباه في حوالي (1795 - 1820)

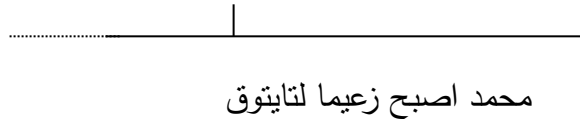
يونس اق سيدي x امرأة من تايثوق



5- اق مامه اق سيدي:

يخلف اخاه يونس في حوالي (1820 - 1850)

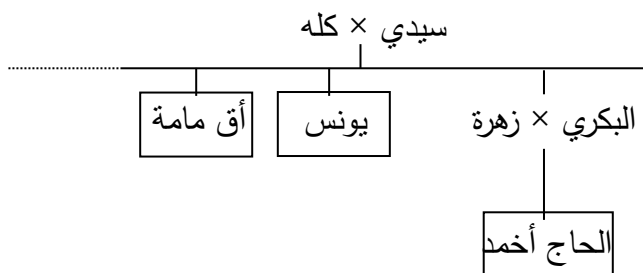
اق مامه اق سيدي x امرأة من تايثوق



6 - الحاج أحمد اق الحاج البكري (1850 - 1877)

خلف خاله وهو حي بعد أن أصبح هذا الأخير عاجزا إلا أنه لم يتم الاعتراف به بصفة رسمية إلا بعد وفاة اق مامه، وكان سيتم إعادة النظر في تنصيبه بعد الوفاة في حالة ما إذا تقدم أحد المترشحين المنافسين لولا تمكن الحاج أحمد وتحكمه باللقب.

وهو الابن الأكبر للأخت البكر لـ اق مامه " بمعنى الزهرة " ابنة كلة بينما يعود نسبه الأبوي إلى رجل دين من افوغاس.



أثناء حكم الحاج أحمد كان المنافسون المحتملون للحكم كالآتي:

بسة ابن الزهرة والشيخ ابن أمه

ارزيق ابن مالة ابنة كله

كرادجي ابن امرأة من تايثوق ومحمد اق بسكا

اهيتاغل ابن آمنة ابنة كله ومحمد بيسكا

لا تتحدث المصادر الشفوية عن المشاكل التي نجمت على خلافة

الحاج اخمد، يبدو أن بسة وارزيق قد توفوا أو مسنين أثناء موت أمنوكال

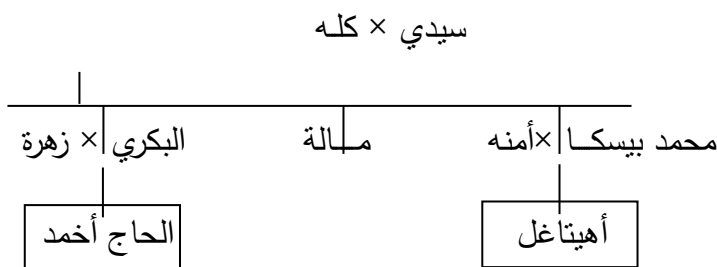
الحاج أحمد وقد تم اختيار كرادجي أخيرا لكنه توفي قبل الحاج اخمد، لم يبق

إذن سوى اهيتاغل الذي انتخب.

7- اهيتاغل اق محمد بيسكا (1877 - 1900)

وهو ابن خالة الحاج أحمد آمنه البنت الثالثة لـ كله بينما كان الحاج

اخمد ابن البنت الأولى: الزهرة "أنظر المخطط الأول



بعد وفاة اهيتاغل طرح مشكل الخلافة من جديد. وتزامن ذلك مع دخول الفرنسيين إلى منطقة تيديكلت واحتلال عين صالح سنة 1900. وبات ضغطهم السياسي والاقتصادي يؤثر على كيل أهقار، بعد أن منعت عليهم السلطات الفرنسية الدخول إلى سوق عين صالح مركز تموينهم الرئيسي وكان المترشحون المتنافسون الأساسيون هم:

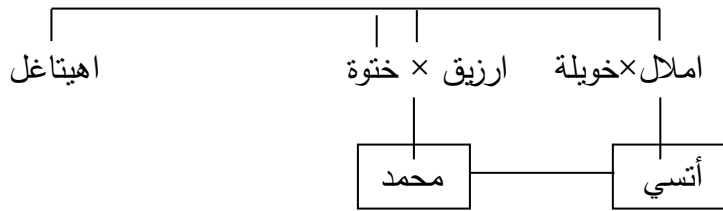
- محمد اق ارزيق ابن الأخت البكر لـ اهيتاغل أول المترشحين حسب القاعدة، ولكنه كان مسنا وبدون نفوذ.

- اتسي اق امال ابن خويلة الأخت الصغرى لـ اهيتاغل، المترشح الثاني كان أقل سنا من محمد ارزيق لكنه أكثر دينامكية وذو مبادئ ثابتة وشجاعة حربية لا نظير لها، كان على رأس التيار الرفض للتوغل الفرنسي. إلى جانب مترشحين ثانويين لكن وبعد تفاقم الأزمة تدخل حينها كما يحدث غالبا عندما يكون عدم تفاهم في المجتمعات المغاربية اثنان من رجال الدين الذين يمثلون السلطة الدينية في ذلك العصر؛ غابدين وبكتة اق إبراهيم. ولتسوية النزاع وضع غابدين مسبحته بين يديه وصاح: ستصبحان الاثنان زعيمين في نفس المنصب! وقطع قماش عمامته على نصفين متساويين ووضع لكل منهما قطعة على رأسه. لكن هذا حل جزئي ومؤقت وأكثر من ذلك فقد ظهرت مشاكل أخرى تتعلق بصلاحيات المنصب، أصبح الزعيمان يأخذان ضريبة توسي tiwse في نفس الوقت، إلى جانب تدخل رجال الدين (غابدين وبكتة) وتحريمهم استهلاك التمر الآتية من عين صالح التي يعتبرونها نجسة من طرف الكفار الفرنسيين المحتلين للواحة، كما ترددت بعض القبائل حول رأي أموكال تتبع.

لكن نظرا للظروف التي سادت المنطقة انذاك تمكن اتسي من حجب نظيره بسرعة والتف حوله كيل أهقار، ليصعد من سياسة المقاومة للتوغل الفرنسي. ليختفي منافسه محمد اق ارزيق تدريجيا.

8- اتسي اق املال (1900-1904)

هو اذن الابن الأكبر للاخت الصغرى لأمنوكال السابق.
محمد بسكا × آمنة



بعد هزيمة "تيت" 1902 وتكاثف الاستطلاعات العسكرية الفرنسية التي تبعتها، انهارت القوة المعنوية لـ كيل أهقار، واستطاعت السلطات الفرنسية أن تتدخل بصفة غير مباشرة لاستغلال الوضعية لصالحها بعد أن أعلنت عدم استعدادها للتعامل مع اتسي اق املال واي كان من كيل أهقار ماعدا موسى اق اماستان وعمه خيار.

في حالة ما إذا طرح مشكل الخلافة فان المؤهلين الأساسيين حسب القاعدة هم:

-انابا اق املال الأخ الأصغر لـ اتسي

-قحا اق ارزيق الأخ الأصغر لـ محمد

-خيار اق هقار

-اماستان اق هقار

ومترشحون شباب اخرون

لم يتم اختيار أي واحد من هؤلاء، وخلافا لكل التقاليد والقواعد التي تنص على أولوية أبناء أخت امنوكال (المتوفي) أو إخوانه قبل غيرهم، تم (اختيار) موسى اق اماستان. والأغرب ان امنوكال اتسي لم يمت ولم يعجز. بالإضافة إلى كونه يتمتع بصفات جسمانية ومعنوية، فإن السبب الحاسم في اختيار موسى هو مساندته من طرف السلطات الفرنسية بعد أن تبنى سياسة الخضوع تبعا لنصائح عمه خيار، وتتصيه من طرف قائد ملحق عين صالح Metois سنة 1904 ك أمنوكال.

9- موسى أق أماستان (1904-1921):

حفيد سيدي أق محمد بن الخير عن طريق البنت الأصغر لهذا الأخير، وبالنسبة لصالح يقع موسى في الترتيب السابع (الجيل السابع). أما بالنسبة إلى كلة فيقع في الجيل الرابع فهو ابن تابهاوت بنت تمخلوست بنت اماهيس بنت كلة.

ونظرا للدعم الذي وجده من طرف الفرنسيين فقد استفادت قبيلته كيل غلا من امتيازات جديدة؛ الاستيلاء على أراضي كيل تايثوق الرافضين للتوغل الفرنسي في أبلسه وسيلت، وازدياد احتياطهم من الجمال المحصل عليها من غنيمة الحرب على أنصار كاويسن، إعادة العلاقات التجارية مع توات وتيديكلت و زندر.

وفي نفس الوقت اعتبر اهقار وحدة جغرافية وإدارية تنتمي إلى دائرة الأقاليم الصحراوية تحت المراقبة العسكرية الفرنسية لإقليم الواحات وورقلة. توفي موسى سنة 1921 في ظروف غامضة. لكن كما يبدو لم يطرح إشكال في انتخاب الثلاثة زعماء بعده، وقد يعود ذلك إلى فقدان المنصب لأهميته وحوازه تحت لواء سلطة أخرى.

10- أخموك أق أهما: (1921-1941)

من مواليد 1874، يتفرع من تين هنان عن طريق تاروست سادسة وآخر بنت لكلة وسيدي. وتربطه علاقة قرابة مزدوجة بموسى:

أولا: يتفرع من الأخت الخامسة لاق مامة

ثانيا: أمه أخت اماستان اب موسى (ابن عمته).

11- مسلاغ أق أماياس (1941-1950)

ينتسب إلى كلة عن طريق ابنتها الرابعة "هرزة"، وهو من نفس جيل أخموك.

12- باي أق خموك : (1950-1975)

وهو ابن أمنوكال العاشر، وكان طامحا على خلافته، لكن وكما يقال إن الحاكم العسكري قد عمل على ترجيح انتخاب مسلاغ ومن المؤكد أن هذا الأخير أسهل "إدارة" من باي، ولا يمنع ذلك اكتسابه للصفات السياسية، المعنوية والمادية التي تؤهله.

باي معتز جدا بدوره وسلطته، وعرف كيف يحيط نفسه بمستشارين مهرة وأذكياء والذين يجالسونه دائما خلال فترة حكمه. وانتخب بعد الاستقلال نائبا بالمجلس الشعبي الوطني، وعين نائبا لرئيس الجمعية الوطنية الجزائرية سنة 1963، وتوفي سنة 1975 وهو آخر أمنوكال في أهقار حسب أخيه الحاج موسى أق أخموك في تصريح لأحدى الجرائد سنة 1992⁽¹⁾، والذي يحظى باحترام كبير جعل كيل أهقار يطلقون عليه لقب "أمنوكال".

¹ - Le Matin, N° 290, Du 23 et 24 octobre 1992, P 02

ملاحظات جزئية:

1- نلاحظ أن الرؤساء الأربعة الأوائل تتابعوا من الأب إلى الابن، على تفرع أبوي واضح، قد يعود ذلك إلى عدم معرفة أصل وتفرع أمهاتهم وأزواجهم، وقد ينتمون إلى مجموعة أجنبية تعمل بالنظام الأبوي.

2- منذ اعتراف التاريخ الشفوي بتفرع كيلا غلا من تين هنان، ظهر تفرع أمومي لورثة السلطة ابتداء من أمنوكال الخامس. بمعنى عوضت قاعدة التناقل الأبوية بقاعدة أمومية، ومن هنا فصاعدا يؤدي كل شيء إلى تين هنان وليس صالح.

3- نستطيع أن نلخص قاعدة هذا التناقل كما يلي: الحق في الحكم ينتقل عن طريق النساء سليلات تين هنان على الخط الأمومي، ويختار أمنوكال من بين أبناء هذه النساء حسب الأولوية على النظام التالي:

* الابن الأكبر للبننت البكر

* الابن الصغر للبننت البكر

* الابن الأكبر للبننت الصغرى

* الابن الأصغر للبننت الصغرى وهكذا (إلى غاية نهاية

التفرع)

نتيجة عامة:

من خلال استعراض حركة تناقل السلطة من جيل إلى جيل منذ القرن السابع عشر في كلا الكونفدراليتين على فترة حوالي ثلاثة قرون يمكننا أن نستنتج مايلي:

1- لم يسبق لغيركيل غلا في اهقار واوراغن وزجروتين في ازجر أن مارس هذا المنصب.

- 2- القاعدة ليست مطلقة، ولم تكن على نسب أمومي في بدايتها.
- 3- بعد تثبيت القاعدة على خط النسب الأمومي وبالرغم من اختلاف حالاتها فلم يحدث أن تتناقلت السلطة على خط النسب الأبوي مهما كان، حتى عندما تدخل الفرنسيون.
- 4- هناك قاعدة نظرية عامة يمكن الاجتهاد في استخراج حالات منها تبعا للظروف السائدة وميزات شخصيات المترشحين المؤهلين.
- من هذه الحالات يمكن أن نجد حسب الأولوية:

* ابن الاخت من الكبرى إلى الصغرى

* ابن الخالة من الكبرى إلى الصغرى

* الأخ (من الأم)

* حفيد الخالة... إلخ

- 5- هناك تحول عمودي عن طريق النساء وتتابع أفقي من الأكبر إلى الأصغر سنا عند الرجال من نفس الجيل.

- 6- على ضوء الوارثين الذين استعرضناهم نستطيع أن نلاحظ بأن المنتخب يجب قبل كل شيء أن يكون له اعتبار وميزات معنوية ومادية تجلب ثقة شعبه وممثله من امغارن (رؤساء القبائل)، الذين ينتخبونه في مجلسهم، ويجب عليه أيضا أن يثبت أنه قادر على تحمل دوره معنويا وجسديا، وفي آخر المطاف فان الأحسن أو على الأقل الأكثر تأهيلا هو الذي يفوز من بين مجموع الورثة المرشحين.

ومجال الصراع على السلطة مفتوح لكنه منحصر في إطار نفس الفصيلة ونفس العصبية التي لها الغلبة. واستطاعت القاعدة أن تحفظ هذا المنصب في الزمان لصالح نفس العصبية.

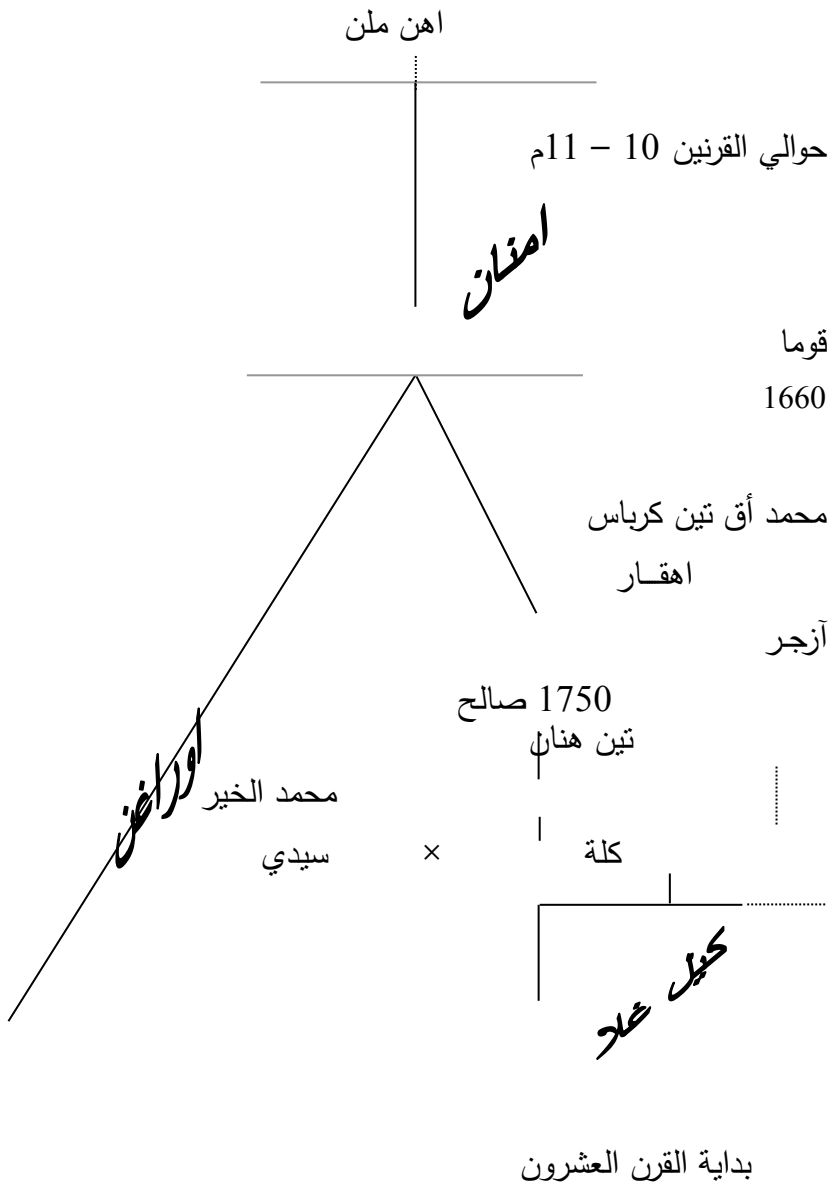
إن التوارق الذين هم جزء من البربر يشكلون أحلافًا سياسية منذ القدم، نستطيع أن نعرف عن طريق الذاكرة الجماعية أهم المراحل التي ميزت التنظيم السياسي للسلطة التقليدية عبر التاريخ؛ بداية من أهن ملن "الإمبراطورية" التي كانت تجمع أزجر وأهقار ما قبل القرن العاشر. ثم نفوذ السلطة الدينية في مرحلة حكم إمان (أحفاد الرسول محمد ^(٨)) الذين انتهت عصبيتهم بفضل ثورة قام بها اوراغن بشكل عنيف في حوالي عام 1660 واستمروا في السلطة إلى غاية الدخول الفرنسي في أزجر فقط، بينما تشكلت في نفس الوقت تقريبًا مجموعة أخرى في أهقار بقيادة كيل غلا.

يتميز هذا التنظيم بوجود سلطة عليا يشغلها أمنوكال الذي يعني سيد البلد، وله صلاحيات واسعة، فهو بمثابة السلطة التنفيذية الوحيدة، إلا أنه لا يمكن أن يمارس نفوذه إلا بمساعدة الهيئة الاستشارية لمجلس الشيوخ والأعيان أو "إمغارن".

يتم توارث سلطة أمنوكال كممثل رئيس القبيلة عن طريق الخط الأمومي، حسب قاعدة عرفية قديمة ترجع حق الميراث المعنوي والمادي في الغالب إلى ابن الأخت.

وبالطبع فإن هذه القاعدة ليست مطلقة في المجال السياسي فهي لم تستثن من ظاهرة الصراع على السلطة ورغم ذلك نجحت في الحفاظ عليها ضمن إطار العصبية الغالبة المعترف لها بحق الحكم إستنادًا إلى قصة التأسيس التي يرجعها كيل أزجر إلى سلف ذكرى: محمد أق تين أكرباس. بينما يرجعها كيل أهقار إلى سلف أنثوي: تين هنان.

يمكن تمثيل مسيرة الحكم في المخطط التالي:



الفصل الرابع

الجوسسة:

الأنثربولوجيا في خدمة الإستعمار

عندما تريد غزو شعبا ما فأغزو ثقافته أولا

الجوسسة:

محاولة التوغل السلمي: الإنتربولوجيا في خدمة الإستعمار.

كانت الصحراء الكبرى قبل بداية حركة المغامرين منطقة مجهولة تماما لدى الأوربيين. حيث تنحصر معارفهم عنها في معلومات الجغرافيين الإغريق والرومان وعرب القرون الوسطى.

انتهى القرن الثامن عشر عندما كانت أوربا تهيئ لفتح القارة الإفريقية، وتعود المبادرة إلى مجموعة إنجليزية أسست في 1788 عرفت بإسم "الجمعية الإفريقية"⁽¹⁾ وحدد لها أهداف "علمية وإنسانية"⁽²⁾. وظفت في نفس سنة تأسيسها المغامر جون لديارد John leduard، الذي نجح في عدة رحلات نحو أمريكا الشمالية، كانت مهمته عبور إفريقيا من الشرق إلى الغرب لكنه توفي في مصر مع بداية رحلته وتنازل بعده المحاولات الفاشلة، إلى غاية 1796 حيث تمكن Mungo park من تحقيق نجاح نسبي عندما عبر جزءا من السودان ووصل ضفاف نهر النيل. ويتضاعف عدد المتطوعين فيما بعد، الى أن تقدم المسمى هورنمان فريدريك الذي نجح لأول مرة كأوروبي في عبور الصحراء.

1 - فريدريك هورنمان Frederik Hornemane:

ابن راعي ألماني يتيم منذ الطفولة، بدأ دراساته في علم اللاهوت بجامعة Gohingen لكنه يستغل كل وقت فراغه لدراسة الجغرافية الإفريقية، وبعد أن تمكن من التزود بالمعلومات الكافية تقدم إلى الأستاذ الطبيعي المشهور آنذاك في نفس الجامعة Blumenbach وطلب منه أن يتدخل لصالحه لدى الجمعية الإفريقية بـ لندن. جند هورنمان في الجمعية وأوكلت له

¹ - الإسم الكامل: "Association for the promoting of the discovry of the interior of Africa"

² - Edyoux (H-P), *l'exploration du Sahara*, Gallimard, 7.ed.Paris1938, P 13

مهمة عبور الصحراء واستكمال مهمة M.Park. يصل في سبتمبر 1797 إلى القاهرة التي غادرها في قافلة متجها إلى طرابلس الغرب، وكان قد قدم نفسه كمسلم وأخذ كامل إحتياجاته ليؤكد ذلك⁽¹⁾ وكان يسير دائما خلف القافلة ليدون ملاحظاته.

بعد شهرين يصل مرزوك في نوفمبر 1797. و قرآن يسافر إلى طرابلس لكتابة الجزء الأول من رحلته ثم يعود إلى مرزوك، وطلب قطع كل اتصالاته وأن لا يسأل عنه لمدة ثلاث سنوات، تمكن خلالها من الوصول إلى نهر النيجر المشهور ويموت على ضفافه.

رغم أن أعماله أهملت آنذاك بسبب الحروب النابليونية، والتزام الجغرافيين والمغامرين الصمت على رحلته إلا أنها حققت نتائج مهمة أو على الأقل جديدة حول جغرافية المنطقة وعادات السكان والطرق والمسالك التي عبرها. كانت أيضا حافزا على استمرار رحلات المغامرة التي تتالت بصفة مكثفة للوصول إلى تين بكتو (أسطورة الرفاهية) آنذاك والتي بقيت مجهولة حتى جاء المغامر الفرنسي رينيه كاييه.

2 - رينيه كاييه Rene caille

كان مولعا منذ صغره بالترحال و التجوال⁽²⁾، لذلك سافر دون أن يتلقى أي دعم إلى السنغال سنة 1824 بعد أن فشل في تحقيق ذلك مرتين سنتي 1816 و 1818،

بقي ولمدة طويلة مع سكان مناطق نهر السنغال تمكن خلالها من معرفة لغتهم وعاداتهم. وقام بعدة محاولات للوصول إلى تين بكتو. في 9

¹ - Edyoux ,Op-cit P 19.

² - مياي إبراهيم ، توسيع الإستعمار في الجنوب الغربي (1881 - 1912) ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد Anep روية 1996 ص 46 .

جانفي 1828 انطلق إلى "جنيه" التي وصلها في 16 مارس ومنها إنتقل عبر النهر إلى "كابرا" في 19 أفريل ثم سار نحو تين بكتو التي حل بها يوم 20 أفريل ومكث بها أربعة عشرة يوما وقد أعجب بالمدينة ومنازلها وسلوك سكانها، دَوّن كل ذلك في مذكراته.

ثم غادر تين بكتو يوم 4 ماي رفقة قافلة متجهة إلى المغرب الأقصى عبر إقليم توات ليصل إلى مدينة فاس في 12 أوت ومنها إلى مكناس وأخيرا الرباط.

أعجب الفرنسيون كثيرا بهذه الرحلة غير المبرمجة فاستقبله نائب القنصل الفرنسي بطنجة ليهنئه قبل أن يرحل إلى فرنسا في 27 سبتمبر 1828. كان كاييه أول من وصل إلى تين بكتو وعاد منها، وأول فرنسي يتوغل إلى أعماق الصحراء، وبذلك قدم لفرنسا والمصالح المهمة بالتوسع الاستعماري معلومات جغرافية وحضارية مفيدة عن هذه المناطق ساعدتها فيما بعد أثناء عمليات الغزو في الصحراء والسودان، لكن نظرا لصعوبة الظروف التي تمت خلالها الرحلة ، فإنه لم يأت إلا بمعلومات متفرقة وضئيلة حول التوارق⁽¹⁾

3- ريشارد سون: Richardson

بعد رحلة كاييه حاولت الجمعية الإفريقية أن ترسل الرحالة (جون دافيد سون) للحصول على معلومات أكثر من تين بكتو، لكنه سرعان ما لقي مصرعه في تندوف يوم 28 ديسمبر 1836⁽²⁾، لكن الجمعية لم تقبل فقد عزم بعد ذلك مستكشف آخر " ريشارد سون " أن يعبر الصحراء كسابقه لكن عن

¹ - Lhote (H), *Le Hoggar, espace et temps*, Armand -Colin, Paris, 19 84 P 191.

² -Vullot (P), *l'exploration du sahara, étude historique et géographique*, Challamel, Paris 1895 p 13.

طريق طرابلس، وكان الهدف من المهمة دراسة المزايا التجارية التي يمكن أن تستفيد منها إنجلترا بمعرفة كاملة لطرق القوافل الآتية من طرابلس إلى السودان. غادر طرابلس بعد أن تحصل على جواز سفر من باشا المدن الصحراوية الطرابلسية يوم 12 أوت 1845 مع قافلة غدامسية ويمر على كل من: قصر أفران، زندان، جبل نفوسة، سناون ثم غدامس في 25 أوت من نفس السنة. تجول في هذه المدينة ودرس عادات سكانها واحتياجاتها التجارية وأكثر من ذلك كانت له فرصة التحدث مع توارق أزجر الذين وفروا له إمكانية الذهاب إلى غات أولا ثم آير بعد ذلك⁽¹⁾.

في 25 نوفمبر غادر غدامس مع قافلة متجهة إلى غات، ويتوقف بـ سردل ثم يواصل فيما بعد رحلته إلى الحواف الشمالية لحماة مرزوك، ثم يمر إلى أوباري ومنه إلى مرزوك التي يصلها في 22 فيفري 846، ثم يغادرها يوم 06 مارس على الطريق المؤدي إلى سبها، أم العبيد، واحات سكنة وانو، ثم مصراته. في 16 أفريل يعود إلى طرابلس لتنتهي رحلته الطويلة.

كما كانت تنتظر الجمعية فالمعلومات والنتائج مهمة ليس فقط حول المسالك المعتادة لكن أيضا عن الطرق التجارية التي تعبرها القوافل وعلى عادات الغدامسيين، وتوارق أزجر وكيل اوي، وتجارة الرقيق التي كانت مزدهرة آنذاك بين السودان وطرابلس على طريق مرزوك وفزان⁽²⁾.

أعجبت الحكومة الإنجليزية كثيرا باكتشافات ريشارد سون للطرق المؤدية إلى السودان على طرابلس وقررت خلال عام 1849 إرسال مهمة أكثر أهمية في نفس المنطقة وتهدف في الأساس إلى تكوين علاقات

¹ - Vullot, Op-cit p 14

² - Ibid, p 16

وإتفاقيات تجارية مع تجار المنطقة، وأوكلت المهمة إلى كل من ريشارد سون،
بارث هنري، ادولف، "الذين إشتراطاً أن يكون للجانب العلمي أولوية في
مسألة الإتفاقيات السياسية والتجارية"⁽¹⁾

4- بارث هنري Henri Barth،

متخرج من جامعة برلين، ويتحدث اللغة العربية جيداً، وقد تجول لمدة ثلاث
سنوات (1845-1847) على سواحل البحر الأبيض المتوسط: سرت سرنايك
في الصحراء الليبية، سوريا وآسيا الصغرى، كان مهيباً لتنفيذ هذه المهمة
بنجاح.

غادر طرابلس مع رفاقه يوم 25 مارس 1850 ، ويمرون على واحة
"زارا" ثم "وادي هارا" ، وجبل غريان لتصل القافلة يوم 4 أفريل القصر
الصغير .

وفي 5 أفريل يتجهون إلى قرية كوكة "الواقعة جنوب جبل غريان
ليصلوا إلى "مزدا" بعد يومين.

وصلوا بعد تجاوز عدة وديان في 15 أفريل شمال الحمادة الحمراء
ويجتازونها بعد ستة أيام كاملة وهي المرة الأولى بالنسبة للأوروبيين، ليصلوا
بئر الحاسي الموجود وسط صحراء قاحلة يوم 22 أفريل ويمثل هذا البئر
الحدود الفاصلة بين منطقة طرابلس وفزان.

ثم تأخذ القافلة طريقها إلى مرزوك التي يصلونها يوم 06 ماي، ومن
مرزوك يقول "بارث" هناك طريقان يتجهان إلى السودان:

طريق مباشر في الشرق ويعبر مناطق التبو ويمر على بلما ليصل إلى
"كوكا" الثاني في الغرب ويمر على بلدان التوارق ويتجه نحو غات، وآير

¹ - Vullot, Op-cit p16

وكانو، هذا الأخير أفضل وملئ للعلاقات التجارية لأن التوارق مستعدون في أي وقت لكراء أي عدد من الجمال ويضمنون بالنتيجة الأمان أما طريق برنو فسيئة وخطيرة جدا⁽¹⁾

أخذت القافلة طريقها إلى غات التي وصلتها يوم 18 جويلية "وهي مهمة من حيث تجارتها الخاصة وسوقها السنوي الكبير" وكونها منطقة عبور القوافل الآتية والذاهبة إلى آير بنيجر، فحاول ريشارد سون التوصل إلى إتفاقات تجارية مع زعماء أزجر الذين يتحكمون في كل الطرق المؤدية إلى هذه المدينة⁽²⁾.

ومن غات أخذ الثلاثة طريقهم إلى آير مروراً على هضبة التاسيلي، التي قال عنها بارث أنها أعلى ارتفاع رآه منذ بداية رحلته، بعدها اجتازت القافلة وادي أمابيس، مغياو، ان أفلهله، أنهف، بئر إسلا، ثم مراروبا يوم 15 أوت وهذه الأخيرة توجد في منتصف الطريق بين غات وآير. بعد يومين يصل بارث بئر اسيو الذي يعتبر نقطة فصل بين كيل أزجر و كيل اوي وهو مجموعة من الآبار؛ الأربعة الشمالية منها لـ كيل أزجر، أما الجنوبية فتعود لـ كيل اوي، وهي نقطة مهمة جداً بالنسبة للقوافل، فهي ملتقى الطرق المتجهة إلى غدامس، غات، توات واهقار شمالاً، آير والسودان جنوباً وتوجد على رأس وادي تافساسست التي تمتد إلى النيجر.

من اسيو إلى نيجر دامت رحلة بارث ورفقائه 15 يوماً عبروا فيها هضبة تاهساج Tahassage وعدد من الأودية، ليصل إلى اقدز يوم 10

¹ - Vullot, Op-cit p 21

² - Ibid, p 27

أكتوبر أين رحب به السلطان عبد القادري، ومكث هناك ليدرس المنطقة ومستقبلها التجاري.

يفترق الثلاثة في يوم 11 جانفي 1851، على أن يلتقوا في كوكا بداية الربيع.

توفي ريشارد سون في الطريق ويلتقي الأخران ثم يموت أوفروي بين يدي بارث في 27 سبتمبر 1852، يغادر بارث كوكا يوم 24 نوفمبر إلى النيجر على طريق سندر، سوكتو، قاندو وساي، ليصل تين بكتو يوم 05 سبتمبر 1853 بقي فيها لمدة ثمانية أشهر، وغادرها يوم 18 ماي 1854 ليتجه نحو بحيرة تشاد والتي يصلها في 11 ديسمبر، واستدار على محيطها وذلك في دائرة يصل قطرها (شعاعها) إلى حوالي 300 كلم.

يأخذ طريق العودة في 09 ماي 1855 إلى طرابلس على الطريق الشرقي: بلما، مرزوك، سوكتا ليصل أخيرا في 28 أوت 1855 طرابلس التي غادرها قبل خمس سنوات ونصف، ثم إلى لندن يوم 06 سبتمبر 1855⁽¹⁾.

النتائج :

— يمكن اعتبار هذه الرحلة كأهم استكشاف في القرن التاسع عشر⁽²⁾. كانت كل المعلومات السابقة عامة وقليلة وحتى غامضة، سواء كانت حول جغرافية المنطقة أو على سكانها، Caille لم يشر إلى التوارق إلا بمعلومات قليلة الدقة ولم يتحدث عن سكان الجنوب. بقي كل شيء غامضا، إلى أن رجع بارث وقدم لأروبا معلومات مهمة ودقيقة على الصحراء، وعلى تشاد وضواحيها، وبثبت جغرافية المنطقة غير

¹ - Vullot, Op-cit, p 41

² - Lhote, Op-cit, P 192

المؤكددة إلى ذلك الحين، وجمع معلومات ذات أهمية قصوى في الأنتوغرافيا القديمة والوضع السياسية والاقتصادية والتجارية للمناطق التي عبرها واستعملت معلوماته كأداة مهمة في التوغل الفرنسي، فكانت للرحلة انعكاسات هامة حول نفوذ الفرنسيين في الصحراء⁽¹⁾ إذ ساعدتهم على إنشاء خريطة تقريبية لوسط الصحراء سنة 1856⁽²⁾.

قبل وفاة بارث بقليل، جانفي 1865، كتب مقالا في نشرة الجمعية الجغرافية بباريس حث فيها فرنسا على القيام بعمل جبار وواسع في الصحراء الإفريقية، وأن عليها قبل احتلال المنطقة تفهم عقلية سكانها وتحترم معتقداتهم وأن تستعمل معهم أساليب متعددة منها تحسين اختيار روادها لهذه المهمة وأن تحمل السيف والبندقية في يد، الكتاب والقلم في اليد الأخرى وبذلك يمكن لها أن تتحصل على نتائج باهرة في هذا الميدان⁽³⁾.

وكانت رحلة بارث سببا مباشرا في نجاح المهمات التالية.

5 - بودربة إسماعيل Boudierba Smaïlle :

وهو ابن أحد أكبر تجار الجزائر المسلمين: أحمد بودربة، وهو دبلوماسي شارك في مفاوضات استسلام الجزائر 05 جويلية 1830، ويصبح بعد ذلك رئيسا لبلدية المدنية، تزوج امرأة فرنسية أنجبت إسماعيل في 15 جانفي 1823 بمرسيليا هناك قام بدراساته الثانوية لكنه بقي على دين أبيه الإسلامي، انخرط في الجيش الإفريقي في 28 فيفري 1853 وشارك في الحملة الفرنسية على شمال الصحراء مثليلي، ورقلة ، توقرت، السوف، وأصبح ضابطا مترجما.

¹ - Vullot, *Op-cit*, p 42

² - مياي، مرجع سابق، ص 50

³ - Dubief, *Op-cit*, p 59

في سنة 1958 يعينه الحاكم العام للجزائر لاستكشاف شمال أزجر والوصول إلى غات واختبار زعمائهم في موضوع توسيع نفوذ فرنسا التجاري نحو الجنوب من غدامس وعلى الطرق السودانية⁽¹⁾.
إن كونه ضابطا فرنسيا مسلما ومن أصل جزائري سيساعد حتما في نجاح المهمة الاستكشافية و التجسسية.

ينطلق من الجزائر ليصل إلى الأغواط التي غادرها يوم 01 أوت 1858 مع خادمه رمضان وكان يقدم نفسه على أنه تاجر، وصل إلى تماننين في 6 سبتمبر بعد أن عبر غرب العرق الشرقي على طريق "القاسي".
غادر تماننين في 07 سبتمبر ويتجه إلى إليزي يوم 16 بعد أن عبر اغرارن على الحزام الشمالي للتاسيلي.

يصل إلى غات يوم 26 سبتمبر بعد شهرين من السفر قطع فيها 1396 كلم وهناك لم يستقبل جيدا كما يقول، فقد هدد حتى بالقتل لولا تدخل الزعيم الحكيم اخنوخن الذي كتب عنه: "رغم أن الرئيس الرسمي لأزجر هو محمد اق خنتيه فإن السلطة الفعلية بيد اخنوخن الذي عرف كيف يخلق نفوذا كبيرا، بفضل شجاعته، حذره، ثروته، وخاصة عائلته الكبيرة العدد، إنه رجل طويل القامة، بوجه ديناميكي وشديد رغم أنه تجاوز الستين"⁽²⁾.

بقي في غات ستة أيام لينطلق يوم 06 أكتوبر مع تاجرين من القرارة ورافقه اخنوخن والشيخ عثمان إلى تابلبالت التي وصلوها يوم 29 أكتوبر ثم يأخذ بوردية طريقه إلى تماننين ليصل يوم 18 نوفمبر إلى الرويسات بورقلة

¹ - Vullot, *Op-cit*, P 54

² - in Dubief, *op-cit* P 63

أين افترق بالشيخ عثمان يوم 22 نوفمبر، ويعود إلى نقطة انطلاقه الأغواط في 1 أكتوبر 1858⁽¹⁾

النتائج:

كانت مغامرة بوردية أول "تقرير مكتوب" حيث نشره قبل أن ينشر يومياته "رحلة إلى غات". إن لهذه الرحلة أهمية سياسية أكثر منها جغرافية ذلك أنه تمكن من التحدث مع أهم زعماء أزجر خاصة اخنوخ الذي حصل على حمايته والشيخ عثمان امغار قبيلة إفوغاس الذي كان دليلا ومصدرا مهما للمعلومات التاريخية والسياسية التي مكنته من جمع معطيات عديدة عن تقاليد السكان حول (فخرهم وغيرتهم على استقلالهم) والممارسات التجارية، حيث تمكن من بيع المنتجات الجزائرية وحصل على ضمان فتح طريق تجاري مستقبلا بين الأغواط وغات، وبيّن أن التجارة مع أواسط إفريقيا مهمة جدا، لكنها بيد الإنجليز، يكفي فقط أذن فتح طريق للقوافل الآتية من الجزائر إلى غدامس أو غات لتحويل هذا التيار التجاري لمصلحة فرنسا⁽²⁾.

أما من الناحية الجغرافية فإن اكتشافه الأكثر أهمية هو بنية هضبة التاسيلي رغم أنه قد ترك بعض الغموض عندما كتب "توارق أزجر يسكنون هضبتين واسعتين مفصولتين عن بعضهما البعض..."⁽³⁾.

كما تمكن أيضا من رسم طريق جديد على الخرائط بين ورقلة وغات مع كل نقاط المياه التي تتوسطه. كما قلل من المبالغة الكبيرة حول عذرية الصحراء. فهو يلح على أن الماء يوجد في كل مكان من الصحراء؛ يكفي

¹ - in Dubief, op-cit, P 63

² - Vullot, OP cit 57

³ - in Dubief, op-cit P 65

حفر بعض الأمتار فقط للحصول عليه، وأنها ليست إمتدادا واسعا للرمال القاحلة...

هكذا فتح بودرية الطريق أمام المستكشف الفرنسي هنري دفريره.

6- هنري دفريره Henri duveyrier

رغم نجاح رحلة بودرية النسبي إلى غات، بقي الحاكم العام للجزائر يشك؛ ربما استقبل كيل أزجر بودرية لأنه عربي مسلم، لكن أي استقبال سيخصصونه لفرنسي مسيحي؟.

وعندها إلتفت الحاكم إلى المغامر دفريره ليكلفه بمهمة مماثلة عند توارق أزجر ليرى رد فعلهم تجاه الفرنسيين.

ولد دفريره في 28 فيفري 1840، درس التجارة بعد تربية دينية. تعلم العربية مع أحد المستشرقين المشهورين Fleicher. وجه اهتمامه إلى الملاحظات العلمية والتاريخ الطبيعي لإفريقيا، ليبدأ مغامراته بسهولة فيما بعد. كانت رحلته الأولى إلى جنوب إقليم الجزائر والتي نشرت يومياتها سنة 1900 بباريس⁽¹⁾ عاد بعدها إلى فرنسا ثم سافر إلى إنجلترا ليلتقي بالرحالة الألماني H.Barth الذي أعجب به وأعطاه الكثير من النصائح والتشجيعات.

عاد إلى الجزائر في بداية عام 1858 وعزم الوصول إلى توات هذه المرة. انطلق من إقليم قسنطينة ليصل إلى ميزاب، ثم يزور المنية والمناطق الموجودة تحت إقليم الجزائر وقسنطينة؛ الأغواط، بسكرة، ورقلة، والجنوب التونسي، في جوان 1860 تعرف في بسكرة على الدليل الكبير عثمان أق البكري صديق بودرية. سافر معه إلى غدامس ثم رجع إلى طرابلس للحصول

¹ - in Dubief, op-cit , p 67

على وثيقة التجوال والحماية فتحصل عليها بفضل القنصل الفرنسي M.P.F.Botta ليعود إلى غدامس ويلتقي بأمونوكال اخنوخ في 15 ديسمبر 1860 الذي رافقه إلى وادي تخامالت ثم تارات وأخيرا تونين بالقرب من غات التي وصلوها في 28 مارس 1861، ثم يمكث في "ترز اولي" وبسردل ويصل أوباري يوم 16 ماي. يزور مرزوك في 7 جوان ويبقى بها شهرا كاملا قبل أن يغادرها إلى زويله ثم يعود إلى مرزوك ليمر إلى سبها، فزان الشرقية ويصل إلى طرابلس 17 سبتمبر 1861 بعد رحلة دامت 10 أشهر.

النتائج

كللت رحلة دفرييه هذه بدراسة شاملة لـ "توارق الشمال" وهو مرجع مهم. كان المفضل لدى المغامرين الذين أتوا بعده، فهو يحتوي على معلومات في كل المجالات؛ التضاريس، الجيولوجيا، المناخ، النبات والحيوان، بالإضافة إلى التنظيمات السياسية والاجتماعية للتوارق.

ولعل من أهم إنجازاته الخريطة النظرية للمنطقة المدروسة والتي لم يسبق لها مثيل؛ خريطة بوردية كانت مهمة لكنها غير دقيقة. وقد استعملت هذه الخريطة من طرف معظم المغامرين بعده، و منهم E.Von Bary الذي كتب "أحرص بالقول أن هذه الخريطة أفادتني كثيرا وبصفة عامة فإن كتاب دفرييه كان دليلي الأهم في هذه الأوطان"⁽¹⁾. ولهذا السبب أيضا طلبت الحكومة الجزائرية من دفرييه طبع تقرير موجز مع خريطة تدعمه حول سفره. ولا ننسى أن هذه الخريطة تمت بفضل الشيخ عثمان، كتب دفرييه: "الجزء الافتراضي من الخريطة يستند على مسارات عديدة أخذت من مصادر مختلفة أترشد وسط المعلومات غير المتطابقة فيما بينها، بالرجوع إلى

¹ - in Dubief, op-ci t, P 69

الشيخ عثمان الذي يرسم لي مخططا في الرمل للمناطق التي يسكنها التوارق والتي لا يمكنني أن أصل إليها، وعندما اقتنع معه على المجموع والتفاصيل أرسم وانتقد بعد ذلك معه⁽¹⁾، لذلك فإن هذه الخريطة ماهي إلا تصميم للمعارف الجغرافية لـ كيل أزجر لبلدانهم.

استعملت هذه الخريطة الإستثنائية كثيرا في الإستطلاعات العسكرية مع بداية القرن⁽²⁾. أما من الناحية السوسيو- سياسة فلا تقل أهمية أيضا؛ فقد تناولت دراسة أهم تاريخ توارق الشمال والعلاقات السياسية والتنظيم الإجتماعي و السياسي.

ومن جهة أخرى كان دفرييه نموذجا للمغامرة؛ حسن المعاملة والمسالمة. والبحث عن ربط العلاقة مع رفيق له نفوذ كبير ليحميه ويسهل الاتصال مع باقي الأشخاص.

فقد كان منذ البداية رفقة الشيخ عثمان زعيم قبيلة إفوغاس، ثم مع امنوكال اخنوخن أعلى سلطة في أزجر، وعدد من الأعيان والتجار المحترمين. لقد تحصل على ثقة كل هؤلاء وبالنتيجة تمت مغامرته دون مشكل، وهو ما جعل فورو ينصح باتباع طريقته "لكي تعبر أراضي التوارق إما ان تكون معزولا ومسالما مثل دفرييه، أو أن تمر بقوات كبيرة "

7- مهمة غدامس : 1862

بعد أن استفادت الحكومة العامة بالجزائر من ما جلبته رحلتي المغامرين دفرييه وبودرية ومن سبقهم، انشغلت في التحضير لفتح بلاد السودان الكبرى للتجارة الجزائرية الفرنسية كتمهيد لاحتلالها، مما يستلزم

¹ - Duveyrier, Les touaregs du nord, Op-cit p39

² - Dubief ,Op-cit 72

المرور في أوطان التوارق، ولتحقيق ذلك بدأ الحاكم العام بالجزائر في البحث عن إقامة علاقات مع زعيم أزجر اخنوخ، ومع الشيخ عثمان دليل المهمات السابقة.

نظمت مهمة تبعا لذلك، كان هدفها يتمثل في الحصول على إتفاقية تجارية بين فرنسا وكيل أزجر، وتم إختيار "الواد" كمكان لإمضاء الإتفاقية لكن اخنوخ رفض هذا المكان كونه يمثل أرضا فرنسية، ويمكن أن تعتبر الإتفاقية نوعا من الخضوع لفرنسا⁽¹⁾، وتم الإتفاق على غدامس.

كونت الحكومة الفرنسية لجنة عالية التمثيل يترأسها قائد سرية الأركان هو المقدم H.Micher بالإضافة إلى بولنياك L.de Polignac ملحق مكتب شؤون العرب، هوفمان طبيب Hofman، بودرية إسماعيل كمترجم، Devatonne مهندس مناجم.

غادرت المهمة الجزائر في سبتمبر 1862 وتصل إلى طرابلس يوم 28 لتغادرها يوم 04 أكتوبر وتحل بغدامس في 21 أكتوبر؛ لتتفاوض مع ممثلي أزجر الذين لم يكن من بينهم اخنوخ لكنه بعث أخاه عمر الحاج كنانب عنه، الحاج جبور أمغار لقبيلة امنغساتن، الشيخ عثمان أمغار لـ إفوغاس. بعد مفاوضات طويلة وقعت الإتفاقية يوم 22 نوفمبر 1862.

حررت الاتفاقية القصيرة باللغتين الفرنسية والعربية في ست صفحات رسمية وأربعة للمواد الإضافية، من أهم بنودها⁽²⁾:

1- إقرار الصداقة والتبادل بين السلطات الفرنسية ورؤساء مختلف قبائل التوارق.

¹ - Dubief ,Op-cit P 74

² - مياسى . المرجع السابق 82

- 2 - يمكن للتوارق أن يمارسوا العمل التجاري في كل أسواق الجزائر دون قيد أو شرط ما عدا أداء المكوس العادية.
- 3- يلتزم التوارق بتسهيل وحماية عبور المفاوضين الفرنسيين لبلادهم ذهابا وإيابا إلى بلاد السودان، وحماية بضائعهم التجارية على أن يدفعوا المكوس العادية.
- 4 - تلتزم السلطات الفرنسية وزعماء التوارق بفتح طرق التجارة للفرنسيين إلى السودان وإصلاحها وتحديثها، وتحديد المكوس وضبطها وإصلاح الآبار وإزالة كل العراقيل في وجه نشاط التجار الفرنسيين. أما البنود الإضافية الملحقة فتحتوي على:
- 1 - بموجب التقاليد القديمة المنظمة للعلاقات التجارية بين دول شمال إفريقيا ومختلف قبائل التوارق، تبقى قبيلة اخنوخن مكلفة بضمان المرور للقوافل الفرنسية التجارية عبر بلاد أزجر وتستمر العلاقات القائمة اليوم كما هي بين عائلات أزجر، الشعامية، السوافة.
- 2 - من أجل الضمانات الأمنية، تدفع القوافل التجارية الذهاب إلى السودان، ضريبة إلى اخنوخن أو وكلائه، أو ورثته على أن تحدد قيمتها فيما بعد.
- 3 - تسوى الخلافات التي قد تنشأ بين الطرفين بالود والانصاف من طرف الشيخ أو ممثليه بمقتضى العادات المعروفة في البلد.
- 4 - يلتزم الشيخ اخنوخن والزعماء السياسيون الآخرون لتوارق أزجر بربط علاقة جيدة مع توارق قبيلة كيل اوي من أجل تهيئة الظروف الحسنة للمفاوضين الفرنسيين لكي يمروا في سلام بقوافلهم عبر بلاد آير.

يمكن أن نلاحظ مباشرة أن الفرنسيين يعترفون بسيادة كيل أزجر على أراضيهم وكل الحقوق التي تعود إليهم من ضرائب وحماية وتجارة، لكن ذلك ليس سوى "هدنة" مؤقتة. لم يحن الوقت للاحتلال والمناورة، الهدف الآن هو العبور إلى السوان وأخذ أقصى ما يمكن من المعلومات حول المنطقة كما يبدو ذلك في البند الثالث الذي ينص على التزام التوارق لحماية الذين يأتون بصفة "المفاوضين" في أراضيهم، أي لابد من استغلال الدور المهم الذي يلعبه التوارق بين الصحراء والسودان الذي لا يقدر عليه سواهم.

بعد إبرام الإتفاق غادرت المهمة الفرنسية غدامس متجهة إلى الوادي الذي وصلته يوم 11 ديسمبر لتصل إلى بسكرة في 18 من نفس الشهر ثم إلى الجزائر؛ طبعاً استغل أعضاء المهمة الفرصة لجمع المعلومات وتدوين ملاحظاتهم، إذ نشرت التقارير الرسمية بباريس في نفس السنة ومنها "يوميات الرحلة" للمقدم Micher و"الوضعية السياسية والاجتماعية لأوطان الزنوج ودراسات في الميدان والمياه المجتازة" لـ Devatonne. بالإضافة إلى الملاحظات الطبية التي جمعها هوفمان.

8- اروين باري Erwin BARI 1876

من مواليد 1846، درس العلوم الطبيعية في جامعة زوريخ وميونخ وتحصل سنة 1869 على شهادة دكتوراه في الطب ونظراً لاهتمامه بإفريقيا فقد تمكن من تعلم تماهق والعربية. وقد تنكر أثناء رحلته في كونه طبيباً تركياً مسلماً.

في سنة 1876 يصل باري إلى طرابلس التي يغادرها يوم 28 أوت ليصل غات في 9 أكتوبر بعد 42 يوماً من السفر؛ مكث بها 11 يوماً ليعرج نحو التاسيلي فيما بعد ويمر بوادي امهرو، وكانت هذه أول مرة يتوغل فيها

أوربي إلى هذا العمق في هذه المنطقة، ليعود إلى غات في 11 نوفمبر 1876 على طريق مباشرة وسريعة، ثم توجه إلى آير الذي وصل إليه في 17 فيفري 1877 وبقي فيه إلى غاية 8 جويلية ليعود إلى غات في 5 أكتوبر من نفس السنة؛ وقد نال منه التعب كثيرا ومات في اليوم الموالي.

لقد تمت هذه الرحلة في ظروف مناخية جيدة ، فقد تساقطت في السنة الأولى أمطار غزيرة على الكتلة الوسطى للصحراء وغطى الثلج اتاكور وان امقار لمدة شهر وتسبب في فقدان العديد من الماشية⁽¹⁾. ولأول مرة يصف أوربي شكل هضاب التاسيلي بصفة دقيقة⁽²⁾؛ المرتفعات المتساوية العلو، نفس درجة الإنحدار، كل الوديان محفورة بنفس الكيفية.

9- مهمتا فلاترز 1880 - 1881 Col.Flathers

أ- المهمة الأولى : نحو أزجر جانفي - ماي 1880

كان الهدف واضحا في الملف الذي نشره فلاترز⁽³⁾ "تبعاً لإعلان اللجنة العليا المؤسسة في 1879 لدراسة المسألة المتعلقة بربط كل من الجزائر والسنغال بالسودان بالسكة الحديدية، كلف وزير الأشغال العمومية (De Frecine) السيد Flathers بان يتأسس مهمة إستطلاع تسطير خط سكة حديدية بين الجزائر والسودان"⁽⁴⁾. وجاء هذا التكليف على شكل تعليمات كما نقرأ في الرسالة التي بعثها الوزير إلى فلاترز "أكلفك بقيادة إستطلاع تحت حراسة الأندجان للبحث في تسطير أولي لطريق السكة الحديدية يصل إلى السودان بين نيجر وبحيرة تشاد؛ ولتقيم علاقات مع

¹ - Dubief, Op-citP 77

² - Ibid, 77

³ - « Document relatif a la mission diriger au sud de l'algerie par Ltc.Flathers ».

⁴ - Dubief Op-cit P 81

رؤساء التوارق والبحث عن مساندتهم، وأدعوك بأن تعلمني في أقرب الأجال قواعد التنظيم للرحلة والكيفية التي تحفظ بها الطابع السلمي وهو شرط المهمة»⁽¹⁾.

كان طريق السكة الحديدية العابر للصحراء فكرة للمهندس M.Duponchal الذي نشر تقريراً على هذه الفكرة الحماسية التي ستهدي لفرنسا سوقاً جديداً بمئة مليون مستهلك؛ وكان يضرب المثل بالولايات المتحدة الأمريكية التي ربطت الساحل الشرقي بالغربي على مسافة 3000 كلم بطريق سكة حديدية خلال أربع سنوات سالكين الصحاري والمناطق الوعرة والآهلة بالهنود الحمر⁽²⁾.

تتكون المهمة من أربعة مدنيين (Beringer مكلف بتخطيط وتسطير الطريق،

Roche جيولوجي، Guiard متخصص في الطبيعة والتاريخ الطبيعي، Bernard أحد المكلفين بالملاحظات الطبوغرافية). يحرسهم حوالي 42 جندياً مسلحاً.

غادر فلاترز باريس يوم 07 جانفي 1880 إلى الجزائر التي يصلها يوم 09 جانفي ثم إلى بسكرة نقطة الإنطلاق.

غادر بسكرة يوم 06 فيفري ليمر على توقرت يوم 14 ويصل ورقلة في 23 وغادرت المهمة ورقلة يوم 05 مارس لتحل بعين طيبة يوم 19 مارس، ثم بدأ عبور الجزء الأكثر صعوبة والذي يؤدي إلى البيوض؛ لا ماء ولا كلاء لمدة خمسة أيام إلا أن المهمة كانت محظوظة لتساقط الأمطار. وتصل واحة

¹ - Dubief Op-cit P81

² - Larteguy (J), *Sahara en un an*, Callimard, Paris 1958, P 85

تماسنين في 29 مارس على الشمال من مسار بودرية إسماعيل. غادر الموكب تماسنين نحو تابلالت التي يصلها يوم 04 أبريل، ثم يمر على عين الحجاج، تكات، واد سامن، إغرغارن، تباتي إلى أن يصل بحيرة منخور يوم 17 أبريل وقد اندهشوا من أبعادها ونباتاتها وأسمائها. وهنا نصبوا معسكرهم في انتظار رؤساء توارق أزجر ولكنهم لم يأتوا. وأخذت المؤونة تنفذ، فأتخذ فلاترز قرار الاتجاه نحو الشرق لكن اعترضتهم مجموعة من قبيلة إمنغساتن وأوقفتهم لعدم حصولهم على ترخيص من الزعماء "ما دام لم يسمح لنا اخنوخن بالمرور فإنهم سيمنعوننا من مغادرة المكان. إن هذا واضح وأكد، إنهم يعتبروننا أسرى" كما قال أحد أعضاء المهمة ⁽¹⁾.

المهمة في صعوبة إذن وحتى وضعيتهم بين الرمال ستساعد إمنغساتن بالقضاء عليهم، فلاترز سيجمع مساعديه ويعرض عليهم الوضعية؛ كان يرى ضرورة العودة بسرعة إلى الأغواط عن طريق ورقلة للتزود بالمؤونة وإعادة تنظيم الرحلة وحدد يوم 20 أبريل كأجل للمغادرة. تمكنت القافلة من الهرب ليلا "ما أن اشرقت الشمس... حتى تلاشت القافلة في واد تجوجلت ولم يجد التوارق أثرا للمخيم" ⁽²⁾ ويدخلون إلى ورقلة يوم 15 ماي ⁽³⁾.

¹ - Dubief, *Op-cit* P 88

² - *Ibid*, p 88

³ - *Ibid*, p 89

النتائج:

من الناحية السياسية يمكن اعتبار هذه المهمة فاشلة، إذ لم تتمكن من الحصول على هدفها المتمثل في الوصول إلى غات وإقامة علاقات مع رؤساء توارق أزجر وهذا رغم الوسائل الكبرى التي وضعت تحت تصرفها. وربما كانت هذه الوسائل السبب ذاته لفشل المهمة لأنها تضيء عليها صورة عدوانية، تجعل الناس يتساءلون عن جدوى كل هذه الحراسة، بالرغم من أنها تبدو قليلة العدد إلا أنها تمثل جيشا كاملا بالنسبة للصحراء. وليس من المستبعد أنها جاءت للإعتداء والإحتلال، في الأخير يؤدي ذلك إلى شكوك تنتهي برد فعل دفاعي. أما إذا علم السكان الهدف الحقيقي للمهمة فإن رد الفعل سوف لن يكون أفضل من سابقه، لأن عبور طريق السكة الحديدية لأراضيهم يحطم نشاط قوافلهم وتجارتهم بالإضافة إلى كونه إنتهاكا لإتفاق غدامس 1862. فمن الواجب عليهم أن يدافعوا على وسيلة إنتاجهم ومعاشهم مهما كانت الظروف.

لكن من الناحية العلمية حصلت المهمة على نوع من النجاح في المناطق التي وصلت إليها على الأقل، ويقتصر ذلك في نشاط المدنيين الأربعة خاصة Roche وBeringer، فقد رسموا خريطة لمسار الرحلة واقتروا طريقا للسكة على طول 610 كلم من ورقلة إلى اغرغارن وهي أراضي سهلة كما استنتج Roche "الخاتمة الرئيسية التي يمكن استنتاجها هي غياب الانكسارات الأرضية التي تغير أفق الطبقات وأكثر من ذلك فإن المكونات الطبوغرافية لهذا الجزء من الصحراء مهية لتخطيط مسار جيد للسكة الحديدية"⁽¹⁾. ثم لاحظ أيضا أن الدراسات الهيدرولوجية السابقة تظهر أن

¹ - Dubief ,Op-cit , P 89

المشكل المحتمل لندرة المياه يمكن اعتباره غير وارد؛ فهناك طبقات مياه جوفية في كل مكان وفي مختلف الأعماق.

ب- المهمة الثانية : نحو أهقار أكتوبر 1880 - فيفري 1881

أعجبت اللجنة العليا للطريق العابر للصحراء بتقرير المهمة الأولى وقررت إرسال مهمة أخرى مع تغيير طفيف في البرنامج؛ لم تعد المسألة الوصول إلى السودان نتيجة بداية الغزوات الفرنسية هناك، ولكن إلى الصحراء فقط في اتجاه مباشر على الوسط أي أهقار. كان نفس الإتجاه المقرر للمهمة السابقة لكن فلاترز غير رأيه واتجه إلى وادي اغرغارن بدل أن يتجه مباشرة إلى أهقار وهو ما يطرح عدة تساؤلات. بالنسبة لـ A.Lacroix و A.Bernard يعود سبب هذا التغيير إلى أن فلاترز يريد التقرب من غات في أمل ملاقة اخنوخ وأن الشعامبة الذين يحرسونه هددوا بالانفصال إذا ما توجه نحو أهقار⁽¹⁾.

ورغم ذلك لم يوضح فلاترز السبب الحقيقي لعودته الطارئة بل أعلن أن الأهالي استقبلوه سلميا وهم يرتدون لباس المناسبات⁽²⁾. تتكون المهمة هذه المرة من قافلة متحركة في لباس المهارست على التشكيلة التالية⁽³⁾:

أربعة ضباط فرنسيين

ثلاث مدنيين فرنسيين

إثنين من صف الضباط

¹ - Lacroix, (A), et Bernard, (A), *Pénétration saharienne 1906-1930*, Rep éd. Jaques Gandini 1993

² - Larteguy, op cit p 88

³ - Dubief, Op-cit P 91

مأموريان فرنسيان

كان هؤلاء محروسين ومساندين من طرف:

23 رجلا من كتبية المشاة لـ البلدية (1 RTA)

22 رجلا من كتبية المشاة لـ قسنطينة (3 RTA)

31 رجلا في الخدمة يتكونون من العسكريين القداماء

07 أشخاص مهمامهم يدلون الناس على المواقع

بمجموع 95 شخصا ، تحت حوزتهم 250 جملا.

التقى هذا السرب بالأغواط وغادره يوم 18 نوفمبر 1880 ليصل ورقلة على قواررة و يغادره مرورا ب الحاسي، انيفل، واديفا، ليصل إلى واد إن سوكي في يوم 25 نوفمبر وهناك تلقوا خبر تواجد "أهيتاغل" امنوكال-ن-أهقار بعين صالح، فيرسل إليه فلاترز مبعوثا يحمل رسالة يطلب فيها السماح له بالمرور في أهقار.

واصلت القافلة طريقها لتعبر مناطق سهل مسقم، عين الحجاج، وادي أمقيد أين يتلقى ردا من أهيتاغل الذي لا ينصح بالمرور قدما⁽¹⁾. لكن فلاترز تجاهل الأمر وواصل طريقه إلى غاية يوم 23 فيفري واستقر ب تيخسين بالقرب من بئر القرامة. أين نصبوا معسكرهم.

غادر فلاترز مع النقيب ماسو Masson وجزء من المهمة المعسكر في إتجاه البئر المذكور على بعد حوالي أربعة كلم. بينما بقي الجزء الآخر من المهمة تحت أوامر الملازم Dianos تنتظر.

فوجئ فلاترز عند وصوله إلى البئر بفرقة من التوارق الجاثمين على مهارم يغلقون أمامه منفذ الواد.

¹ - Lhote, *Le Hoggar*, 1984, op cit P 198

جهاز وزميله مسدسيهما وسارا قدما نحو المجموعة، بدأت المناوشة وبعد لحظات قصيرة أطلق خلالها فلاترز وماسو طلقات سريعة تمكنا من قتل شخص وجرح آخر لكن حينها تقريبا انتهى كل شيء: اخترق الفرنسيان بالرمح وقتل حراسهم بعد مقاومة ضعيفة⁽¹⁾.

وهنا كانت بداية النهاية، اضطربت المهمة بعد فقدان قائدها وغادرت المكان منسحبة من حيث أنت؛ أمامهم 1200 كلم من الصحراء بقليل من الماء والمؤونة والدواب.. ومن ورائهم خصومهم يطاردونهم.

وما لبثوا أن نفذت مؤونتهم ما جعلهم يشترون التمر عند بعض المخيمات التي مروا عليها واعتقدوا أنها مسمومة، أصابتهم بالجنون!

ثم يلحق بهم كيل أهقار عند نقطة المياه بأمقيد لتبدأ معركة أخرى⁽²⁾. مات فيها الملازم Dianos القائد الجديد مع 13 من رجاله وأسر عدد كبير منهم وفر حوالي 34 ممن تبقى.

استمر الأعضاء الباقون من المهمة طريقهم وقد نال منهم العطش الجوع إلى درجة كبيرة جدا جعلتهم "يأكلون كلابهم وجثث جمالهم ثم يتقاتلون بينهم ويلتهم بعضهم البعض حيث قضي على آخر فرنسي الرقيب Pobeguin وقطع رأسه وقسمه الشعامبة بينهم" كما يقول Larteguy⁽³⁾.

في 28 مارس وصل أربعة من المشاة إلى ورقلة ويخبرون الخليفة بوضعية ومكان تواجد الناجين الباقين، ويبيع هذا الأخير كتيبة إضافية وصلت يوم 18 أفريل إلى حاسي مسقم أين وجدوا الناجين يعالجهم أحد الرجل. أخذوهم وغادروا المكان يوم 10 أفريل.

¹ - Larteguy , op cit p 90

² - و هي المعركة التي جرح فيها اتسي اق املال ابن أخت أمنوكال أهيتاغل

³ - Larteguy , op cit P 91

لقد نجا من الحادثة 18 شخصا وصلوا ورقلة اثنان منهم أسرى وصلوا فيما بعد ثم يصل بعدهم خمسة آخرون بينما بقي أحد المشاة في اهقار⁽¹⁾.

يقول Gautier "ليس من السهل التحدث بموضوعية على فلاترز"⁽²⁾. ذلك أنه لم يأخذ العبرة من مهمته الأولى والتي نجا منها بأعجوبة ثم أنه لم يتلق كل ما طلبه من العتاد والأسلحة، رغم ذلك قبل المهمة واستمر يخترق اهقار رغم عدم حصوله على رخصة من طرف امنوكال.

إن شهادات الناجين المتناقضة وغير المنطقية أحيانا (التمر المسموم) والمشتبه فيها أحيانا أخرى جعلت الكثير ممن تناولوا حادثة فلاترز يشكون في الظروف التي حدثت فيها بل ويشكون في حقيقة القضية نفسها التي أصبحت أسطورة ومرجع لكل مؤرخي وسياسيي وضباط المنطقة لهذه الفترة. أسطورة جعلتها غامضة إلى الأبد.

ففي عام 1895 ينشر Geradi جرادي كتابا بعنوان "الناجون من مهمة فلاترز" يقول فيه أن فلاترز لم يمت ولكنه تقمص الاسم التارقي "لابران" ويعيش في واحة "تاقيس" مع ابنته بالتبني، أما المهندس روش فحول اسمه إلى "أفوشن"⁽³⁾.

وفي سنة 1993 ينشر Gast ملفا سريرا لأول مرة ينفي فيه كيل أهقار مسؤوليتهم عن الاغتيال، في لقاء جمع الجنرال Roque حاكم مناطق الصحراء و مبعوث امنوكال الهقار عبد الرحمان بن مكلاوي ببسكرة سنة 1890⁽⁴⁾.

¹ - Dubief op cit P 93

² - Gautier (E.F), *La conquete du Sahara, Essai du psychologie politique*, Armand – Colin, Paris 1910, P 06

³ - Larteguy , op cit P 92

⁴ - Marceau (Gast) , "un document inedit a propos de massacre de la mission flathers en 1881 " in *Cahiers de IREMAM* , n°4 , 1993 PP 49-55

يضاف إلى ذلك أن قنصل فرنسا بطرابلس بعث إلى فلاترز رسالة يحذر فيها من الذهاب في هذه المهمة⁽¹⁾.

ثم لماذا يبعث ضابط عسكري بهذه الرتبة إلى مهمة يراد لها أن تكون سلمية أو على الأقل علمية و بحراسة غير كافية؟.

ولا ننسى السيناريو الدرامي الغريب الذي ورد أثناء الانسحاب وتقديمه على شكل يستدعي التعاطف بشكل رهيب.

كل هذه المعطيات جعلت الفرنسيين يشكون في حقيقة الحادثة ومغزاها فإما أن تكون مجرد تصفية حسابات مدبرة مع فلاترز وتقديمه ضحية من أجل تمرير مشروع ما حول السياسة التوغلية في الصحراء وإما أن يكون نوعا من الانتحار كما يلمح إلى ذلك Gautier مستندا إلى أقوال بعض المشاركين في المهمة الأولى حول شخصية ومزاج الكونونيل.

النتائج:

كانت النتيجة فورية ؛ وقف التوغل نحو الصحراء لمدة عشرين سنة، ولم يعد أحد من الوزراء يرغب حتى في مجرد الحديث عن الصحراء أو أخذ مبادرة تخص التوغل فيها. وكانت انتصارا معنويا لـ كيل أهقار الذين حافظوا على أسرار منطقتهم، إلى ذلك الحين لم يتمكن أي أوربي عبور أهقار الذي يعتبر حصنا منيعا لا يتجرأ عليه أحد.

وهذا ما جعل الفرنسيين يعتقدون أن عدد المحاربين في أهقار معتبر ولهم أسلحة جيدة فهم إذا منافسون خطيرون بالنسبة للحكومة الفرنسية التي يراها القصوريون وسكان الصحراء بعد هذه الحادثة عاجزة وجبانة لم تحاول حتى الانتقام لموتها لأن هذه الظاهرة مهمة جدا في عقلية الصحراويين وهو

¹ - Larteguy , op cit P 89

ما جعلهم يندهشون من هذا الموقف "السلبى"؛ في الصحراء لا يوجد عنف متواصل من أجل العنف، لكن لا بد أن يكون هناك توازن للعنف. تم حل لجنة طريق السكة الحديدية العابر للصحراء وألغي المشروع إلى الأبد. وراجعت السلطات الفرنسية سياستها التوغلية وبحثت عن أساليب أخرى لإستئناف الغزو.

10- فورو - لامي: Foueau - lamy 1897 - 1898

كان فورو جنديا في الجيش قبل أن يستقر بالإقليم القسنطيني ويبدأ مغامراته إلى الصحراء الشرقية ويوجه إهتماماته في الجيولوجيا، علم النبات، الإبتولوجيا.

بعد حادثة فلاترز لم تستأنف المغامرة إلى آزر إلا بعد 10 سنوات في سنة 1892 وهي أعمال مدنيين معزولين بدون تدخل رسمي من الحكومة. ومنهم على الخصوص فوروالذي قام بـ تسع رحلات لوحده إلى الصحراء الوسطى الشرقية وآزر. وانتهت كل هذه المغامرات بالفشل لم تصل أي منها إلى غات ولم تتجاوز بحيرة منغور أو مدخل اميهر و هذا عن طريق معارضة مباشرة أو غير مباشرة من طرف كيل آزر. لقد جعلتهم فكرة طريق السكة الحديدية العابر للصحراء يخشون فقدان نشاط القوافل وانتهاء تجارتهم ونظامهم الاقتصادي. وقد عبرانقدازن امنوكال-ن- آزر انذاك لفورو عن ذلك الرفض بتحدي قائلا: "هل ترى تلك الجبال، إنها التاسيلي، سوف لن يمر بها طريق سكة حديدية حتى لو بقي آزجري واحد على وجه الأرض"⁽¹⁾. لكن فورو استطاع أن يستفيد من هذه الرحلات ويقدم معلومات مهمة في

¹- Foureau (Fernard), *ma mission (1893 - 1894) chez les touaregs azdjer*, Imprimerie , Renuer ,Paris 1894 , P 32

مجالات الجيولوجيا، الهيدرولوجيا، والإنتوغرافيا. وفي الأخير سمحت له أن يستنتج الخلاصات الآتية⁽¹⁾:

- إلغاء الهدايا الإضافية والاكتفاء بحقوق المرور التقليدية أثناء عبور أراضي التوارق

- المرور "بالقوة" تحت حراسة حوالي 150 بندقية برجال مدربين جيّداً، وهذا أيضاً رأي فلاترز عندما عاد من المهمة الأولى لكنه لم يطبقه.
- الذهاب في الوقت المناسب سواء في أكتوبر أو نهاية الموسم الحار.
- استعمال الجمال التي لها القدرة على المشي في الأراضي الصلبة
إلغاء

- استعمال جمال الوادي التي لا يمكن أن تسير في غير رمال العرق.
وإعطاء الجمال يومين كاملين للراحة كل 05 أيام، واستبدالها عند الوصول إلى السودان بجمال من نفس المكان نظراً لتغير المناخ.
كل هذه الاقتراحات قد تم استغلالها في مهمة فورو - لامي. بعد أن تمكن فورو

من إقناع السلطات الفرنسية بتصوراته أوكلت له المهمة من طرف وزارة التربية العمومية، واقتراح الرائد لامي لقيادة الكتيبة التي ستحرس المهمة.
كان للمهمة هدفان أساسيان⁽²⁾:

الأول "علمي" يتمثل في استطلاع أراضي الصحراء الموجودة بين ورقلة وزننر.

¹ - Foureau op-cit , P34

² - Dubief, op cit P 114

الثاني ضمان الاتصال بـ تشاد مع الكنائس الفرنسية الآتية من السودان لدعمها في احتلال كل مناطق تشاد.

تتضمن المهمة أيضا مدنيين تابعين لوزارة التربية العمومة مختصين في مختلف المجالات: الفلك، علم المتاحف، الجيولوجيا، الإثنوغرافيا، النبات والحيوان.

كانت هذه المهمة قد وضعت حسابا لاقتراحات فورو؛ محروسة من طرف 150 عسكريا تحت قيادة الرائد لامي مباشرة، والذي انضمت إليه بعض التشكيلات العسكرية ليصل العدد في الأخير 375 عسكريا مع ألف جمل.

غادرت المهمة ورقلة يوم 12 أكتوبر 1898 لتتبع المسار التقليدي الذي أصبح معروفا؛ البيوض، القاسي، تماننين أين التقوا يوم 18 نوفمبر بـ قوم النقيب Pein الذي سبقهم لتفقد الأوضاع وحماية الجهة الغربية في مواجهة كيل أهقار.

استأنفت القافلة سيرها على الطريق المعتاد؛ اغرغن، تابلبالت، واد سامن، تاملغيق، بئر تغمار.

في 22 ديسمبر تأخذ المهمة طريقها لتتبع واد أهلمج لتصل تيهودايين في يوم 26 وحينها تخلوا عن المسار المستقيم وانحرفوا قليلا نحو الشرق ليدخلوا معذر أفرا ثم نصبوا معسكرهم في واد افتخة، اين بدأت السنة الجديدة. في 08 جانفي 1899 تأخذ المهمة طريقها نحو الجنوب إلى بئر تادانت على بعد حوالي 150 كلم جنوب شرق انهف، لتعبر تينيري وهو الجزء الأكثر صعوبة في كل الصحراء الوسطى لتتجه يوم 12 فيفري إلى آير عابرة تانزروفت، وأخيرا تصل إلى نهاية الصحراء يوم 22 فيفري وبدأ الاخضرار؛ إنهم الآن في السودان.

واصلت المهمة طريقها إلى إفروان يوم 24 ثم قانقارا، وبعد مصادمات عديدة في بعض المناطق ك أقنز وصلوا أخيرا زندر يوم 03 نوفمبر 1899 وهو أحد أهداف المهمة العلمية التي إستغرقت 14 شهرا للوصول إليها. قرر فورو ولامي بعدها الإستمرار إلى تشاد والتي وصلوها يوم 02 سبتمبر 1900، بعد عامين من مغادرة بسكرة وهنا بدأ الرائد غزواته بعد انضمام الكتائب الفرنسية التي جاءت من الكونغو والسينغال. جرح لامي في إحدى المعارك ليموت في 22 أبريل. فأخذ Reibell القيادة لتعود المهمة أدرجها يوم 22 ماي على مسار فورو ليصلوا الجزائر يوم 28 أكتوبر⁽¹⁾.

النتيجة:

لقد أدى نجاح هذه المهمة المليئة بالمعلومات في جميع الميادين إلى تغير راديكالي لمسار احتلال الصحراء فقد كانت بمثابة أول عبور للصحراء من شمال افريقيا الى السودان، الحلم الذي راود الأوربيين كثيرا والمهمة التي فشل فيها فلاترز قبل عشرين سنة وما كانت هذه المهمة لتنتج لولا وجود المشاة الجزائريين الذين كونتهم السلطات الفرنسية من قبائل الرحل الصحراوية. " بفضل تحملهم الجسدي وتأقلمهم مع الطوارئ الصحراوية، وصبرهم الكبير... ومعرفتهم لاحتياجات الإبل وطاقتهم وطاعتهم لأوامر الضباط الذين يؤطرونهم"⁽²⁾.

وقد استفادت السلطات الفرنسية من هذه التجربة واعطت فكرة ل لابرين في إنشاء فرق "المهاريست" الصحراوية أو "القوم" التي كان دورها فعالا في التوغل الفرنسي.

¹ - Dubief, op-cit P 124

² - Ibid P 125

وفي الأخير تبنت الحكومة الفرنسية سياسة فورو التوغلية وهي استعمال القوة ، وفتحت عهدا جديدا من تاريخ الاحتلال.

وبالطبع على الأقل من جهة أخرى تعززت جهود فورو بإتفاق فرنسي إنجليزي في 1899 يزيد من مناطق نفوذ فرنسا؛ يكمل إتفاق 1890 الذي تعترف فيه فرنسا لإنجلترا بمعظم مناطق السودان مقابل إعراف إنجلترا لفرنسا بالسيادة على الصحراء في خط يمتد من ساي بالنيجر إلى بارو في بحيرة تشاد، وهذا ما يسمح لفرنسا بربط مستعمراتها في شمال إفريقيا بغربها.

لكن اللورد سالسبوري Salisbury عبر على الاتفاق بقوله "إن ديك الغال سوف ينقر في الرمال حتى ينهك المخالب"⁽¹⁾.

في النهاية منذ هورنمان إلى بداية القرن العشرين دامت هذه الاستكشافات قرنا ونصف من الزمان سواء كانت معزولة أو مبرمجة عن طريق الجمعية الإفريقية أو الحكومة الجزائرية فإن السلطات الفرنسية قد أخذت ما فيه الكفاية من المعلومات التي كانت تبحث عنها وهذا في مجالين هامين:

1 - السوسيو - إقتصادي

أتى بعض المغامرين ولا سيما دفرييه بمعلومات جد مهمة في مجال الانتولوجيا، ذلك انه كشف عن التنظيم السياسي والتقليدي والعلاقات الداخلية والخارجية للسلطة بما فيها نظام القوافل، وحقوق المرور وكيفية التعامل مع أهل الصحراء ورد فعلهم تجاه الأجانب وكذلك عدد السكان ومناطق تركيزهم والسلاح الذي يستعملونه والعدد الكافي لغزو كونفدرالية بأكملها (انظر دفرييه)

¹ - الجاني، المرجع السابق : ص 323

وعرفت أن السلطة كلها بيد امنوكال وترخيصه ضروري لمن أراد أن يعبر أراضيهم، والمثل في رحلتي فلاترز.

2 - في المجال الجغرافي و الجيولوجي:

وكان أشد ما يهم الفرنسيين هو معرفة المسالك وشكل التضاريس، إذ كانت هذه المنطقة لا تمثل إلا بقعة بيضاء في خرائطهم (1852)، ولم تكن لهم أدنى فكرة حولها، لكن ومع نهاية القرن أصبح كل شئ واضحا من الصحراء إلى السودان وهذا بفضل خرائط كل من بودرية، دفرييه، فورو... ووضحت تضاريس التاسيلي معروفة، المعرفة التي لا بد منها.

الغزو يتطلب معرفة دقيقة للميدان قبل أن يبدأ: أعرف عدوك تريح المعركة.

الفصل الخامس

الدين وسيلة للغزو الروحي

شارل دي فوكولد مثالا

شارل دي فوكولد:

التنشئة والمحيط الاجتماعي:

ولد Charles-Eugène de Foucauld يوم 15 سبتمبر 1858 بـ ستراسبورغ Strasbourg في أحد الأحياء الراقية للعائلات "النبيلة"، التي تنتمي إليها عائلته المتفرعة من Périgord التي تعود جذورها إلى نهاية الألفية الأولى (970 م)⁽¹⁾

ولد أباه François – Edouard في 27 فيفري 1820 وتزوج في 15 ماي 1855 بـ Elizabeth Beaudet de Morlet، التي تنتمي بدورها إلى عائلة متمسكة بالتقاليد والإخلاص للوطن، حيث تعود أصولها إلى Champenois الماكثة بمنطقة Lorraine منذ القرن 17 وتعمل أساسا في مجال الأسلحة⁽²⁾. كان أحد أجداد فوكولد Hugnes Foucauld يساهم بكثرة في مباني العبادة "الدير" بمنطقته، لذلك تبلورت مبكرا تقاليد خدمة الدين والوطن من طرف هذه العائلة.

بينما كان جده من أباه François Michel عقيدا في الهندسة أثناء الثورة الفرنسية، واستحققت مساهمته الفوز باعتبار نابليون، أما أب أمه إليزابيت Charles-Gabriel de Morlet فكان أيضا عقيدا متخرجاً من المدرسة المتعددة التقنيات.

انتقل أباه إلى Wissembourg مع عائلته بعد أن عين بها مفتشا للغابات أين ولدت أخته الوحيدة Marie Inserodolphine de Foucauld في 13 أوت 1861.

¹ - Gorrée (george), sur les traces de charles de Foucauld, nouvelliste Lyon ,1936 P 15

² - Ibid, P 17

تلقياً من أمهما في سن مبكرة تعاليم الدين المسيحي، والتي تركت كما يقول فوكولد نفسه انطباعاً عميقاً في نفسيته، لكنها ما لبثت أن فارقت الحياة وهي في الخامسة والثلاثين يوم 13 مارس 1864، وبعدها بستة أشهر وفي 6 أوت يفقد أباه أيضاً وهو لم يتعد الأربعة والأربعين سنة⁽¹⁾.

تكفل برعاية الطفلين فوكولد 6 سنوات وماري 3 سنوات جدهما العقيد De Morlet الساكن بستراسبورغ.

بدأ فوكولد دراساته الأولى بمدرسة الأسقفية Saint-arbogat والتي أسست سنة 1851 من طرف Mgr André Race. وكانت تربط العقيد مورلي De Morlet علاقات طيبة مع أحد مديري هذه المدرسة Straubre وهو من أشهر علماء الآثار آنذاك، في هذه المدرسة التقى فوكولد بصديقه الحميم Faes والذي أصبح جنرالاً فيما بعد.

غلقت المدرسة أبوابها في 6 سبتمبر 868، فدخل فوكولد القسم السادس في ثانوية ستراسبورغ وبالموازاة كان يتعلم اللغة الإيطالية في سنة 1870 غادر جده الالزاس أثناء الحرب الفرنسية الألمانية ليتجه مع ابنه إلى برن Berne بسويسرا ومكث هناك إلى غاية نهاية الحرب 1871 عاد إلى فرنسا ولكنه قرر الاستقرار بنانسي Nancy بدل ستراسبورغ، في 28 أبريل 1872 يقوم فوكولد بتناول القربان المقدس لأول مرة في حياته في كنيسة نانسي، وقبل في نفس اليوم من طرف القس Mrg Foulan.

تابع فوكولد دروسه في نانسي وكان متفوقاً في التاريخ والجغرافيا على الخصوص وتحصل على البكالوريا بتقدير " قريب من الجيد "

¹ - Gorré , op cit P 17

في أكتوبر 1874 دخل مدرسة اليسوعيين [الرهبان] "La rue des postes" بباريس والتي يسيروها آنذاك الأب dulac المشهور تحضيراً لامتحان دخول المدرسة العسكرية Saint cyr.

وهكذا بدأ يحضر للحياة العسكرية التي كان يتمناها منذ صغره، رغم أن جده كان يفضل أن يتكون في المدرسة المتعددة التقنيات مثله، لكن فوكولد فضل Saint cyr لأن المسابقة فيها أسهل⁽¹⁾. لذلك لم يكن منضبطاً، ولا محافظاً مؤمناً كما يتطلب نظام وقانون المدرسة والدين فكان عرضة لعقوبات تأديبية عديدة، ففي عامه الثاني بنفس المدرسة ونظراً لـ "انحرافه" وانحلال أخلاقه يطرد من طرف معلميه في مارس 1876⁽²⁾.

الحياة العسكرية :

1- سان سير Saint cyr (1876-1878)

رغم تحضيراته المتقطعة في مدرسة Rue des postes فقد أجرى بنانسي إمتحان القبول بالمدرسة العسكرية الخاصة سان سير مفخرة الضباط الفرنسيين. في 30 أكتوبر 1876 تحصل على المرتبة الـ 82 من بين 412 طالب ناجح.

لقد دخل مدرسة سان سير وهو في الثامنة عشرة من عمره. كانت آنذاك تحت قيادة الجنرال De Brigade Hanrion.

جند في السرية الثانية وتعرف على العديد من زملائه الذين سيكون لهم تأثير كبير في الجيش الفرنسي والسياسة العامة للبلاد، بحكم رتبهم ومناصبهم فمن بين أساتذته الملازم الأول Dubail أستاذ الجغرافيا الذي أصبح فيما بعد

¹ - Gorrée , op cit , p 21

² - Ibid, p 21

أمين لوسام الشرف. ومن بين مؤطريه الرقيب Fourier Gérard الذي قاد الجيش الخامس سنة 1915. وعدد آخر من الذين توصلوا إلى رتب الجنرالات والماريشالات ومنهم لابرين الذي لازمه في الصحراء كما سنرى. نجح فوكولد في سنته الأولى وتحصل على المرتبة 143 من 391، وهي مرتبة متقدمة حسب تصنيف المدرسة.

في 03 فيفري 1878 توفي جده الكولونيل Morlet في بيته عن عمر يناهز 81 سنة. وكان لذلك تأثير ظاهر في توجه حياة فوكولد، حيث تغيرت انشغالاته وعزف تماما عن الدروس العسكرية لصالح الأدب والحرفة، ولم يعد للجد والنظام مكان في اهتماماته كما يشهد لابرين: "يستعمل أوقات فراغه بعد التمارين العسكرية في التسكع والرسم أو التعمق في مطالعة المؤلفات الإغريقية اللاتينية، أما بالنسبة لدروسه النظرية فلا يلتفت إليها إطلاقا".⁽¹⁾ هكذا تقهقر مستواه وتخرج من المدرسة في المرتبة 333 من 386 طالبا ويعين في 01 أكتوبر ملازما.

3- مدرسة Saumur (1878-1879)

بعد تخرجه من سان سير التحق بمدرسة الفرسان بـ Saumur التي يديرها الجنرال L'Hote. واستمر في إهمال دروسه ودخل حياة الاضطراب من جديد، القمار، التأخر، الغيابات، الفرار... تلقى على إثرها عقوبات متفاوتة وصلت إلى حد السجن لمدة طويلة. وهكذا تخرج من المدرسة في المرتبة الأخيرة مع ملاحظة سيئة من طرف نائب مدير المدرسة: "روح عسكرية قليلة، ليس له وعي الواجب بما فيه الكفاية، ينزوي كثيرا لرغباته، نتائج رديئة..."⁽²⁾

¹ - Gorrée , op cit, p 25

² - Gorrée , op cit ,P27

3- الضلال: أزمة وجدان

بعد تخرجه من هذه المدرسة، عين في الفوج الرابع للفرسان بـ Sezanne ثم وبطلب منه يحول إلى Pont-a-Moussort وفي ديسمبر 1880 ينتقل فوج الفرسان الرابع إلى الجزائر، وغير اسمه إلى فرقة صيادي إفريقيا الرابعة، فاستقر بها الوضع بسطيف. واستمر فوكولد في سلوك الاضطراب والانحراف والتبجح في حياة غير مستقرة وغير منتظمة، ومن جهة أخرى كان على علاقة غير شرعية بمستوطنة فرنسية بسطيف. لا نصائح مسؤوليه ولا أوامر رؤسائه وتوبيخاتهم استطاعت أن تثنيه أو تؤثر فيه. كان مثالا سيئا حسب شهادة قريبه الجنرال Gamelin⁽¹⁾. لقد رفض الانصياع واختار الضياع. وهكذا طرد في 20 مارس 1881 لسبب "عدم الانضباط و عدم تنفيذ الأوامر"⁽²⁾.

وهكذا انتقل إلى "إيفيان" واستمر في حياة الفراغ والشهوات والإدمان والإلحاد إلى درجة لا يعتقد فيها بوجود الإله⁽³⁾، وتمادى في الضلال إلى أن جاء خبر من الجنوب الوهراني عن انتفاضة بوعمامة زعيم أولاد سيد الشيخ، وأن فرقة الصيادين الرابعة التي كان ينتمي إليها فوكولد قد عينت لقمع الانتفاضة. وجد الفرصة مناسبة للعودة الى السلك العسكري فذهب إلى باريس ليقدم طلب إعادة إدماجه في الجيش، أعلن فيه قبوله لكل الشروط التي ستملى عليه .

قبل طلبه في 03 جوان 1881، وأرجعت إليه رتبته فالتحق بفرقته ليبقى معها حوالي 8 أشهر في الجنوب الوهراني. وكان من ضمن تلك الفرقة كل

¹ - Pottier (René), la vocation saharienne du Pêre de Foucauld, Plon, Paris 1939, P 39

² - Gorrée Op-cit , P 30

³ - Gorrée Op-cit , P 31

من لابرين، الضابط المترجم موتلنسكي Motylinski، والكونت H.Castries الذين سيشكلون أهم صداقاته فيما بعد. بعد انتهاء انتفاضة أولاد سيد الشيخ عادت الفرقة إلى حياة الثكنات بمعسكر. في جانفي 1882 تقدم بطلب للحصول على عطلة طويلة لتنفيذ "مشروع جدي"، لكن الطلب رفض. وبدون تردد يقدم استقالته ليغادر السلك العسكري للمرة الثانية.

المغامرة إلى المغرب: اليهودية وسيلة

طبعاً ليس من العبث والصدفة أن يتخذ الشاب الضال فجأة هذا القرار لتنفيذ مشروع مغامرة بهذا الحجم وفي هذا الخطر. هل كان ذلك من ضمن الشروط التي قرأت عليه لإعادة إدماجه في الجيش؟ وكيف يسمح له بمغادرة الجيش بدون متابعة وللمرة الثانية؟ وهل استقال أصلاً أم هي مجرد تغيير وظيفة تبعاً للشروط المذكورة؟ لماذا اختار المغرب بالذات؟

لقد حاول الهيجوغرافيين أو كتاب السيرة الذين تناولوا سيرة فوكولد - معظمهم رجال دين- أن يقتنعوا بتفسيرات روحية معنوية وحتى حماسية في بعض الأحيان، فاعتبرها Gorrée "بداية الهدى... والتمسك بالعادات العائلية الفخرية... وشعار الاشراف الفوكولديين: إلى الأمام دوما"⁽¹⁾.

بينما يرى Potier المواجهة مع أولاد سيدي الشيخ كافية لهذا التحول: "لم تعد الشهوات تغري الذي جاء من المقاومة والقتال... غادر السلك العسكري لكي يقوم برحلة دراسية... الشرف الحقيقي للحرب الذي ينتهي بالدم إلى السلام قد جعله يكره هذا الشرف الذي يمكن الحصول عليه في المطاعم وأماكن اللذات والشهوات التي يحوز عليها كل من ملك ذهباً. ثم قتل [فوكولد] في نفسه الرجل الشره الشهواني، المتباهي، سيعيش من الآن

¹ - Gorrée , op cit P 31

بخيلا وسينام على الأرض...⁽¹⁾. أما غيرهم فيقفز هذه الفترة محدثين فراغا مقصودا ولم يحاول حتى الإثنولوجيين الحاليون⁽²⁾ توضيح الأسباب الحقيقية والموضوعية لهذا المشروع، وإذا لم يكن بالامكان توفير الأرشيف (السري)، تبقى المغامرة بحد ذاتها وكيفية سيرها وتنظيمها وتمويلها وتسخير هذا الكم الهائل من الإمكانيات لشاب له ماضي غير مشرف ولم يحقق أي نجاح إلى ذلك الوقت تحمل عناصر ومؤشرات واضحة عن ما لم يرغب كتاب سيرة فوكولد ومن جاء بعدهم في التحدث عنه: أن المعني في مهمة رسمية مثل معظم المغامرين السابقين.

ما إن قبلت "استقالته" حتى ذهب فوكولد إلى الجزائر لتعلم اللغة العربية والعلوم الواجبة لتحقيق المشروع، وعمل تحت إدارة Mac-Carthy محافظ المكتبة - المتحف وقد استفاد كثيرا من كتابات هذا الأخير حول عادات ولغة سكان المغرب.

كان المغرب مغلقا على الأوربيين آنذاك، وللسكان عدااء تجاه "النصارى" لذلك نصحه Mac-Carthy بأن يتنكر في شخصية يهودي مغربي وأن يدرس العبرية أكثر من العربية. لم يمض كثيرا من الوقت ليتعرف بالحاخام Mardocheé Abi Serour بمكتبة الجزائر الموجودة بقصر مصطفى باشا، لقد فعل ذلك مرغما لأنه: "من الصعب جدا لفرنسي وإن كان ملحدًا... أن يقبل تقمص يهودي... إنه في الواقع التنكر الذي وجب على فوكولد القيام به إذا أراد التوغل في المغرب"⁽³⁾. كان ذلك واضحا في انطباعاته حول زميله عندما وصلا إلى "قاس" كما ورد في رسالة إلى أخته ماري مؤرخة في

¹ - Pottier, op cit. P44

² - لاسيما: Pandolfi 1997, casajus 1999

³ - Pottier, op cit P 45

23 جويلية 1883: "لست راضيا على Mardocheé إنه الحيوان الأكثر كسلا الذي يمكن مصادفته ومع هذا فهو جبان فوق كل تعبير، غير سوي ولا يعرف شيئا عن السفر"⁽¹⁾.

بعد أن أنهى التحضيرات إنطلق يوم 10 جوان 1883 من الجزائر في حلته التتكرية واسمه المستعار: الحاخام Joseph Alman رفقة Mardocheé ليصلا وهران في نفس اليوم ثم تلمسان وهنا صادفه زملاؤه في الجيش لكنهم لم يتمكنوا من التعرف عليه، لقد كان التتكر محكما: "بدأنا مباشرة نبحث عن يهود وادي ريغ... عندما مرت أمامنا مجموعة من ضباط صيادوا إفريقيا، أعرفهم جميعا تقريبا، نظروا إلي جيدا دون أن يشكوا من أكون"⁽²⁾

غادرا تلمسان في 14 جوان ليصلا "لالة مغنية" في الحدود الجزائرية المغربية ومنها يعبران الحدود إلى نمروس ثم طنجة على طريق البحر يوم 20 جوان ورغم صعوبة الدخول إلى المغرب للآتين من الجزائر التي كانت مستعمرة فرنسية إلا أنهما مرا وبسهولة دون أن يكتشف أمرهما.

يغادران طنجة في قافلة صغيرة نحو "تيتوان" التي بقيا فيها عشرة أيام ثم توجهوا إلى فاس ومكثا فيها طويلا، استطاع فوكولد أن يقوم باستطلاعين الأول إلى "تازا" والثاني إلى "سفرو" زار في طريقه إليهما كل من مكناس، زاوية مولاي عبد الرحمن، تادلة.

قدم فيها وصفا للوضع السياسي والاجتماعي ووجه انتقادات شديدة لسياسة السلطان وتعسف رجاله وجبروتهم وتشديدهم على الضرائب دون النفقة في الصالح العام، إلى جانب مكانة اليهود ووضعتهم. كما قدم معلومات عن بعض القبائل المسيطرة ومجالها الجغرافي قائلا: "أخذنا طريقنا

¹ - Gorré, op cit P 38

² - Gorré, op cit, P 36

من مكناس إلى تادلة، لا يوجد سوى غابات وجبال تسكنها قبائل متوحشة، زموور الشلاحة، زيار زيان، وبالمنطقة سهل كبير من الحصي ويستوي على مساحة عظيمة⁽¹⁾

كما قدم وصفا دقيقا لمنطقة "تيكيرت" الصحراوية من الناحية الجغرافية والمناخية.

وتعرض في نفس المنطقة لمحاولة السطو الأولى إذ اقترح أحد زعماء القوافل الذي صادفهم في الطريق على حماته المستأجرين أن يتقاسم معهم الغنيمة "أحسن من الاستمرار، في هذا العمل الخبيث: حماية اليهودي"⁽²⁾. لكن هؤلاء رفضوا وواصلوا الطريق نحو "تازنخت Tazenakht" التي تعود سيادتها إلى قبيلة زناقة Zenaga كما كتب في 12 نوفمبر: "الزناقة مستقلون كل ما يوجد بالجنوب من تازنخت يعود إليها بصفة كلية"⁽³⁾

توغل فوكولد أو الحاخام Joseph في الصحراء المغربية بفضل هذه القبيلة واستطاع أن يزور أماكن عديدة، وتمكن أيضا من الحصول على معلومات وافرة حول الأماكن البعيدة التي لم يزرها كتين بكتو كما نلاحظ في وصفه: "الصحراء والنخيل هي حدود الأطلس الصغير من الجنوب تحت السلسلة يبدأ سهل واسع لا ينتهي؛ تموجات رمادية نحو الجنوب على مدى الأفق يقطعها واد "الدرا" ثم ها هي الصحراء الكبرى التي تمتد إلى السودان، جبال حقيقية [صخرية] تمتد من هنا إلى تين بكتو: سهل متموج وموحد في كل مكان، رملي حجري، عاري، لم يبق في الحياة سوى بعض الواحات التي تتخللها من مكان إلى آخر كبقع سوداء. الواحات قليلة جنوب واد "الدرا"

¹ - Ibid, P 39

² - Gorée, op cit, P 39

³ - in Ibid, P 41

لكنها كثيرة شماله، لقد زرت الكثير من هذه الأخيرة، تزنت، تاتا، اكا، ماريمينا، زرت مجرى وادي "الدر" انه جاف وعريض بأكثر من 3 كلم. منذ مدة شهرين وأنا أتجول في هذه المنطقة الهامة وغير المستقلة⁽¹⁾

وصل فوكولد ورفيقه إلى أغادير في ديسمبر 1883 ثم غادراها إلى تيزيت يوم 3 جانفي 1884 واتجها نحو الغرب ليعبر وادي السوس ومرتفعات الأطلس الكبير، ليستقر بـ "ماغادور" في فندق يمتلكه يهودي إسباني، في انتظار الرد حول رسالته التي بعثها إلى فرنسا طالبا التمويل، الذي جاءه بعد 45 يوما من الانتظار في 14 مارس.

فأخذ طريقه نحو الصحراء والعودة إلى "تتينت" ومنها أخذ طريق الشمال الشرقي ليصلا إلى "تازنخت" للمرة الثانية ويواصل طريقهما مرورا بـ مزغيتا، جبل ساغو، تاويريت، قصر السوك، الأطلس الكبير على تيزي-ن-تلغنت على ارتفاع حوالي 2182 م، ثم قصر المخزن، دبو، وتعرض في هذا الطريق لمحاولة سطو ثانية، لكن هذه المرة عن طريق اثنين من حراسه الثلاثة، وكان سيقتل لولا زميلهما، ومن حسن حظه أيضا كانت الحادثة بالقرب من الحدود الجزائرية على بعد مسيرة ثلاثة أيام من مغنية، والتي وصل إليها مع مجموعة من اليهود مرورا بقصبة العون، سيدي مالوك ثم وجدة التي غادرتها يوم 23 ماي نحو مغنية، هدف رحلته ونهاية المغامرة، ونقطة الافتراق مع دليله ورفيقه الذي لا يحتمله الحاخام Abi Serour على مدى 11 شهرا كاملة. (أنظر المسار في الملحق).

وهو في حالة تشرد مزرية، لباس ممزقة أقدام حافية، لحية يهودية... حاول دخول الفندق فمنعه صاحبه، فأصر أن يتحدث مع قائد مجموعة من

¹ - Ibid ,p 42

الضباط والجنود الفرنسيين المقيمين الرائد Lavergne، والذي أجابه عن طريق صاحب الفندق أن الرائد " لا يستقبل، أشخاصا لا يعرفهم"⁽¹⁾، وما هي إلا لحظات ليعود صاحب الفندق بورقة كتب عليها "الكونت شارل دي فوكولد ملازم أول كتيبة الصيادين الرابعة"⁽²⁾ فأمر الرائد بإعطائه الغرفة وكل ما يلزمه.

اندهاش الجنود جعلهم فضوليين، وحاولوا مساءلته عن رحلته الغريبة، ولم يجبههم سوى ب : "الجمعية الجغرافية بباريس والسيد M.Duvegrier اللذان أرسلاني إلى المغرب، وما دام لم ينشر عملي، فإن الواجب يمنعني من الحديث عنها"⁽³⁾

النتائج:

انتهت المغامرة، فألغى عنه المجلس التأديبي عقوبة الحضر القانوني، ويعود إلى فرنسا ليقابل شخصيات الجمعية الجغرافية التي منحت له "الميدالية الذهبية الكبرى وأصبح يطلق عليه اسم كبير المغاربة!" كانت النتائج حاسمة على المستويين الجغرافي والعسكري. فقد كتب Duveyrie تقريرا في 24 أبريل 1884 عن مغامرة فوكولد بالمغرب في مؤسسة الجغرافية بباريس قائلا: "لقد استأنف هذا الضابط الشاب، وأكمل بإتقان 689 كلم من الأعمال التي قام بها سابقوه، وأضاف 2250 كلم جديدة، فيما يخص الجغرافيا والفلك فقد حدد مواقع 45 درجة طولاً و 40 درجة عرضاً، أين لا نمتلك سوى أرقاماً عن الارتفاعات التي لا تتعدى العشرات بينما وبفضله وصلت إلى 3000 رقماً"⁽⁴⁾.

¹ -Pottier, op cit P 51

² - Pottier, op cit , P 51

³ -Ibid, P 52

⁴ -Gorreé, op cit P 52

كما توجت رحلته بكتاب ضخّم تحت عنوان "Reconnaissance au Maroc" الذي نشر سنة 1888، وسبقه مقال نشر في مجلة الجمعية الإفريقية بعنوان "Itineraire au Maroc" يلخص فيها أعمال ورحلة المغامر.

ومن جهة أخرى كانت أفكاره قاعدة لسياسة الجنرال Lyautey في المغرب قبل وبعد إحتلاله، كان يزوره باستمرار ويمكنه عنده طويلا أثناء إقامته ببني عباس القريبة من المغرب.

لقد أكد أنه "إذا أردنا أن نملك إمبراطورية المغرب، فلا بد من استعمال قوة كبيرة"⁽¹⁾. وهو الاقتراح الذي طبقه Lyautey في حدود الامكانيات التي وضعت تحت تصرفه، وبالتالي فإن المحادثات التي تمت بين الجنرال وفوكولد كان لها تأثير واضح في قرارات الأول.

ليس من الغريب إذن أن من بين النشاطات العديدة لفوكولد، مواصلته للتصرف وكأنه لم "يستقل" من الجيش.

الطريق إلى الرب: التحول

بعد أن أنهى مغامرته، زار عدة مدن في الجنوب الجزائري: الأغواط، غرداية ورقلة، توقرت، شط الغرزة، شط الجريد، قابس ثم يعود إلى فرنسا في بداية سنة 1886. وبعد أن قضى وقتا طويلا في جو عائلي بين نيس وباريس تعرف على القس Huvelin وبفضله "شعر برغبة حقيقية لإصلاح تصرفاته، ومن حينها أخذ يتردد على الكنائس، ويقول دون أن يكون على إيمان حول هذه الصلاة: يا إلهي إذا كنت موجودا فأرني ذلك"⁽²⁾.

¹ - Pottier , op cit , P 143

² - Gorrée , op cit , P 63

وبدأت رحلة البحث عن "الرب" وامتص هذا البحث كل تفكيره، كان يصرح لقريبته: كم أنت سعيدة وأنت تمتلكين الإيمان. إنني أبحث عن النور ولكنني لم أجده!⁽¹⁾

قرر بعدها أن يتعلم دروسا دينية كاثوليكية، وعاد إلى كنيسة Saint Augustin ليتلقى شروحات من القس Huvelin حول الدين والإيمان، لكن قبل أن يبدأ هذا الأخير في ذلك شرط عليه الدخول في "طائفته"، وان يعترف ويندم على أخطائه. وعليه قام فوكولد في أكتوبر 1886 بالقربان المقدس الثاني في حياته والأول في مسيرته الدينية وأصبح منذ ذلك يحضر يوميا للقداس والصلاة والتراتيل المقدسة... إنه التحول: من ملحد، عسكري عاصي، مغامر إلى راهب ومسيحي ملتزم. يرجع بنفسه هذا التحول إلى أربعة أسباب⁽²⁾

الأول: فهمه أن الدين الذي يراه يمارس من طرف نفوس وديعة لا يمكن أن يكون جنونا.

الثاني: الاعتقاد في أن الدين الذي لم يكن جنونا، يمكن أن يكون الحقيقة التي لا يمكن إيجادها في أي شيء آخر.

الثالث: الحصول على إلهام عن طريق أستاذ الدين.

الرابع: الذهاب إلى القس Huvelin.

وإذا كانت تلك أسباب داخلية ومباشرة، فإن Pottier يرى بأن هناك أسبابا خارجية وغير مباشرة هي التي هيأت وسهلت هذا التحول، يرجع ذلك إلى مرحلتين:

¹ - Ibid, P 63

² - Ibid, P 64

الأولى: أثناء ضلاله بسطيف: "في المخيم بسطيف التقى بالمسلمين، كان منشغلا بالطيش والانحلال الجنسي، لكنه استطاع أن يلاحظ التقوى الإسلامية، فقد سمعهم ينشدون المدائح الدينية. أثر ذلك بدون شك في هذا الرجل"⁽¹⁾

الثانية: أثناء مغامرته إلى المغرب: "أثر فيه كثيرا رؤية منظر المسلمين في العيد الكبير وهم يصلون جماعات كبيرة، يستجيبون للإمام، رغم أنه ما زال لم يؤمن بالإله، لكنه أصبح يفكر فيه رغما عنه"⁽²⁾. بمعنى أن الدين الإسلامي وتطبيقاته في كلاً المرحلتين كانت وراء التحول بصفة ما. لكن إذا كانت المناظر والمظاهر قد أثرت فيه فإنه وحتى بعد تحوله لم يكن يعتبر "الإسلام" إيماناً ولا ديناً إلهياً حقيقياً، كما نلتمس من خلال قوله: "إنه لفضل كبير من الرب لفرنسا بأن منحها 50 مليون من الكفار "Infideles Sujets" ومن الأبناء القاصرين، لتربيتهم وتنصيرهم وأخذهم إلى الرب: أي فضل ستلقاه فرنسا إذا قامت بهذا الواجب وأنقذت هؤلاء الخمسين مليوناً من النفوس، الثمن الغالي الذي مات المسيح من أجله"⁽³⁾

فكيف يتأثر بمن يسميهم "كفار" دون إيمان والذين يعتبرهم أمثاله من الأوربيين على أنهم شعوب بدائية متوحشة، متخلفة، همجية، اندجان... هل لنا أن نفكر مرة أخرى أن في الأمر ترتيباً ما؟ وهذفاً آخر؟ مكملاً للمشروع السابق؟ وهل المسيحية وسيلة لذلك كما كانت اليهودية للمغرب؟. إن دوره ومسيرته خلال الأحداث المقبلة، كقيلة ربما على أن تقدم لنا جزءاً من الحقيقة.

1 - Pottier, op cit, P 43

2 - Ibid, P 49

3 - Ibid, P 119

زيارة الأماكن المقدسة 1888-1889

لقد فرض عليه القس Huvelin، إذا كان يرغب في الحياة الدينية، أن يزور الأماكن المقدسة بفلسطين رغم كرهه للقيام برحلة طويلة مثل هذه إلا أن فوكولد سيقبل ذلك تنفيذاً لنصائح وإدارة زعيمه الروحي⁽¹⁾

غادر مرسيليا في نهاية نوفمبر 1888 ليصل إلى القدس يوم 15 ديسمبر، وزار معبد "السيد المسيح" وعددا من الأماكن الأخرى ليعود إلى باريس في مارس 1889 ويجنده القس Huvelin لدراسة دعوته في الخلوة، فقام بأربع خلوات: "إن الفضائل التي تحصل عليها والنصائح التي أعطيت له، ساهمت كثيرا في توجيهه نحو حياة الكنائس"⁽²⁾ عاد إلى الأراضي المقدسة للمرة الثانية في السنين الأخيرة من القرن، حيث زار حيفا Jaffa، رام الله Remleh، سانت جان Saint jean، Betheem، القدس ليصل أخيرا إلى نازارخ Nazareth (أنظر الملحق). قام بكل هذه الرحلة سيرا على الأقدام، لابساً كافتق السكان القرويين الفلسطينيين، وعمل يدويا لكي يستقر ويضمن قوته، ثم وجه طلبا من هناك إلى فرنسا لتزويده بالكتب والموسوعات في الفلسفة والأخلاق، علم الأديان واللاهوت، وكتب سانت أوغستين على الخصوص⁽³⁾

وهكذا بقي يترواح بين المدن الفلسطينية يتعبد ويخلو، ويتصل بالشخصيات المسيحية المشهورة كالام "Elizbeth du calvier" المقيمة بالقدس، ليعود أخيرا إلى مرسيليا في أوت 1900 وفي باريس إلتقى بزعيمه الروحي الذي أبدى رضاه لإدائه، بعد أن استمع لتقريره. ثم فرض عليه مرة

¹ - Gorreé, *op cit*, P 65

² - *Ibid*, P 68

³ - *Ibid*, P 97

أخرى زيارة Notre dame des Neiges، وروما، ليكمل واجبات العبادة والخلوة لإنهاء مرحلة تحضير القسوسة.

العودة إلى الصحراء:

أثناء كامل مرحلة التكوين والتحضير للقسوسة، كان فوكولد يخطط ويفكر في المكان الذي سيستقر به، كان يريد أن يخوض حياة هادئة بفلسطين (Nezareth) لكن غير رأيه فيما بعد قبيل تعيينه أبا في 09 جوان 1901، واقترح مشروعا للقس Huvelin. "للإقامة في إفريقيا، حبا للرب، وشفقة للنفوس الفقيرة المهملة الموجودة هناك"⁽¹⁾

1- بني عباس 1901 - 1903:

في 06 سبتمبر غادر الأب فوكولد "N.D.Neiges" قاصدا إفريقيا ليمر على مارسيليا ثم الجزائر. كانت رغبته الاقتراب من المغرب، الذي يعرفه جيدا كما يؤكد: "لقد قمت بجمع الإجراءات، لكي أرحل إلى الجنوب الوهراني على الحدود المغربية في إحدى المستعمرات الفرنسية التي لا يوجد بها أي راهب"⁽²⁾. ثم يتطرق إلى الهدف المزدوج وراء ذلك: "أولا الحيلولة دون موت جنودنا بلا قداس في أماكن تقتل فيها الحمى أعدادا هائلة... ثانيا عمل أكثر ما يمكن من "الخير" حاليا للسكان المسلمين والمهملين وهذا بنشر دعوة المسيح" كما جاء في رسالته إلى قريبتة Bondy.

تبدو هذه الأهداف موضوعية إذا كان "الخير" المقصود هو ما فسر في الجملة الأخيرة وكما هو واضح الأول عسكري والثاني ديني. لم يخف ذلك وجد في استقباله بالجزائر كلا من P. henri و Mgr.Guerin وأخذه هذا الأخير إلى Maison-carree وقرر استقرار الأب فوكولد "في مستعمرة

¹ - Gorreé, op cit , P 112

² -Ibid, P 135

فرنسية تسمى بني عباس، إنها واحة جد مهمة في الصحراء، توجد على الحدود المغربية⁽¹⁾. إذن ليس بني عباس هدفا في حد ذاته وإذا استقر بهذه الواحة فبكل بساطة لأنها قريبة من المغرب الذي كان يتمنى العودة إليه. جاء ذلك في رسالة إلى قريبته السابقة، والتي يشرح فيها أيضا مهمته "المقدسة" قائلا: "إن العمل الذي أوكّل لابنك رائع ومحبوب: حمل المسيح بعيدا في الصحراء، نحو الجنوب ونحو المغرب، والذي لم يصله بتاتا من ذي قبل ربما، وعلى كل حال لم يكن على الأقل منذ وقت أوغستين. إن إنقاذ "الكفار" بهذا الحضور سيأتي بالنجدة الدينية... إنها مهمة كبير وجميلة ولكنها تتطلب الكثير من الشجاعة..."⁽²⁾

في 20 سبتمبر انسحب إلى كنيسة سطاولي في انتظار رخصة الحاكم العام للجزائر لإقامته ببني عباس، إلى غاية 14 أكتوبر يتسلم من زميله السابق بالجيش ومسؤول شؤون الأهالي في الحكومة الجزائرية الرائد Lacroix الأوراق الضرورية للإقامة في الجنوب الوهراني. فغادر الجزائر مباشرة نحو وهران.

وصل واحة عين الصفراء في 15 أكتوبر واستقبله الجنرال Cauchemez والذي كلف الملازم Huot لإيصاله إلى بني عباس، التي يصلها يوم 28 أكتوبر ويرسل أولى انطباعاته إلى الكونت Castries: "بني عباس قصر يتكون من 130 بيتا، يسكنه الشليخ والحراطين، القصر يوجد وسط غابة من 6000 نخلة، تسقيها فقارة رائعة"⁽³⁾. مباشرة يقوم بأول قداس، ولم يتأخر بعده في الحصول على قطعة أرض بمساعدة الضباط، ليبني بوسائل المنطقة

¹ - Gorrée , *op cit* , P 135

² - *Ibid*, P 136

³ - Gorrée , *op cit*, P 137

وموادها المحلية قاعة نسك صغيرة، وبدأ مهمته الجديدة على الجدول الزمني الذي حدده في هذه الأسطر: "قسمت حياتي بين الصلاة والعبادة... مطالعة اللاهوتيات، الأعمال اليدوية، ثم أكبر قسم في استقبال الزوار بعض الضباط والكثير من الجنود، العرب والكثير من الفقراء الذين أمنهم الشعر والتمر في حدود الإمكان"⁽¹⁾. لم يخف أيضا الهدف من العطاءات "المجانية" وغيرها من الأعمال الخيرية فماهي الا وسيلة للوصول إلى غاية أسمى كما يقول: "بذلك سنصل شيئا فشيئا وبالتدريج، الصدقة، العلاج، شراء، وتحرير العبيد... كلها ستصلح القلوب وتفتح الطريق أمام التبشير المستمر، الذي يكون أكثر سرعة كلما كانت هذه الإهتمامات كثيرة وصادقة"⁽²⁾.

كان يشتري العبيد ويحررهم كما ورد في برنامجه لكن مقابل الدخول في المسيحية. منهم الذي اشتراه في 14 سبتمبر 1902 وسماه Paul وهو في الخامسة عشرة من عمره ورافقه إلى مماته.

وأكثر من ذلك يرى ضرورة تحويل العشرة ملايين مغربي إلى الدين المسيحي عن طريق "لجنة الكهنة" التي يقترحها لهذه المبادرة، ويختار منها أعضاء للعمل في هذا المجال⁽³⁾.

لابيرن الذي يعرف فوكولد جيدا وعلى علم بمهمته ومقدوراته، كتب إلى أحد ضباطه يطمئنه قائلاً: "تستطيع أن تعتمد عليه [فوكولد] كأداة فعالة للسلام والقوة المعنوية، سيفعل هناك بالقليل، مثل ما فعله الكاردينال الكبير بتونس للنفوذ الفرنسي"⁽⁴⁾.

¹ - Ibid, P 140

² - Ibid, P 155

³ - Ibid, P 151

⁴ - Gorrée, op cit, P 147

كان فوكولد بدوره معجبا بـ لابرين الذي حققت فرقه في تلك الفترة انتصارا كبيرا في معركة تيت 07 ماي 1902 ضد أهقار، وكان وراء صدور المرسوم المؤسس "للسرايا الصحراوية" في 01 أوت 1902. ثم تحصل على خضوع كيل أهقار بعد سنتين، لكن يرى Didier أن "العدد الهائل من المراسلات بينهما لا يمكن أن تكون وهما: النزاهة والصدقة التي تربطهما لا تنفي وجود عقد سياسي بينهما: أجعلك تأتي، أساعدك إذا ساعدتني"⁽¹⁾ وقليلًا من الوقت فيما بعد يلتقي الرجلان في 06 مارس 1903 ببني عباس ومن حينها جاءت الأب فوكولد فكرة التوغل نحو الجنوب ببلدان التوارق بعد أن فقد أمل الاستقرار بالمغرب.

2- تمناست: أهقار

بعد هزيمة كيل أهقار وانفتاح بلدهم أمام الفرنسيين استغل فوكولد الحدث بسرعة وكتب إلى المسؤول البابوي العام للصحراء Mgr Guerin في 24 جوان 1903 يطلب منه رخصة لزيارة بلدان التوارق وهذا بعد أن درس الموضوع وإيجابياته مع زميله القديم لابرين. جاءت الرخصة في 29 أوت بعد أن تحصل على موافقة وتأييد زعيمه الروحي القس Huvelin للإقامة في المنطقة. ولم يبق سوى انتظار الوقت المناسب للرحلة.

أ- الزيارة الأولى: 1904: المحاولة الفاشلة:

غادر فوكولد بني عباس في 13 جانفي مع فرقة عسكرية لملاقاة الرائد لابرين بأدرار عاصمة توات.

¹ - Pandolfie (P), « "Sauront-ils se separer entre les soldats et les pretres?" L'installation du pere de Foucauld dans l'Ahaggar », Journal des Africanistes N° 67, 1997, P 61

أراد لابرين مرافقة فوكولد في دورته المهمة في المستحوزات الجديدة نحو الجنوب: أهقار، اصاغ، وحتى إلى تين بكتو وهذا امتياز لا يمكن أن يمنح لراهب آخر غير فوكولد حسب تعبيره: "يمتلك لابرين القدرة لتسهيل دخولي واستقراري. لقد سمح لي بمرافقته في الدورية... أعتقد أنه لا يمكن أن تمنح مثل هذه التسهيلات لكاهن آخر غيري"⁽¹⁾.

غادرت الدورية أدرار في 08 فيفري 1904 وتوجه جنوبا لتمر على عين صالح، اقبلي، تيت، ان أزيز، أهنت، تمساو، تيمياوين التي وصلتها في 16 أبريل 1904 وفي هذه النقطة الأخيرة اصطدمت بحامية عسكرية فرنسية من جيش AOF يقودها النقيب Théveniaut آتية من تين بكتو، تحمل أمر منع مهمة لابرين (الجيش الجزائري) من الدخول إلى أدرار - ن - فوغاس، أو زيادة أي خطوة نحو الجنوب.

عاد لابرين لتوه إلى أهقار واتجه نحو الشمال ليزور تين زواتن، أبلسه، تيت، ان امقل.

ورغم أهمية هذه الدورية التي يقودها لابرين (الحاكم العسكري للوحدات) مع عدد كبير من الضباط إلا أنه لم يلتق بـ أمنوكال - ن - أهقار موسى أق أمستان المعين في محادثات عين صالح منذ أشهر (سنتطرق إلى ذلك لاحقاً).

في طريق العودة يوم 14 جوان التقت المهمة بفرقة تابعة لـ لابرين يقودها الملازم روسل Rosel آتية من تيديكلت فطلب فوكولد وتحصل على مرافقتها لمدة 3 أشهر أخرى في أهقار. بينما اتجه وكتيبته إلى عين صالح وهو يقول لصديقه: "أتمنى أن أراك ثانية في أهقار"⁽²⁾.

¹ - Foureau , op-cit, P 174

² - Foureau op-cit, P 179

عاد إلى أهقار إذن لأداء مهمته التي يشرحها في هذا النص: "بعد أن قام التوارق بخضوعهم، بقي أن نتحصل على ثقتهم ونقضي على تحفظهم وأحكامهم المسبقة تجاهنا ثم مؤالفتهم واحترامهم،... ونبرهن لهم أننا نحبه ونقيم علاقة أخوية بيننا وبينهم... لقد طلبت من لابرين صديقي القديم وزميلي (كنا ملازمين في نفس الفترة) أن أقوم بهذا العمل الأخوي. وسمح لي بذلك"⁽¹⁾.

ثم يضيف في مناسبة أخرى: "إعطاء الدواء، الصدقات، العلاج، إظهار الأخوة والإصرار على أننا كلنا إخوة في إلاله... هذا هو عملي"⁽²⁾. دون أن ينسى مهمته الأساسية أو المقدسة كما يسميها "لتحويل المسلمين الفقراء المهملين في الصحراء إلى مسيحيين"⁽³⁾.

واصل مهمته إذن التآلفية التي بدأها مع لابرين والملازم روسل في أهقار وزار مناطق أخرى جديدة: تين تونين، تازروك، ادلس... ثم يتجه من جديد نحو الشمال: عين صالح وبني عباس التي وصل إليها في 24 جانفي 1905، دون أن يتمكن من الاستقرار بالهقار.

أسباب الفشل:

إذا لم يكن استقرار فوكولد بداهة تقبل مباشرة، فلأنه وحسب معطيات ذلك العصر، فإن إقامة رجل دين فرنسي ومسيحي في قلب الصحراء سي طرح مشاكل كثيرة. إن تلك الإقامة مرتبطة أساسا بعلاقة القوة بين السلطات الإستعمارية العسكرية الفرنسية وكيل أهقار وعلى رأسهم موسى أق أمستان.

¹ - Ibid, P 180

² - Ibid, P 180

³ - Ibid, P 182

إذا كانت رغبة فوكولد تتمثل في الاستقرار منذ أن جاء في استطلاعات لابرين و"روسل Rosset" فإنها تتطابق بشكل جيد مع رؤية لابرين الذي كتب إلى "كوفي Cauvet" في 3 فيفري 1904: "ما ان يسقر فوكولد هنا فإنه سيخدم التوارق... سيذهب الأسبوع المقبل للإقامة في اقبلي ليستطلع الوضع ثم سأتركه إذا كان كل شئ على ما يرام. لكن أريد أن يتمكن من التحدث بالتارقية الخالصة دون وسيط عربي"⁽¹⁾.

إذن فرغم رغبته ورغم موافقة لابرين المبدئية، إلا أنه لا يمكن للراهب أن يستقر هذه المرة بأهقار.

في بعض الأحيان لا يتم التطرق بتاتا إلى هذا الفشل من طرف كتاب سيرة فوكولد بينما تقزم الأسباب بصفة شديدة في أحيان أخرى⁽²⁾ لكن الأكثر ترددا هو أن الوضعية لم تكن واضحة بعد، خاصة وأن دورية لابرين لم تلتق بموسى أق أمستان، هو ما جعل لابرين يمنع استقرار فوكولد بأهقار. الحقيقة أنه منع صاحبه من الإقامة في أماكن معينة كما هو واضح في سجلات هذا الأخير:

- أبلسة 22 ماي 1904: "سيتركني لابرين هنا إذا التقى بموسى أمنوكال الهقار الذي وعد بزيارته منذ شهر، ننتظره كل يوم لكنه لم يصل بعد [...] وإذا لم يلتحق بنا موسى فإن لابرين لا يرغب في تركي بأهقار، هناك الكثير من المخاطر".

¹ - Foureau op-cit, P 61

² - Ibid, P 62

- تيت 28 ماي 1904: "إن خشية لابرين من بعض الفرنسيين أكثر من خشيته للتوارق، جعلته لا يسمح لي حاليا بالبقاء في تيت ولا غيرها بأهقار. سنعرف لاحقا"⁽¹⁾.

كما يبدو هنا السبب المقدم: غياب موسى والمعارضة المحتملة "لبعض الفرنسيين" وفي كلا الحالتين فإن هذه الأسباب قد أثرت في قرار لابرين رغم أن الامر يتعلق بأسباب ثانوية في الملاحظة الثانية المتمثلة في معارضة "بعض الفرنسيين". لكن من المستهدف بهذه الجملة؟ يشير كل شيء حسب Pandofli إلى "متوا Metois" الذي كان حينها رئيسا لملق عین صالح.

أكثر أهمية يظهر السبب الآخر واردا: عدم الالتقاء بموسى، ممثل كيل أهقار. إن هذا الغياب لموسى يخفي عدم الاستعداد للدخول في اتصالات مع لابرين، وهي إشارة من بين أخرى للوضعية التي تسود آنذاك بأهقار. لكن لابد أن نكشف هنا أنه رغم غياب موسى هذا، فإن مسألة استقرار فوكولد المحتملة قد تمت مناقشتها مع أعيان آخرين من كيل أهقار.

في ماي 1904 تحدث لابرين مع سوجي- الذي فوضه موسى- حول القضية لكن هذا الأخير نصحه لتأجيل تنفيذ هذا المشروع.

في سجلاته بتاريخ 23 ماي 1904 يتعرض فوكولد لهذا اللقاء مع سوجي والإمكانية المتاحة لـ لابرين لمفاوضة إقامة الراهب بأهقار، والتي لم يتلق حولها سوى إجابة سلبية: "الرائد لابرين يتلقى اليوم زيارة أعيان كيل أهقار: سوجي 30 سنة قريب موسى أق أمستان، والمعين خليفة له. وبابا 45 سنة حاملا رسالة من موسى، جاء فيها أن موسى قد مرض في الوقت

¹ - Foureau op-cit, P 62

المحدد للقاء وأنه كلف سوجي بنيابته وتمثيله مفوضا إياه كل السلطة لتعويضه وأن يعامل مثله تماما. إذا أراد الرائد [لابرين] فإنه يستطيع أن يتركني، لسوجي كل السلطة لتسهيل إقامتي"⁽¹⁾.

تبدو ملاحظة فوكولد في محلها، فالفرضية المصاغة تتعلق بالإرادة الوحيدة للابرين وليس لإرادة سوجي وكيل أهقار، ويبقى الاستقرار القضية الأكثر صعوبة. نفس الشئ في جويلية 1904 فقد صاغ الملازم روسل Roussel طلبا مماثلا لدى سوجي أق بدا بادلس مثلما صاغه لدى سيدي محمد بن عثمان بتاظروك. وكانت الإجابة سلبية في كلا الحالتين. وكان هؤلاء الرجال أعيانا ذوي نفوذ بل وأقارب لموسى رغم أن هذا الأخير إذا سلمنا بصحة قول دينو Dineaux قد نفى سنة 1905 أقوال سوجي.

ومهما يكن فإن الانتطاع السائد سنة 904. هو أن كيل أهقار بما فيهم أتباع موسى معارضين لإستقرار الأب فوكولد في منطقتهم. وهذا ما اعترف به المعني في رسالة مؤرخة بـ 26-10-1905: "حاولت عدة مرات أن استقر بأهقار السنة الفارطة دون جدوى، نظرا للروح الحذرة للأهالي الذين يرون في شخصي جاسوسا للحكومة...".

ب- الزيارة الثانية 1905: الإستقرار المفروض

ما إن وصل الأب فوكولد إلى بني عباس حتى بدأ نشاطه الاعتيادي: الصلاة، العمل اليدوي إلى غاية أفريل عندما جاءت رسالتان من لابرين يخبره عن إمكانية العودة إلى أهقار مع النقيب دينو Dinaux رئيس ملحق عين صالح.

¹ - Foureau op-cit, P 63

وكالعادة يبعث بتلغراف إلى المسؤول البابوي للصحراء Guerin وزعيمه الروحي القس Huvelin يستشيرهما حول الموضوع. فجاء الرد مناسباً: "سننحني لك ونحن نراك تقبل الدعوة، تاركين لك حرية تقدير الفرصة حسب الظروف"⁽¹⁾.

غادر بني عباس في ماي 1905 مع خادمه Paul ليلتقي بالنقيب دينو في منطقة توات. كان يرافق النقيب كل من المؤرخ والجغرافي E.F Gautier والجيولوجي Chaudeau، والكاتب Pierre Mille.

وإذا كان الكاهن يؤمن بمهمته التأليفية فإن للعسكريين أهدافاً أخرى: تذكير موسى بدوره كزعيم خاضع، شروط الخضوع، توضيح الوضعية (أنظر ص: 182)

للمرة الثانية في حياته إذن يزور فوكولد أمقار رفقة مستعمرة عسكرية بقيادة النقيب دينو. في 25 جوان 1905 وبدا أن ازول كان اللقاء المنتظر بين المستعمرة وموسى أمنوكال المعين.

قدم Antier هذا الظرف المهم كآتي: "في احتفال رائع أمام النقيب دينو أقر موسى خضوعه... ثم قدم له دينو شارل دي فوكولد كناسك مسيحي، خادم الرب، يحب الوحدة والصحراء ويتمنى دراسة لغة وثقافة التوارق. وضعه موسى مباشرة تحت حمايته وقبل استقراره بأهقار، ألم يكن ذلك في الحقيقة نوعاً من الأسير للتوارق أو بالأحرى رهينة وضمان للسلام الدائم؟ وهو على وعي تام لهذه الحسابات فإن شارل يرى أنه يحقق حلمه في إنشاء معبد وسط الصحراء، أين يجهل المسيح. ثبت موعداً لـ 1 أوت بأبلسه، أين سيأخذه موسى إلى تمراس، التي تبدو القرية الأكثر عرضة

¹ - in Gorrée, op-cit , P 27

لملتقى الطرق الصحراوية لكي يمارس تبشيره بصمت ويتعلم كيف يعرف شعب الهقار⁽¹⁾.

يبدو في تقديم كهذا أن كل شيء قد سوي منذ البداية وأن استقرار فوكولد بأهقار لم يطرح أي مشكل وكأنه إجراء يمكن أن يجد حلا سريعا. لكن نجد كتابات مختلفة ومتنوعة حول هذا اللقاء في كل المراجع المخصصة للأب فوكولد⁽²⁾، وهذا النوع من العرض تبرره كتابات فوكولد نفسه، فغالبا ما يعود البيوغرافيون إلى الأسطر المشهورة من سجل فوكولد حول وصف موسى: "موسى رائع جدا، متفتح كثيرا، مسلم تقي للغاية يحب الخير في الإسلام لكنه طموح في نفس الوقت، يحب المال، الميزات، الشرف... يقول كل شيء لـ باي، الذي يقول أنه يحبه أكثر من عينيه. باختصار موسى تقي مسلم له أفكار وطريقة حياة، له صفات وعيوب المسلم المنطقي، وله في نفس الوقت روح متفتحة أكثر ما يمكن... تم الاتفاق مع موسى، استقراري بالهقار قرر"⁽³⁾.

لقد أدمج معظم البيوغرافيين هذا النص لفوكولد في لقاء ان أزول واضعين بذلك تقريبا بين حدث يعود إلى 25 جوان 1905 وكتابة جاءت بعده تعود إلى 20 جويلية 1905.

ثم يعطينا فوكولد معلومات أخرى حول استقراره مؤرخة بـ 11 أوت 1905: "بفضل المسيح، أصبح استقراري ممكنا في تمنراست وفي أي مكان من أهقار.. اخترت تمنراست، قرية بعشرين نارا [بيتا]..."⁽⁴⁾.

¹ - Gorrée, *op-cit*, P 50

² - *Ibid* P 50

³ - *Ibid* P 51

⁴ - *Ibid*, P 192

وكذلك في مناسبة أخرى: "اخترت هذا المكان المنسي واستقررت داعيا المسيح أن يبارك هذه الإقامة"⁽¹⁾

إن استقرار الأب فوكولد، مسيحي فرنسي، أدخل من طرف مستعمرة عسكرية، لا يمكن أن يكون حدثا نافها في تلك الفترة، وبالتالي لم يكن هذا الاستقرار سهلا كما افترضته كتابات من النوع السابق. وفي إطار الأهداف العسكرية والاستعمارية المعلنة والمشار إليها سابقا، فإن مشروع استقرار الأب فوكولد بأهقار لا يمكن أن يظهر سوى كهدف ثانوي رغم كونه مشروعا حقيقيا مساندا من طرف لابرين وضباطه أمثال دينو.

هذا الأخير الذي فرض على موسى قبول الراهب تحدث عن هذه النقطة من اللقاء في سجله المؤرخ في 26 جوان 1905 قائلا: "المساء على الساعة الرابعة مساء ظهر في نفس الوقت أمام المخيم وفد موسى من الشمال ووفد سيدي أق كرادجي من الجنوب... كانت المناقشة الصفصائية حول: السلم، إلغاء الغزوات، حسن الجوار، إستقلال تايقوق مع سيدي، طريقتنا في الحكم، توغلنا البطيء والتدريجي، ثم انحرفت المحادثات نحو الدين، فتحدث الزعماء: سننفذ كل شيء لكن بشرط أن لا نغير ديننا... ثم قام الأب فوكولد بمديح لمبدئييه الأساسيين: ساعدوا بعضكم البعض، عاملوا الشر بالخير، استجاب موسى: هذا موجود في ديننا أيضا"⁽²⁾

¹ - Cassajus (D), « La vie Sahariennnnne et Les « vies » du père de faucould », *Lettre au marabout*, Belin , Paris, 1999 P 64

² - Cit in Pandolfi, *op cit* P 54

إذا أخذنا على شهادة دينو هذه المباشرة، فإنه لم يتم التطرق إلى مشكل فوكولد في أي وقت، لقد كان حاضرا لكن كما يبدو أن مشروع استقراره بأهقار لم يتم التطرق إليه في هذا اليوم، لأن هناك الكثير من المشاكل المهمة والمستعجلة التي لا بد من مناقشتها وتسويتها. وأنه أخيرا فقط لأن "المحادثات إنحرفت نحو الدين" تم التطرق إلى حضور (وليس مشروع) الأب فوكولد من طرف العسكريين الإستعماريين.

من جهة أخرى يبدو شعار أو مديح فوكولد غير مدهش ولا مجد، فلا حاجة إليه، موسى بإجابته أو استجابته حسب تعبير دينو يشير جيدا الى أنه مترسخ في دينه الخاص ويعرف جيدا مبادئه، ومنه نستنتج أهمية الجانب الديني الذي يبقى النقطة الوحيدة غير القابلة للنقاش لدى كيل أهقار فهم لا يشتكون من فراغ روعي ولا يبحثون أصلا عن دين آخر.

في 15 جويلية بعد 20 يوما من المعاشرة بين دينو، فوكولد، وكيل أهقار. طلب موسى من الضابط رخصة مغادرة المستعمرة نحو مخيمه على أن يلتحق به في أبلسه بعد ثلاثة أسابيع.

وفي هذا التاريخ تحدث دينو بإسهاب في سجله حول استقرار فوكولد، الذي نجده في هذه الفقرة: "بطلب من فوكولد، طلبت من موسى كيف يقبل كيل أهقار الأب في أوطانهم وفيما أن لم ينتج عن ذلك متاعب، لقد شرحت له أن الأب سيعالج المرضى، ويفلح الخضر والنباتات الشجرية، وسيدرس العادات، وحاجيات الناس وسيمدنا في نفس الوقت بالمعلومات الهامة على ما يمكن فعله من الخير في البلد. أضفت أن الأب فوكولد بالنسبة لنا بمثابة (باي) بالنسبة لهم، ولو حدث له أقل سوء، فإن ذلك سوف يؤدي إلى مصاعب كبيرة. موسى يجيب بصراحة واضحة في قبول هذا المشروع وأنه

في السنة الفارطة وبخ سوعي لأنه نصح الكولونيل [البرين] بالانتظار أكثر لهذا المشروع، لقد فهم ما نريد، وسيفرضه على أهله كما يقول⁽¹⁾

في هذا التاريخ مازال الاستقرار المحتمل للأب بعيدا عن التحقيق، نسجل أيضا أنه حسب هذه الملاحظات، فإن العسكريين الفرنسيين هم الذين تحدثوا حول هذه النقطة مع موسى. فالضابط المسؤول عن هذه الدورية هو الذي و"بطلب من فوكولد" كان قلقا على ما يمكن أن ينتج من سوء في استقرار هذا الأخير بأهقار أما بالنسبة للجانب "الديني" فقد تم التطرق إليه في إطار مرجعي معروف لدى كيل أهقار، لقد قورن فوكولد بوضوح مع (باي الكونتي) رجل الدين الإسلامي المشهور، زعيم موسى الروحي والذي لعب دورا هاما في خضوعه. لكن نظرا لعدم وجود أي نقطة شبه بين الرجلين ولا يمكن أبدا أن يعتبره كيل أهقار شريفا مسالما مثل باي، فقد مر الضابط الإستعماري إلى لغة التهديد والإرهاب المباشر، وهي مفهومة جيدا لدى محدثيه، فإذا كان فوكولد يحتل مكانة مثل هذه، فإن هذا يعني أن "أقل سوء.. سوف يؤدي إلى مصاعب كبيرة"، لذلك كانت إجابة موسى أيضا ذات معنى، لأنه لا يريد مشاكل أكثر ولا سبيل لمقاومة هذه الإرادة المفروضة بتلك القوة الرهيبة، خاصة وأن المستعمر يتحدث في جملته الأخيرة مستعملا الضمير المتكلم الجمعي وهو ما يوحي بأن مشروع فوكولد هو أيضا مشروع العسكريين الفرنسيين كيف لا وهو الذي سيمدهم "بالمعلومات الهامة على ما يمكن فعله".

في 13 أوت التقى موسى بدينو من جديد في تمراسات وانتهى لاختيارعليها كمكان للإقامة كما جاء في سجل ملاحظات الضابط السابق

¹ - Cité in Pandolfi, op cit P 55

المؤرخة بنفس اليوم: "تلقى موسى بسرور إختيار الأب لتمنراست كمكان للإقامة، لقد ردد عدة مرات أننا في بلدنا و مرحبا بالأب"

يعود الإختيار إلى بداية شهر أوت، هناك كتابتان لفوكولد حول هذه النقطة إحداهما الفقرة المشار إليها سابقا المؤرخة في 11 أوت 1905 يوم وصوله إلى تمنراست، الثانية رسالة إلى Bondy مؤرخة في 6 أوت 1905 جاء فيها: "أريد أن أستقر لبعض الشهور أو أكثر في هذه المنطقة في قرية تمنراست... لقد حاولت الاستقرار منذ الصيف السابق دون أن انجح، يبدو أنني سأتمكن من ذلك هذا العام... سأستقر إذن هنا على الأقل في الصيف، الشتاء، الربيع، ربما أكثر، سأستقر دون إنجاز المشروع"⁽¹⁾.

يبدو هذا الاختيار على أنه قرار من فوكولد ، لكن الأرجح أن موسى قد وجهه في ذلك، لأنه لا فوكولد ولا دينو يعرف تمنراست، بما أن الاختيار تم حتى قبل أن تبلغ المستعمرة تمنراست، وهذا ما رجع إليه نفس الضابط وهو في رتبة جنرال في نص منشور سنة 1946: "بعد عدة محادثات، إختبرنا الجانب التطبيقي للمسألة، توقف مكان إقامة الأب فوكولد على تمنراست، انها نقطة نشاط (داق غالي) التابعة، الأكثر عددا، والأشد وفاء لموسى، هناك مركز فلاحى، ومخيم صغير للحراطين الآتين من تيديكلت، تزوره القوافل دائما، أخيرا المناخ كان معتدل الحرارة. أمام قبول موسى ووعوده الإحتفائية لاستجابته حول أمن الأب على عاتقه، فقد أخذ هذا الأخير بصفة قطعية قرار الاستقرار النهائي بتمنراست، أثناء عودتنا من أدرار-ن-فوغاس وبقلب كبير قبلت له وأعطيته الرخصة"⁽²⁾

¹-Cité , Pandolfi, op cit P 58

² -Ibid P 58

من خلال الجمل الأولى يشير كل شيء إلى أن صفة الجمع لا تشمل فقط فوكولد ودينو لكن أيضا موسى والنبلاء والأعيان الآخرين من كيل أهقار الحاضرين آنذاك، رغم أن القرار الأخير يعود إلى الأب فوكولد فإنه قد أسس ذلك على المعلومات المعطاة من طرف السكان وعلى رأسهم موسى الذي أقنع الجميع بهذا الاقتراح خاصة قبيلة داق غالي التي سيقم هذا الراهب في قلب أراضيها.

بعد أن سوي كل شيء انشغل الأب مباشرة في إيجاد قطعة أرض ليبنى عليها معبده كما فعل ببني عباس واستقر رأيهم على الحافة اليسرى من الواد فوضع أول حجر لمعبده في 19 أوت 1905 كما جاء في سجلاته: "بداية بناء المعبد، سيكون لي منزلا من الحجارة يستعمل ككنيسة وموهف وكوخا من الديس يستعمل كغرفة نوم..."⁽¹⁾ ويتأكد هذا التاريخ من طرف ملاحظات دينو المؤرخة بنفس اليوم: "بدأ الأب فوكولد أساس معبده على الحافة اليسرى لواد تمرناست على بعد 300 أو 400 متر من الزرائب. هناك بئر على الحافة الأخرى ستمكنه من فلاحة حقل صغير... لقد عمل موسى بكثير من الإرادة لجمع العمال"⁽²⁾. هكذا تمكنت دورية دينو من زرع فوكولد في قلب أهقار وغادرته يوم 04 سبتمبر 1905. ليبقى وحيدا بعد أن ضمن حماية أمنوكال المعين، فاستمر في حياته ومهمته.

أسباب الإستقرار:

إذن يمكن إعتبار يوم 13 أوت 1905 كتاريخ لاستقرار فوكولد بتمرناست التي لم يغادرها سوى ثلاث مرات منذ ذلك التاريخ إلى فرنسا⁽³⁾

¹ -Gorreé , op cit , P 195

² -Pandolfi, op cit P 60

³ -Cassajus (D), Op-cit, P 60

- الأولى من 25 ديسمبر 1808 الى جوان 1909

- الثانية من 02 جانفي 1911 إلى 03 ماي 1911

- الثالثة من 28 أفريل 1913 إلى 22 نوفمبر 1913

لكن ثمة سؤال يطرح نفسه: ما الذي سمح بهذا الاستقرار الذي رفض سنة 1904 يقبل عام فقط فيما بعد؟ رغم ان المعني يحمل دائما نفس العيوب: مسيحي وفرنسي.

يبدو لنا أن الأخذ في الاعتبار المستجدات السياسية الجديدة يمكن أن تأتي ببعض عناصر الإجابة. فمالذي حدث؟ لقد حدث استقرار فوكولد في نفس الوقت الذي تأكد فيه حقيقة خضوع كيل أهقار للسلطات الفرنسية.

بمعنى أن هذا الاستقرار كان نقطة ثانوية مقارنة مع النقاط السياسية، والواقع أن هذا ما أهمله معظم البيوغرافيين المختصين في سيرة فوكولد أي عدم الأخذ بالوضعية السياسية للصحراء الوسطى التي تتماشى مع تنامي قيمة الدور الذي لعب حينها من طرف أصحاب القرار موسى ولابرين⁽¹⁾ وإذا لم يتعلق الأمر بجهل نفوذ هؤلاء مرة أخرى فلا بد من إعادة وضع الحدث في هذا المحتوى السياسي الذي يبرره. يجب إذن تقديم الوضعية السياسية السائدة آنذاك في أهقار.

في جانفي 1904 وأثناء لقائه مع متو Metoi بعين صالح أمضى موسى الاتفاق وقبل أن يعين ك أمنوكال من طرف السلطات الفرنسية، لكن نظرا للغموض الذي ساد هذا الإتفاق ألحّ لابرين على إعادة الإتفاق في شكل آخر "خضوع" وليس "ولاء" وهو الهدف الذي جاءت دورية دينو لتحقيقه،

¹-Pandolfi , op cit , P 64

لذلك كانت هذه الدورية أبعد ما تكون عن النموذج المثالي للدوريات "التآلفية" التي تمت بالصحراء من طرف الضباط الفرنسيين.

يتعلق الأمر قبل كل شيء بفرض الخضوع والإكثار من الإشارات الملموسة لهذه الوضعية السياسية للسلطات الفرنسية والرجوع إلى كل النقاط التي تم تصورها، من بينها يظهر الطلب المصاغ من طرف دينو لإستقرار فوكولد بالهقار. حينها نستطيع ان نتساءل عن هذه "الإرادة الحسنة" لموسى الموضوعة دائما في الأمام من طرف المعلقين⁽¹⁾؟ وكيف ظهر زعيم كيل أهقار محتاجا إلى إقناع أهله لقبول هذا الإجراء بل وفرضه ان لزم الأمر؟ في وضعية كهذه تبدو الملاحظة الغزلية لـ J-F.Six أن فوكولد جاء "منزوع السلاح" بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

وبالعكس، فالعسكر الاستعماري الفرنسي، نتيجة انهزام "تيت" هم الذين شرحوا بصرامة لكيل أهقار أنهم شأن سياسي خاضع لفرنسا، وبهم أيضا تم إدخال واستقرار فوكولد بأهقار. الموافقة المحصل عليها حينها ليست سوى تثبيت لوضعية الأحداث: عسكريا إنهزام، وسياسيا خضوع. فماذا يمكن لموسى وذويه أن يفعلوه؟

في الحقيقة لم ينخدع فوكولد، كان يعلم جيدا أن استقراره لن يكون الا بالإكراه، في مراسلة مؤرخة بـ 3 جويلية 1904 كتب: "الأندجان يستقبلوننا جيدا: ليس ذلك مؤكدا. إنهم يخضعون للضرورة والأمر الواقع. كم من الوقت يلزمهم كي يشعروا أنهم يشتبهون؟ ربما لن يكفيهم الوقت أبدا. وإذا كفاهم يوما فهو اليوم الذي سيصبحون فيه مسيحيين. هل سيتمكنون من التمييز بين الجنود والرهبان، ويرون فينا خادمي الرب، سفراء السلم

¹ - Pandolfi, op cit , P 65

والصداقة والأخوة الشاملة؟ لا أعرف⁽¹⁾. أمام تساؤل كهذا فإن الطريقة المعاكسة التي يراد دائما أن تغلق فيها شخصية فوكولد من طرف كتاب سيرته على أنه جاء وحيدا، منزوع السلاح، راهب يحب الوحدة... تبدو مختزلة وخاطئة.

إن عزل فوكولد عن كل علاقة مع تقدم الاستعمار في الصحراء، وبين المستعمر والمستعمر هي رؤية سطحية مبسطة.

إن إعادة وضع استقرار فوكولد في محتواه الواقعي الذي هو علاقة القوة القائمة بين السلطات الإستعمارية الفرنسية وكيل أهقار، ليست سوى الاعتراف بحدث تاريخي يصعب نفيه.

كيف يرى التوارق:

إذا كان استقراره قد تم بهذه الطريقة وهذا الإصرار فما هدفه وما غرض من كان وراءه؟ وإلى أي مدى يمكن تحقيقه؟
إن العودة إلى مسيرة فوكولد من خلال أعماله ومراسلاته في تلك الفترة كفيلة بأن توضح لنا ذلك.

مباشرة بعد مغادرة كتيبة دينو تمنراست، كتب فوكولد إلى قريبته بوندي Bondy، يعبر لها عن سعادته ومشاريعه وأعماله المستقبلية: "أنا مرتاح جدا لاستقراري في هذا البلد وفي هذه النقطة بالذات، فيها القليل من السكان المستقرين، حوالي عشرون فقيرا يتوزعون على مساحة 3 كلم، لكن هناك الكثير من الرحل في الضواحي... لقد إعتاد كلاهما على زيارتي لطلب الدواء، والفقراء لطلب الذرة من وقت لآخر... أنا مشغول بالعمل، أريد أن أنهى في أقرب وقت ممكن قاموس تارقي- فرنسي وفرنسي - تارقي..."

¹ - Pandolfi, op cit, P 66

لكني راهب أيضا، خادم الكنيسة، مبشر لذلك فإني أريد أن أتمكن من العناصر الأساسية لفهم لغة هذا الشعب"⁽¹⁾

كما هو واضح فإن عمله مزدوج يكمل بعضه البعض: لقد اختار في المقام الأول تعلم ودراسة اللغة التارقية التي هي الوسيلة الوحيدة للاتصال مع المجتمع وتحسين العلاقات معه وبالتالي فهي الأداة التي يمكن أن يمرر من خلالها أفكاره ورسالته؛ تحويل السكان إلى مسيحيين والتي ستكون أيضا الأرضية للمبشرين الذين سيأتون بعده، كما لم يخف في قوله: "سأعمل لتمهيد الطريق للآخرين وأصلي للرب كي يبعثهم"⁽²⁾ والواقع أن أول عمل قام به هو ترجمة الإنجيل إلى التارقية قبل حتى أن يستقر فقد كتب إلى قريبته السابقة في 06 سبتمبر 1904: "لقد أنهيت ترجمة الإنجيل إلى اللغة التارقية: التوارق لهم لغة وكتابة خاصة بهم، لكن ليس لديهم كتب، لا يوجد أي كتاب في هذه اللغة، إنه لشرف عظيم لي أن يكون كتابهم الأول هو الإنجيل المقدس"⁽³⁾.

يوازي عمله الفكري هذا أفعال ومبادرات رمزية، الصدقة العلاج المجاني... وهذا - كما يقول - لجلب ثقتهم واستدراجهم: "يجب الفوز بثقتهم وجعلهم أصدقاء، ومساعدتهم، إعطاء النصائح الجيدة، الإرتباط بهم، حثهم سريالاتباع الدين الطبيعي، والبرهنة لهم على أن المسيحيين يحبونهم..."⁽⁴⁾

أكثر من ذلك حاول أن يتبع سلوكا مصطنعا صارما كي يجعل السكان يعجبون بشخصيته ويعتبرونه نموذجا يقتدى به وبدينه بالضرورة، كتب في

1 - in Gorré, *op cit* , P 196

2 - *Ibid* , P196

3 - Cassajus, *op cit* P 57

4 - Gorré, *op cit* , P 200

سجله: "إن دعوتي يجب أن تكون طيبة، حين رؤيتي سيقال: إذا كان هذا الرجل رائعا، فإن دينه أروع، إذا طلب مني لماذا أنا طيب فعلي أن أقول: لأنني خادم لطيب أحسن مني، لو عرفتم كم هو رائع سيدي المسيح!... أريد أن أكون رائعا جدا لكي يقال: إذا كان هذا هو الخادم فكيف سيكون السيد"(1)

لست أدري إلى أي مدى يقدر ذكاء السكان حتى يتصور أنهم سيتصرفون على هذا السناريو الهزلي، لكن الشيء المؤكد أنه يعتبرهم كغيره من المستعمرين الذين يتعرفون اليهم بسلسلة من الألقاب؛ أندجان، همج، متخلفون، متوحشون، بدائيون.. وأبعد من ذلك يصنفهم في مرتبة أدنى: القطيع. كما جاء في رسالة إلى قريبته: "صلي كثيرا لهذا القطيع Troupeau في الصحراء والمغرب والذي يريد المسيح أن أعني به في انتظار رعاة أحسن!"(2)

لقد عمل جادا في سنواته الأولى على أن يحول كيل أهقار إلى مسيحيين لأنه كان يعتقد وهو يحمل الأحكام السابقة أنه يمكن تغيير قناعات الناس بسهولة، لكنه في الأخير وابتداء من سنة 1908 أدرك أن ذلك ليس هينا، ومع ذلك لم يفقد الأمل فقد إقتنع على عدم جدوى عمله في ذلك الوقت على الأقل، في 15 مارس 1908 يكتب: "إن ما أقوم به لدى التوارق قليل جدا، لا يجب البحث عن تحويلهم الآن لكن لابد من التحضير للمستقبل..."(3)

1 - Cassajus , op cit, P 95

2 - Gorreé , op cit , P 200

3 - Ibid , P 216

وفي المستقبل يرى طريقة أخرى، غير مباشرة على عكس ما كان يحاول فعله سابقا، وهذا بفضل زيادة معرفته للسكان وعقلياتهم وقناعاتهم مع مرور الوقت. فبدل أن يكون التحويل هو الهدف المباشر، يرى أنه لن يكون سوى نتيجة لسياسة أخرى مستمدة من السياسة الاستعمارية الفرنسية العامة: الإدماج ثم التنصير عبر الأجيال وهذا ما يمكن أن نستنتجه من هذه الأسطر التي كتبها: "يجب تغطية البلاد برجال الدين ونسائه وأفضل المسيحيين، لكي يقوموا بالاتصال مع هؤلاء المسلمين المساكين لتقريبهم شيئا فشيئا، لتكوينهم، وتحضيرهم وأخيرا عندما يكونون رجالا سيصبحون مسيحيين؛ مع المسلمين لا يمكن أن نكون مسيحيين أولا ثم نحضرهم بعد ذلك، الطريقة الوحيدة الممكنة هي الأخرى الأكثر بظنا: التكوين والتحضر أولا ثم التحويل بعد ذلك. لكن لابد من مجهودات لذلك، بقدر ما يمكننا أن نصبر خلال قرون حتى نهاية العالم"⁽¹⁾

وهي نفس الأفكار التي أوردتها في رسالة أخرى إلى زميله السابق في الجيش Duc de Fitz James عندما يقول: "سكان إمبراطوريتنا الإفريقية متنوعون جدا من بينهم البربر... الكل يمكن أن يتطور... هذا يتطلب إدارة جيدة، تهدف بصفة مستمرة إلى تحضير الأندجان وترقيتهم إلى مستوانا أولا... ثم الشيء الثاني هو تنصير مستعمراتنا، إنه لواجب مقدس على المسيحيين الفرنسيين"⁽²⁾

ويقترح حولا تطبيقية تتمثل في التوغل داخل العائلات وتغيير أفكارها والتركيز على الأطفال الصغار وتشجيع التمدن الذي هو الوسيلة الفعالة لتمير الأفكار والإيديولوجيات، كتب فوكولد يقول في ذلك: "العمل الذي يجب

¹ -Gorreé, *op cit*, P 217

² -Pottier (R), *op cit* P 119

فعله هنا.. هو إذن عمل تربوي، ترفيتهم معنويا وثقافيا بكل الوسائل، التقرب إليهم والاتصال بهم، تغيير أفكارهم، إسقاط وقايتهم ضدنا عن طريق العلاقات اليومية، القيام أخيرا بتربية شاملة لتلك النفوس، تدريسهم في المتوسطة والإبتدائية مثلما يدرس في مدارسنا، تعليمهم عن طريق الاتصال اليومي الوثيق مثل ما يتعلم في عائلاتنا والعمل على أنها كعائلاتنا"⁽¹⁾

هذه على الأقل الأفكار المعلنة والمنشورة عن آراء الراهب فوكولد وتصوراته حول هذا "القطيع" الذي يراه ميدانا للتنصير والسياسات الاستعمارية المختلفة. لكن هل نجح في عمله هذا؟ بكل هذه المجهودات الجبارة، وهل استطاعت فلسفة هذا الشعب الصغير "المتخلف" مقاومة هذه "الحضارة العظيمة؟

كيف يراه التوارق:

إذا كان فوكولد أو "أكلي-ن-غيسي"⁽²⁾ كما يسميه هؤلاء يعمل جادا لإرساء صورة الراهب المسالم الرائع المحب للوحدة، المصدق المحسن في ذهن السكان، فإن لهؤلاء نظرة أخرى. رغم أنه استطاع أن يكون صداقات عديدة وتقرب إلى أهم العائلات كما يصبو إلا أنه لم يستطع أن يحقق هدفه الأساسي: التنصير وإن أفادته تلك العلاقات بجمع المعلومات الإستراتيجية في كل الميادين من الجغرافية إلى السياسية والتي استفاد منها العسكريون الذين استقر بفضلهم في قلب أهقار.

عندما رآه التوارق لأول مرة إذن كان في وسط عسكري، هؤلاء الذين قتلت بنادقهم الرشاشة المئات من ذويهم⁽³⁾، وصادروا العديد من ممتلكاتهم،

¹-Pottier, op cit , P 123

² - "أكلي-ن-غيسي" أو "أبد غيسي" بمعنى "عبد عيسى" كما يكون الراهب قد شرح لهم أنه خادم المسيح

³ - لاسيما في معركة تيت ، و مهمتا Basset و Giallo-Lohan الدمويتان

ونفوا الكثير من أصدقائهم... في وسط دموي وإرهابي جاءوا للقهر والقمع والإكراه فلا غرابة في أن يستنتج السكان كونه عسكريا في زي ديني، ويكون فوكولد قد لاحظ ذلك، فكان أول من طرح التساؤل المشار إليه سابقا: "هل سيتمكنون من التمييز بين الجنود والرهبان؟". سواء ميزوا أم لا فإنه لم يتمكن من تنصير فرد واحد منهم حتى أن Paul Morabout الذي اشتراه صغيرا، ورباه على التعاليم المسيحية ارتد عليه ودخل الإسلام عندما كبر في 17 ماي (1) 1906. وبقي يقوم بقداسه وحيدا إلى النهاية.

لقد ذكر فوكولد نفسه في نص طويل حول نظرة كيل أهقار على الفرنسيين بصفة خاصة والأوروبيين بصفة عامة: "إن كيل أهقار يرون فرنسا كبلد صغير جدا، جزيرة لا يتعدى قطرها 100 كلم، يسكنها شعب قليل العدد وثنيين وهمجيين، يحبون التنقلات ولم يسبق ان استقروا في مكان ما، يغزون بلدان الآخرين، وينكدون بالشعوب المتحضرة مثل التوارق.

يعتقد كيل أهقار أنهم الأمة الأكثر تحضرا في العالم، الأكثر طيبة وعدلا والأكثر قوة في نفس الوقت. يعتبرونهم [المسيحيين] كمتوحشين، وثنيين ولم يسموهم سوى "إكوفار" *، لم يفرقوا بين الأوروبيين والمتوحشين الكانبال في إفريقيا الوسطى، ويسألون الفرنسيين دائما إن كان صحيحا أن لهم في الجنوب إخوة يأكلون لحم البشر. الأوروبيون كما يقولون كلهم محكومون بملكات ويتزوجون بأخواتهم..." (2)

¹ - Gorée , op cit , P 202

* كلمة إكوفار جمع أكافر أو الكافر كانت تطلق على الفرنسيين بصفة خاصة ثم توسع مفهومها ليشمل كل الأوروبيون ، و مازال يستعمل هذا المفهوم إلى اليوم

² - Cassajus, op cit, P 74

تكنن المفارقة في هذا النص على أن كيل أهقار يحملون تجاه الأوربيين تقريبا نفس النظرة التي يحملها هؤلاء عليهم، ويرون أنفسهم مثلما يرى الأوربيون أنفسهم: ذاك هو منطق صراع الحضارات، فلمن الصواب؟ لكن الوحشية التي شهد بها التوارق "إكوفار" جعلتهم مذهولين إلى درجة أن اعتبروهم من أكلة لحوم البشر.

وعلى كل حال، إذا كانت لعنة التاريخ قد أثبتت للتوارق أنهم ليسوا أقوياء، فإنهم بقوا يسمون الأوربيين دائما بـ "إكوفار" مثلما بقي هؤلاء يسمونهم بدائيين متخلفين اندجان...

أما بالنسبة لرجال الدين المسيحيين "المسافتن" مثل فوكولد فهم "إكوفار" من بين الكفار، "حاملي النحس".

إلا أن هذا المفهوم "أكافر" حاليا لا يحمل تعصبا أو عدوانا تجاه من نعت به، ولم يحرم التعامل معه، فهو إشارة إلى غير المسلم الأروبي. لكن يجب أن نكون حذرين إزاء الآراء التي جمعها الفرنسيون أو أعوانهم لأن المستجوبين كما هو محتمل سوف لن يقولوا سوى ما ينتظر منهم.

لنأخذ مثلا شهادة داسين ولت أهما سنة 1933 أمام النقيب Lucchetti رئيس ملحق أهقار: "كان يحب التوارق، لن تختفي ذكرى (المرابو) حتى آخر حياتنا، إنه فاعل خير لشعبنا، وسوف يصعد حتما مباشرة إلى السماء منذ أن استدعاه ربه"⁽¹⁾. طبعا هناك اعتبار للمرابو من طرف داسين كما يبدو، لكنها استدعيت إلى مكتب النقيب فما عساها أن تقول سوى ما يراد منها خاصة إذا تمعنا في الجملة الأخيرة. وهناك الكثير من الشهادات التي تسمح

¹- Cassajus, op cit , P 77

بإعادة بناء صورة الأب فوكولد، والبعيدة عن الأيقونة؛ أن معظم التوارق جعلوا من فوكولد: رجلا اختار الحرمان، مهتم بالتفاصيل، ويقوم بجهد لتعلم لغتهم ويعرفون أن العسكريين يتمسكون به، ولا يمكن أن نغفل أيضا دور ذلك في تكوين الصورة السابقة: يعرفون أنه محمي من طرف جيش الاحتلال، ومواطن من أمة كافرة.

ولعل الشهادة الأهم الأكثر تعبيرا هي التي سجلها لابرين: "امرأة نبيلة من أهقار صرحت باعتراف عميق للأب فوكولد منذ أن أنقذ أطفالها الخمس من المجاعة سنة 1907، قالت لي يوما: "كم هو محزن عندما تتذكر أن رجلا رائعا مثل هذا سيذهب إلى الجحيم بعد موته لأنه لم يكن مسلما" وتصرح لي أنها والكثير من أصحابها يدعون الله كل يوم لكي يتحول المرابو الى مسلم"⁽¹⁾

إن هذا الشعور المزدوج يحمل الانطباع الحقيقي نحو شخصية "أكافر" الذي عمل كثيرا في أوقات الجذب والمجاعات على توزيع المؤونة وعلاج المرضى أوقات انتشار الأوبئة... في مهمته التأليفية قبلت خيالاته المادية لأن السكان على أفقرما يكون، بينما رفضت حملته المعنوية، الدينية والروحية لأنهم متشبعون أصلا بعقيدتهم وفلسفتها التي تغنيهم عن أي دين آخر. وأمام هذا ليس في وسعهم سوى أن يتأسفوا له لأنهم لا يؤمنون بعقيدته، مثلما لا يؤمن هو بعقيدتهم. "مسلمي الصحراء الفقراء" هؤلاء الذين لم يتوقف عن الصلاة لتحويلهم إلى المسيحية يتألمون على أن موعده الهلاك والنار ويدعون الله أن يهديه.

¹ - Ibid , P 78

مهمته أثناء الحرب العالمية الأولى:

ليس من الجدوى الإلحاح على المكانة التي احتلها العسكريون الفرنسيون في أهقار وفي حياة الأب فوكولد خاصة، إذ تظهر سجلاته ومذكراته أنه كان على علاقة دائمة مع الضباط المكلفين باحتلال المنطقة وإرساء النظام الاستعماري⁽¹⁾ وعلى رأسهم لابرين، ديكلو، De la Roche، Meynier، Payen، Nieger... من جهة أخرى ربط علاقات جيدة مع أهم مصادر المعلومات في جميع الميادين مع السكان المحليين ابتداء من موسى زعيم كيل غلا واكسم زعيم داق غالي إلى أبسط أعضاء المجتمع، أو حتى من القوافل المارة والأجانب العابرين للهقار. إلا أن أهم مصدر حسب سجلاته هو: باخمو أو باخمو الذي يشتغل في نفس الوقت سكرتيرا لموسى، استفاد منه كثيرا كما يقول في دراسته اللغوية⁽²⁾... منذ أن بنى كوخه بأسكرم سنة 1910. كان يعطيه المئات من الفرنكات شهريا وهي ثروة طائلة آنذاك، تدل على قيمة الشيء المتحصل عليه، وحجمه أيضا. كان يعمل معه كل يوم ما عدا الأحد من الخامسة صباحا إلى الثانية عشر، ومن الثالثة مساء إلى السابعة⁽³⁾.

وإذا كان يصرح بأن عمله ينحصر في المجال اللغوي إلا أنه لم يقل كلمة واحدة عنه ابتداء من نهاية سنة 1914⁽⁴⁾. إنها بداية الحرب العالمية أيضا. لقد اهتم بالمسؤوليات السياسية والعسكرية إلى درجة لعبه في النهاية الدور الذي وجهه إليه لابرين، لقد كان ذلك واضحا في رسائله وكتاباته الموافقة لتلك الفترة، وكذلك في تصرفاته اليومية.

¹ -Valerie (c) , " les Militaires", *Lettres au Marabout* , Belin , Paris 1999.P41

² - Gonneé, *op cit* P 216

³ - *Ibid* , P 218

⁴ - Cassajus, *Op-cit* ,P 69

وصل خبر اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى أهقار في 03 سبتمبر 1914، أربعة أيام بعده تصل كتيبة من برج مونتلسكي إلى تمرناست في طريقها إلى أدرار فأوكلت للاب فوكولد 1500 ذخيرة لطلقات بندقية 1874 ليسلمها إلى موسى أق أمستان في الضرورة القصوة⁽¹⁾ وهي أول مساهمة فعلية مباشرة يقوم بها "الراهب"، رغم أن وساطته بين ممثل السلطة التقليدية والإدارة الفرنسية لم تكن جديدة الا أنها كانت بصفة غير مباشرة وتتنحصر في الميدانين السياسي والإعلامي. هكذا بدأ يتحول عمله شيئاً فشيئاً من "الديني" إلى "العسكري" فقد أصبح يرى لنفسه مهمة جديدة، إذ كتب إلى N.De Blic قائلاً: "لن أغادر تمرناست: مكاني هنا، المساعدة في تهدئة النفوس، التوارق يجهلون كل شيء عن ألمانيا، حتى إسمها، يجهلون كل شؤوننا الأوروبية، سيقون حتماً في هدوئهم الإعتيادي، فهم منشغولون فقط بحاجاتهم المادية دون أن يشكوا في الزوبعة التي تعصف عندنا. إلا إذا كانت هناك تحريضات من الجزائر، من السودان أو من طرابلس الغرب..."⁽²⁾. ولإرساء هدوء أكثر حرص على أن يبقى على حياته العادية دون تغير ظاهر كما يعتقد: "لأنه لا يجب أن يشعر الأندجان بشيء يظهر الإنفعال، أو حالة مختلفة عن الإعتيادية"⁽³⁾.

كان إستثناءه المشار إليه في محله، إذ أنه لم يمر وقت طويل حتى دبت اضطرابات في طرابلس الغرب، وقام بتحليل إستراتيجي جيد للوضعية هناك، وعن الأخطاء التي ارتكبها الإيطاليون في زحفهم ثم انسحابهم الجزئي ونتائجه على الحدود في هذا النص: "الإيطاليون يتقدمون بسرعة كبيرة،

¹ - Gorreé, *Op-cit* , P 287

² - *Ibid* ,P 287

³ - Gorreé, *op cit* P 288

دون التثبيت والتنظيم الجيد في جنوب طرابلس أثناء ربيع وصيف سنة 1914. لقد أعادوا إلى إيطاليا جزءا كبيرا من الفرق التي كانت لديهم في طرابلس. ومن هاتين الهفوتين نتج تمرد في الجنوب الطرابلسي على القرب من حدودنا، حوالي عشرة أيام سيرا من هنا. لا يوجد شيء نخشاه من وصول التمرد إلى مستعمرينا، لكن يمكن أن نخشى اجتياز العصابات المتمردة الطرابلسية للحدود، لقد دعمنا مؤخرا مراكزنا الحدودية، أتمنى أن يقاوموا في حالة ما إذا هجموا إذا كانت قيادتهم جيدة فليس هناك ما يخشونه⁽¹⁾

ومن خلال هذا النص يبدو أن الراهب متمكن في نقطتين

1- توفير المعلومات في المنطقة

2- خبير في التكتيك العسكري و إستراتيجيته.

في 16 أبريل 1915 يكتب إلى ديكلو Duclos النقيب الشاب يحثه على مراقبة زعماء التوارق بأزجر وأهقار: "علمت عن طريق الرائد Meynier قبل عشرة أيام عن تعيينكم في تيديكلت... من النافع جدا ما دامت الحرب الأوربية مستمرة أن نضع الزعماء نصب أعيننا لكي نتأكد من عدم تغيير أي شيء... سيكون من المستحسن أن تزور أزجر، أهقار ثم أدرار [أضاغ] الجزائري"⁽²⁾

كما جند نفسه في حملة إعلامية تهدف إلى تقنيم وحتى تشويه الحقائق وتقديمها في صورة مبسطة لا تبعث على القلق كما يظهر في هذا النص "أهقار في هدوء تام: لقد قدمت الحرب على أنها شيء غير مهم: شعبان كبيران أرادا أكل شعبين صغيرين، أربعة شعوب في المواجهة: فرنسا وإنجلترا

¹ - Ibid, P 290

² - Gorreé, op cit, P 292

مقابل روسيا واليابان، الحرب ليست سوى في أولها لأن الشتاء القاسي الطويل لبلداننا قد وضع عائقا للعمليات وأنه من جهة أخرى تحكمتنا في البحر قد وضع في صالحنا إمكانية التمديد لكي نجوع أعدائنا. لم اقل كلمة واحدة عن تركيا التي دخلت الميدان بعد فوات الأوان كما أنه وفي درس للجغرافيا أثناء بداية الحرب، صنفنا تركيا ضمن الدول الصغرى، غير المهمة واللامعنى لها مع صربيا، بلغاريا، بلجيكا... إلخ⁽¹⁾.

والواقع انه وجد نفسه مجبرا على ذلك جراء الأخبار التي تصل أهقار من حين لآخر، وإزاء الأسئلة التي تطرح عليه ايضا حول تلك الحرب وكان يجيب بنفس الأسلوب: "... لا نتحدث عن الحرب هنا، في كل بريد يطلب مني الشخصيات الثلاث المهمة في البلاد فيما إذا كانت هناك أخبار مهمة: أجيبهم: لاشيء جديد، كل شيء على ما يرام. أما إذا كانت أخبارا سارة فإني أخبرهم عنها ، لقد قلت لهم: "سيستتب السلم في الشتاء، لأننا لا نريد الانتصار فقط على هذين البلدين الكبيرين وإنما تفكيكهم لكي لا تشكل أي إزعاج مستقبلا"⁽²⁾

لم يكتف الراهب في تقديم المعلومات والتحليل فقط بل انتقل إلى العمل لتنفيذ ما كان يراه مناسبا من حلول، فقد وضع عينا حذرة على تحركات موسى وكل من له علاقة به، فرنسيين كانوا أو توارق ولم يتأخر في إيصاله إلى النقيب حيث نجد من بين أهم ما تلقاه منه ما يلي: "في حدود نهاية مارس 1915 كان موسى يقيم بـ Arli ويحيط به كل كيل أهقار، بادرار: كيل غلا، إبطانت، أرجناتن بخيمهم وقطعانهم. في حدود 28 مارس 1915

¹ - Ibid, P 292

² - Gorreé, op cit, P 293

وصلت دورية يقودها Girod بـ 90 بندقية إلى مخيمات موسى بعد مهمة طويلة في تانوت 400 كلم شمال غرب Aril⁽¹⁾

كما تحدث له أيضا على أمن الطرقات التي لم يعد الفرنسيون يتحكمون فيها حسب قوله: "كما ترى فالأشياء تغيرت كثيرا منذ ذهابكم، لا طريق أولف إلى أدرار ولا طريق أهقار أدرار أوهانت عادت مؤمنة... بالنسبة لأدرار فقد كان عابدين يمازح أسراه انه "لم يعد هناك شيء للعيش في أدرار، سوف نغزو أهقار مجبرين" تحول هذا المزاح إلى حقيقة، فقد كان الغزو الأخير على بعد ثلاثة أيام من سيلت⁽²⁾.

والى جانب ذلك لم يفته الإعلام عن الغزوات الأخرى عبر كامل الصحراء و منها:

- هجومات بن الصقر في الحدود الطرابلسية التونسية بصحبة ضابط ألماني كما يقول، والذين هجموا على موقع ان سويغ على كتيبة فرنسية تتكون من حوالي 400 جندي بقيادة النقيب Bermoud مع تنفيذها لعدة كمائن.

- هجوم حوالي 80 إلى 90 مغربيا (من ساحل الرقيبات) على مخيمات موسى في تين غيدن بعد أن مروا على تمساو وتين زواتن حدثت تلك المعركة في 9 جانفي 1916.

- حصار وتحرير برج شارلي بجانت في 24 مارس 1916 بكل التفاصيل والتي سنراها لاحقا.

كما نرى لا يجهل شيئا يحدث سواء في الشمال، الشرق، الغرب، وفي الجنوب. لقد بقي يخبر النقيب بصفة منتظمة على اضطرابات السنوسيين

¹ - Ibid, P 294

² - Ibid, P 296

وبسرعة، في نفس الوقت الذي يعلم فيه صديقه الجنرال لابرين الذي استدعي إلى الجبهة الشمالية، ففي خلال عامين فقط بعث إليه حوالي 41 رسالة عن الأحداث في الصحراء⁽¹⁾

وأمام تقادم الأحداث واتساع رقعتها إقتنع أنه لا يمكن تعميمها ولا تشويهها خاصة وأنها تحمل شعار الجهاد الذي رفعه السنوسيون "ضد الكفار" وتحرير الصحراء من الفرنسيين، فكان صيته ذا مفعول قوي جدا لا يمكن مقاومته إعلاميا في تلك الوضعية.

ما كان عليه سوى أن انتقل إلى تنفيذ أفكاره التي يراها حولا مناسبة؛ إعطاء النصائح التكتيكية للنقيب، بناء الحصن.

لقد كتب إلى هذا الأخير ينصحه قائلا: "كما قلت لك سابقا هناك ثلاثة أشياء تفرض نفسها بصفة مطلقة: فرقة متنقلة دائمة بادرار [أضاغ]، قلعة صغيرة بادرار يمكن أن يحرسها حوالي 15 شخصا تكون مركزا لتموين الفرق المتنقلة، وتكون في نفس الوقت مركزا لقيادة وإدارة توارقنا بادرار. ثم فرقة ثابتة دائمة بأوهانت مع أولف كمركز للتموين"⁽²⁾، وإذا أصر على أدرار أو أضاغ الواقع في الحدود المالية فلائنه يشهد آنذاك تمردا كبيرا من طرف أو لمدن بقيادة فهران، فيخشى أن تتسع رقعة الحرب لتشمل أدرار الواقع في الحدود الجزائرية الذي تسيطر عليه قيادة الواحات الصحراوية.

وفي نصيحة أخرى للضابط المذكور يقول: "...إذا اتبعت نصيحتي، فلا بد أن ننسحب مباشرة في حالة الهجوم. نصحت بالانسحاب مع كل الذخيرة والمؤونة إلى مكان حصين، توجد به مياه الجبال، أين يمكن أن نقاوم بلا نهاية، في مكان لا يمكن أن يضره المدفع. وإذا لم تتبع نصيحتي وهجم

¹ - Gorré, op cit, P 298

² - Gorré, op cit, P 297

علينا... فالعلم للرب بما سيحدث لنا... إنني أرسل يوميا برج موتلنسكي وقائده الملازم Constant سأتي إليه عندما أرى ضرورة إلى ذلك، وإذا هوجم فسألتحق به"⁽¹⁾

الراهب مستعد حتى للقتال كما يبدو من خلال مراسلته هذه إلى قريبته بوندي Bondy ولم يتأخر عن زيارة برج موتلنسكي، فقد عاين رفقة ضابط البرج في 12 أبريل 1916 الأماكن المنيعة التي كان يتحدث عنا، لكي تلجأ إليه حامية البرج في حالة الهجوم. كما لم يبخل عليه بالكثير من النصائح التكتيكية⁽²⁾

عاد فوكولد في 14 أبريل إلى تمرناست وقرر أن يبني برجاً حصينا نقل إليه أمتعة ومؤونة الجنود و ذخيرتهم والكثير من العتاد الذي يعمل به. كان يعتقد أن هذا الحصن هو الضمان الوحيد للنجاة، نظراً لعدم وجود أي فرقة عسكرية بتمرناست، إذ تقع أقرب نقطة عسكرية في برج موتلنسكي المذكور على بعد 50 كلم وهي مسافة يوم كامل من السير. إلا أن ضمانه الحقيقي هو موقف كيل أهقار الإيجابي بالنسبة له، الذي شاد وثنى عليه أكثر من مرة، كما قد يكون له تأثير فعال في إتخاذه فقد راسل النقيب Duclos في 24 جوان 1916 يطمئنه قائلاً: "إن الأمن مستمر هنا، يبقى موقف توارقنا في أهقار رائعاً، لا سقوط جانث من طرف السنوسيين ولا تمرد بعض أولمدن، وتوارق حواف النيجر قد هزهم... ان موقف من حولي وموقف ممثلي موسى في أهقار يبقى ممتازاً وكذلك التابعين لموسى بأضاغ. كان موسى جيداً منذ بداية الحرب... وهناك رجل آخر يشار إليه من ذوي

¹ - Ibid, P 303

² -Cassajus, op cit P71

المواقف الممتازة، إنه أكسم زعيم داق غالي، القبيلة الأهم [عددا] في أهقار⁽¹⁾

ويشيد بنفس المواقف في رسالة إلى قريبته Bondy في 15 أوت 1916: "توارقنا بقوا مستمرين دائما في موقفهم الرائع، أحسن من أي وقت مضى، الزعيم موسى قد برهن على وفائه بكثير من النزاهة والصرامة"⁽²⁾

ورغم ذلك لم يكن هذا موقف كل سكان أهقار، فقد تمرد عدد منهم وعلى الخصوص أتباع "إتسي أق أملال" أمنوكال المخلوع، وجزء من قبيلة تايثوق بالإضافة إلى أفراد آخرين لهم مواقف فردية والتحقوا بحركات التمرد في مختلف الجهات. وهناك أيضا حالات فرار عديدة من فرق الميهاريست الفرنسية، وهذا ما جعل الراهب يتحدث بلغة عسكرية رهيبية وصارمة في مراسلته إلى النقيب Duclos رئيس ملحق تيديكلت مؤرخة في 01 سبتمبر 1916 قائلا: "أتفق معك تماما في كل النقاط: على الضرورة القصوى للقمع الصارم للجرائم المرتكبة في حالات الفرار، التمردات، الانتقال إلى صفوف العدو، على ضرورة نفي غير المرغوب فيهم، جواسيس ومحرضي الإضطرابات، على ضرورة منع كل علاقات أو إتصالات بين سكاننا الخاضعين والعدو غير الخاضع والمتمرد... إلخ"⁽³⁾

وهكذا حدثت إعدامات وإبادات كثيرة أثناء تلك الأحداث، ومع ذلك بقي الراهب حذرا لا تغفل عيناه لحظة عن الحدود الشرقية، ويرجع الأسباب دائما إلى هفوات الإيطاليين: "ما دام الإيطاليون لم يسترجعوا الجنوب الطرابلسي

¹ -Gorreé, op cit, P 304 - 305

² -Ibid, P 306

³ - Gorreé, op cit, P 307

الذي غادره، تبقى حدودنا الطرابلسية مهددة ولا بد من إجراءات صارمة للمراقبة⁽¹⁾

ويتحدث هنا عن النقاط الثلاث التي ينطلق منها المقاومون بأزجر، الذي لم يخضع بعد، وكذلك كاويس أق كدة الذي جمع قوة كبيرة هناك في انتظار التوجه إلى إقدرز بنيجر، وكانت تلك الحركات آنذاك في أوجها، وأجبرت الفرق الفرنسية على الانسحاب، بالمعارك أو بدونها، وهذا ما جعل الراهب يقلق كثيرا عن الوضعية كما تشير إلى ذلك لهجته في هذه المراسلة المؤرخة في 15 سبتمبر 1916: "أخبار الحدود الطرابلسية سيئة للغاية، تراجعت فرقنا دون أن ننهزم أمام السنوسيين، لم تعد هناك مراقبة للحدود، فقد ابتعدت فرقنا عنها، بعد أن إسترجعت جانت غادرتها كما غادرت نقاطا أخرى: إن هذا التراجع أمام حوالي مئة بندقية مثير للشفقة، إذن فمن الواضح أنه إذا استمررنا في التراجع بدون مقاومة فإن السنوسيين سيتقدمون. إذا لم نغير هذه المنهجية فإنهم سيصلون إلى هنا في بعض الوقت"⁽²⁾

مرة أخرى يظهر الراهب كفاءته في الإستراتيجية العسكرية، لقد كان قلقه في محله، ولم يمض وقت كثير كما احتل حتى وصلت فرق التمرد إلى هناك من نفس الاتجاه الذي تصوره... لقد وصلت إلى حد برجه الحصين فرقة "آبا" التي تحمل حداً لحياته.

النهاية: هل للسنوسية دور؟

في تحضيراته المذكورة لتحرير إقدرز، بعث كاويسن بفرقة مسلحة صغيرة إلى تمراس ت تكون من 15 فردا من ايت لواين، شخص من إرجناتن

¹ - Ibid, P 307

² - Ibid, P 308

وشخص آخر من جانت، كان يقود الفرقة "آبا أق غبلي" ⁽¹⁾. وكانت مهمتها تكمن في الحصول على السلاح والذخيرة والمؤونة التي كانت مخبئة في الحصن الذي يوجد به الراهب. ونظرا لمناعة الحصن استعانوا "بالمدني أق سوبا" الذي يعرف الأب جيدا ومعتاد على تسليمه البريد.

في يوم الجمعة 01 ديسمبر على الساعة الخامسة مساء حاصرت المجموعة البرج في سرية تامة واقترب المدني من الباب ليعلن وصول البريد، فتح الراهب الباب فألقي القبض عليه، وأوكلت حراسته إلى شاب اسمه "سرمي أق تورا"، بينما انشغل البقية في أخذ السلاح، الذخيرة، المؤونة... في الوقت الذي ظهر اثنان من المهاريست الشعامبة: بوعيشة وبوجمعة بن إبراهيم من برج موتلنسكي فقام الأب بحركة غريبة للفت انتباه المهاريست، فاعتقد الشاب الحارس أنه يريد الهرب فأطلق عليه النار ⁽²⁾

هل كان هذا اغتيالاً مبرمجا ومقصودا؟

لقد اعتقد كتاب سيرة القديس كثيرا أن "آبا اق غبلي" قد تصرف حسب تعليمات السنوسيين وحتى الألمان، كما قال السيد J.Triaud: "غزوة صغيرة مثل هذه لا يمكن أن تقتل رجل الدين، لابد أن يكون هناك عدو وراء ترتيبه" ⁽³⁾

والواقع أنه وإن لم يجهل التوارق دوره في إيصال المعلومات وعلاقاته المتينة مع ضباط الجيش الإستعماري، وبالنظر إلى ظروف موته، فإن الاغتيال لا يبدو مدبرا، كما تثبت ذلك التقارير العسكرية لتلك الفترة، فالفرقة

¹ -Lhote (H), *les Hoggar*, op cit, 1984, P 222

² -هذا حسب ما ورد في (Gorreé ,P130) أما بالنسبة لـ (Lhote P222) " فإن جزء من المجموعة كان في الحي لاحظ وصول المهاريست فاطلقوا النار في الهواء لتحذير أصحابهم بالبرج ، فظن الشاب أن ذلك يدل على وصول كتيبة فرنسية فاطلق النار على الراهب "

³ - Cassajus, op cit P 61

مهمة بالذخيرة والمؤونة التي وجدت في الحصن أكثر من حياة فوكولد، فلو كان ذلك ما يهم لقتل مباشرة وفر الجميع، وعلى كل فالراهب وفر أسباب فئاته في اللحظة التي جند فيها نفسه لخدمة الضباط العسكريين، ورغم ذلك لن ينجو الشاب. لقد تحدث كتاب السيرة والمؤرخون والإنتربولوجيون كثيرا عن ظروف الموت هذه، لكن إلى حد كتابة هذه الأسطر لم يتطرق واحد منهم إلى مصير الشاب المذكور "سرمي أق تورا" فإذا لم ينسوا "مدني" الذي وصف بكل نعوت الخيانة والغدر فإن "موضوعيتهم" و"نزاهتهم" لم تسمح لهم بقول كلمة واحدة عن مصير "سرمي".

بعد استتباب السلم الاستعماري وانتهاء الحرب العالمية لصالح الحلفاء وفشل التمردات ظلت السلطات الإستعمارية مشغلة ولمدة طويلة في مطاردة الشاب بإصرار إلى أن أُلقي عليه القبض وسجن ببرج جانت "شارلي". وهناك تلقى أرقى أنواع فنون التعذيب وأبشعها، جعلته عدما بين الموت والحياة قبل أن يطلق عليه الرصاص ويرمى خارج البرج، لترتيب الرواية الرسمية والادعاء الضعيف بأن إطلاق النار كان من نتيجة محاولة هربه⁽¹⁾، هكذا بدون محاكمة ولا عدالة أو حقوق الانسان، الشعار الذي تغنى به الفرنسيون كثيرا ومنهم المؤلفون المذكورون.

¹ - وهذا حسب رواية السكان بجانت

هذا جانب من 58 عاما من حياة شارل دي فوكولد قضى منها الإحدى عشرة الأخيرة بأهقار. بدأها عسكريا حيث تخرج من أرقى مدرسة للجيش الفرنسي، تعلم منها الكثير من التقنيات والاستعمالات العسكرية وإستراتيجيات المعارك والحروب، التي إستفاد منها فيما بعد: في رحلته العسكرية بالمغرب ورسمه للخرائط الطبوغرافية ومناطق تواجد السكان والطرق ومصادر المياه... والتي إستغلها الجنرال Lyautey كثيرا في إحتلال المغرب.

لقد سافر إلى المغرب حاخاما يهوديا. بينما إستقر بالصحراء "راها" مسيحيا قضى عامين في بني عباس بالقرب من المغرب الذي كان يتمنى الإستقرار به إلا أن الظروف حولت إستقراره إلى أهقار، بفضل إرادة الجيش وعلى رأسهم لابرين الذي إقترح عليه القيام بمهمة "تألفية" عند التوارق.

في أهقار تعلم لغة القوم وأتقنها، وأبدع في أعمال لغوية لم يسبق لأحد أن قام بها قبله ولا بعده: القاموس الذي يحتوي على أكثر من ألفي 2000 صفحة والعديد من المؤلفات الصغيرة حول القواعد والشعر المحلي الذي جمع منه 600 مقطع ترجمها إلى الفرنسية، وهذا مكسب عظيم للغة التارقية "تماهق" بدون شك. ولكنه تحول شيئا فشيئا إلى العمل في الميدان العسكري فقد نشرت مجلة الأندجان Revue indigene لشهر أكتوبر 1913 مقالا يلخص أعمال فوكولد جاء فيه: "هذه المشاريع تسمح لنا بفهم أعمال فوكولد، فهي مزدوجة:

- سياسية علمية في المغرب أين يحتل اسمه المرتبة الأولى بين

المغامرين والجغرافيين

- سياسية واجتماعية في الصحراء، أين كانت أعماله مرتبطة بوثوق مع أعمال الضباط الفرنسيين⁽¹⁾

بلغ التعاون والتنسيق بينه وبين هؤلاء الضباط أشده في الحرب العالمية الأولى

حين أظهر كفاءة إستراتيجية واضحة، فكانت احتمالاته دائما صائبة، وقدم حتى حلولاً تكتيكية، وإجراءات عقابية ضد المتمردين.

كان ارتباطه بالجيش وثيقاً إلى درجة جعلت Massigno يتساءل: "كيف يسمح هذا الراهب التأملي لنفسه أن يضيع الكثير من الوقت لصالح ضباطنا كي يساعدهم في إقرار الاحتلال الاستعماري؟"⁽²⁾

ولعل حشر نفسه في تلك المهمة وجلبه لأسلحتهم وذخيرتهم إلى ملجئه هو السبب الأول في موته.

إذا كان قد استعار اسم الحاخام Josef Alman في مغامرته إلى المغرب، فقد لقبه بعض البيوغرافيين بـ: الراهب العسكري، الإستراتيجي، عون سري، عضو الاستخبارات، جاسوس... بينما كان يمضي رسائله بأسماء: Frère Marie-Albrec ثم Frère des Charles ، ثم Charles de Jesus... ويسميه التوارق أكلي-ن-غيسي أو "ابد غيسي" أو "عبد عيسى"... أكثر من عشرة أسماء لشخص واحد، تعددت أسماؤه مثلما تعددت مهماته. هذا يدل على الأوجه المختلفة لشخصية المعني، حتى اننا لنشك في أن 3248 رسالة التي كتبها منذ 1906، صادرة من شخص واحد:

¹ - Gorreé, *op cit*, P 284 - 285

² - Cassajus, *op cit* P 71

فالرسائل التي يكتبها إلى الجيش تجدها مطبوعة بالإستراتيجية بينما يتحدث كتائب إلى زعيمه الروحي، في نفس الوقت الذي يفشي فيه الأسرار الشخصية إلى قريبته Bondy التي يثق بها⁽¹⁾.

وعلى كل حال سواء كان راهبا عسكريا أو عوناً سرى، -Frère Marie-Albrec أو أكلي-ن- غيسى فالشخص نفسه: شارل إيجان دي فوكولد Charles-Eugene de Foucauld الذي "قدم لفرنسا عن طريق قداسته... ما لا يمكن أن يفعله لو احتل هذه الأوطان مع فوجه ملازما"⁽²⁾. فالغاية دائماً ذاتها؛ الاستعمار.

¹ - Cassajus, *op cit* P 66

² - Pottier , P 125

الفصل السادس

القوة والدبلوماسية: خياران لا بد منهما

I - القوة

الاستطلاعات العسكرية: العنف المباشر

مع بداية القرن العشرين بدأت مرحلة جديدة في التوغل، لقد عوضت الرحلات المعزولة والمهمات "العلمية" وبدأت "اكتشافات الدولة" ذات الطابع السياسي والعسكري. وهي على الخصوص أعمال الضباط الذين عليهم أن يثبتوا جدارتهم كغزاة أولاً ثم كدبلوماسيين وعلماء.

بالرغم من المعلومات النظرية التي استحوذ عليها الفرنسيون إلا أن أهقار بقي حصينا إلى غاية بداية القرن العشرين: "بما أن عهد الاستطلاعات السلمية قد انتهى فلا بد من استعمال القوة للتوغل في السلسلة الجبلية العجيبة بأهقار"⁽¹⁾؛ لكن المرحلة الأولى للوصول إليه، كانت اجتياز عين صالح المركز الكبير للقوافل والسوق الأساسي لكيل أهقار، إذن فلا بد من فتح عين صالح، لتبدأ مرحلة العنف.

1- الطريق نحو أهقار:

1- إستطلاع Pein: بان

كما رأينا لقد عبر "بان" و"قومه Goumme" الصحراويين أثناء حراسة مهمة "فورو - لامي" أنهدف التي تفصل بين أهقار وآزجر، كانت له تجربة مع الفرق الصحراوية، وتم اختياره للتتكر في مهمة علمية لاحتلال عين صالح. وهي خدعة ابتدعها الحاكم العام للجزائر⁽²⁾.

كان رئيس المهمة آنذاك الجيولوجي M.Flamand "فلامند"، وكان هدف المهمة المعلن يتمثل في دراسة العلاقة بين الاستراتغرافيا، وقطع من

¹ -Edyoux (H-P), Op-cit P 179

² - Ibid, P180

الشبيست المفحم، بمنطقة تديكلت⁽¹⁾، التي تنتمي حينها إلى المناطق المستعصية، وكانت عاصمتها عين صالح. ويمثل كيل أهقار أحد حماتها وقد هددوا بلسان امنوكال أنهم سيقضون على كل من يعتدي عليها في عدة رسائل تحدي يقول في إحداها: "ليس لدي إلا شيء واحد أقوله لك: ابحث عن بلد ينجيك من أهقار"⁽²⁾ وكان هذا هو السبب حسب بعض المصادر الذي جعل رئيس ديوان الحاكم العام للجزائر الكولونيل Leveé يقترح فكرة التتكر⁽³⁾

وهذا خشية اكتشاف الهدف الحقيقي منذ البداية فيتم الاعتداء عليها. تتشكل فرقة بان من تسعين مهاريست وخمسة عشرة فارسا، وانضم إليهم مقدم القادرية بورقلة ومعه أربعون فارسا مهريا، ومن جهة أخرى كلف وزيرالحرب النقيب "جرمان" بالتحرك مع فرقته الصحراوية باتجاه المهمة لحمايتها إن استدعت الحاجة⁽⁴⁾.

غادرت المهمة ورقلة يوم 28 نوفمبر 1899 نحو عين صالح ومرت على حاسي اينغل، حاسي سوقي، حاسي المقر ومنه إلى رق اجمار ووادي مسين، وأخيرا واحة اقوستن.

وهنا اكتشف سكان عين صالح نوايا هذه المهمة فقاموا بهجوم مفاجيء يوم 28 ديسمبر 1899 تحت قيادة الحاج المهدي باجودا رئيس قبيلة باجودا الذي قتل أثناء الهجوم فانسحب السكان وسيطر بان على الموقف ودخلت الفرقة الغازية القصر الكبير لتستقر به ثم تواصل طريقها فيما بعد إلى عين

¹ -Larteguy, Op-cit P 95.

² -Ibid 95.

³ -Gautier (E-F), op-cit p37.

⁴ - مياسي، المرجع السابق ص 109.

صالح. تجددت المعركة بالقرب من قصر دقامشة يوم 05 جانفي 1900. وقرر الحاكم العام لدى سماعه الخبر أن يدعم المهمة بقوات إضافية فأمر الرائد بومكارتان Boumgartin القائد الأعلى لدائرة القليعة بالتحرك نحو عين صالح على رأس فرقة عسكرية متكونة من 150 جنديا نظاميا و 150 آخرين من رجال القوم.

وصلت الفرقة الى القصر الكبير يوم 18 جانفي 1900 واندمجت مع فلامند لتقضي على المقاومين ثم تدخل عين صالح التي وقعت وما جاورها من الواحات تحت الإحتلال الفرنسي⁽¹⁾.

النتيجة:

في النهاية تحصل الفرنسيون على خضوع هذه الواحة ذات الأهمية الاستراتيجية الفائقة فهي تقع على نفس المسافة تقريبا بين أقاليم الشمال والسودان وبين مقادور غربا و طرابلس شرقا، مما جعلها ملتقى مناسباً للقوافل، وسوق تموين لكيل أهقار، الذين منع عليهم دخولها، وأصبحوا الآن في ضيق لأن إحتلال عين صالح جاء بعد احتلال تين بكتو سنة 1895. الفرنسيون يحاصرونهم في كل مكان، لذلك جاء رد امنوكال -ن- ألّهقار الجديد (اتسي) بتحد كبير: "إذا أتيت إلى أهقار فسوف أقضي عليك بالقوة، وبالغزو؛ وإذا منعت قوافلي من التموين في سوق تديكلت فسوف آتي وأقطع كل نخيل الواحات"⁽²⁾.

أصبحت عين صالح الآن مركز انطلاق الإستطلاعات والغارات نحو أهقار، مثلما أصبحت هدفا لمناورات كيل أهقار.

¹ - مياي، المرجع السابق، ص 110.

² - Lehuraux (C), *Les français au Sahara*, ed. les territoires du Sud, Alger, 1937, P122

2- كوتنست : Cotnest

بعد احتلال عين صالح عاصمة تديكلت وتين بكتو عاصمة السودان الغربي، لم يبق الآن سوى أهقار وآزجر، فاحتلال الواحات لا يمكنه أن يكون غاية في حد ذاته، لأنها ليست سوى جزءا من الصحراء الكبرى. يعبر أحد الضباط عن هذه الوضعية قائلا: "بلدنا السيد في الشمال والجنوب وعلى حافتي الصحراء، لكن في الوسط توجد منطقة يمكن القول أنها غير معروفة، تعود فيها السيادة إلى مجموعة من الرجال الذين يمنعون وبغيرة المرور بداخلها، لا يمكن أن تستمر هذه الحالة"⁽¹⁾.

وفي هذه الآونة كان لابرين الذي عين حاكما أعلى للواحات، وكوفي Cauvet رئيس ملحق عين صالح؛ يحضران للكيفية التي سيحتلون بها أهقار، ويخططان للحصول أولا على أكبر قدر من المعلومات حول الإمكانيات الفعلية لـ كيل أهقار وحجم قواتهم ونوعية سلاحهم، وما تحصلوا عليه لا يمكن سوى أن يشجعهم على الاستمرار في برنامجهم ؛ أهقار في الواقع: "قليل العدد، الأرقام تدل على وجود 300 محارب يملكون القليل من الأسلحة النارية، ولكنهم يتمتعون أيضا بحماس حربي يجعلهم لا يستهان بهم"⁽²⁾ ثم لا يجاورهم أي بلد يمكن أن يساندهم فهم بعيدون عن طرق قوافل السلاح، لم يبق إذن سوى الوقت المناسب للغارة.

وفيما يشبه حادثة المروحة جاء الخبر المناسب الذي اعتبر سببا كافيا. في شهر مارس 1902 أوقفت مجموعة من التوارق تحت قيادة بابة قافلة من تديكلت، في منطقة مويدير حينما كانت متجهة نحو الهقار.

¹ - Lehuraux (C), Op-cit P123

² - Ibid, P 123

ونظرا لمخالفتها للقوانين التقليدية خاصة الرخصة من امنوكال ورسوم المرور والحماية زيادة على قدومها من منطقة احتلها العدو، احتجرت جمال قائد القافلة (بن مسيس) أحد القرويين الخاضعين لفرنسا، و"يسيء بآبة معاملة خادم"⁽¹⁾ إحدى النساء النبيلات (فاطمة ولت مسيس) التي كانت رفقة القافلة، وهذا بتسويطه قائلا: "هذا ما سأفعله من التوارق النبلاء الذين قبلوا عبودية الفرنسيين هؤلاء الكفار الملعونين"⁽²⁾.

تناول السكان الخبر بين الحقيقة والخيال. أما السلطات الفرنسية فقد اعتبرته رسالة موجهة إليها كما عبر أحد ضباطها: "ذلك القول كان أكثر من إهانة وشتم لنا... لا بد من العقاب بقسوة، كرامة فرنسا تفرض ذلك، ولا بد أن تبرهن على قوتها أمام توارق أهقار"⁽³⁾.

رغم أن هذه الحادثة ليست الأولى من نوعها، إذ افترضنا بصحة قول نفس المتحدث الذي أكد قبل ذلك و بالضبط بعد إحتلال عين صالح "أن التوارق يعتقدون على كل قافلة تمر في اراضيهم او بمحاذاتها... ولم يترددوا في مضاعفة هجوماتهم حتى على مشارف الواحات و يعودون بسرعة إلى معالمهم في الجبال. الملاجيء التي يعتبرونها آمنة من كل إعتداء"⁽⁴⁾.

لم يعد الانتقام مهما لكرامة فرنسا التي أصبحت متجسدة في من تسميهم "الأندجان" إلا عندما حان الوقت.

في بداية سنة 1902 لم تكن الفرق الصحراوية موجودة، فلجأ رئيس ملحق عين صالح إلى تكوين مجموعة "القوم المهاريست"، من قبائل شمال الصحراء. ويعرض الفكرة على لابرين الذي سعد بها.

1 - Lehuraux (C), Op-cit P 124

2 - Larteguy, Op-cit, P 126

3 - Lehuraux, Op-cit P 127

4 - Ibid P122

أوكلت المهمة للملازم Lt.Cotnest. الفرنسي الوحيد في الفرقة، وكانت مهمته الوصول إلى أهقار و"إسترجاع ماتم أخذه من الإعتداء الأخير، وإستعمال القوة إذا لزم الأمر، بمعنى آخر يجب لعب دور السلطة مهما كان⁽¹⁾.

غادر المئة والثلاثين 130 مهاريست المشكلين للفرقة عين صالح في 22 مارس 1902 وتمر بالتدريج على مويذر تقدست، وتصل إلى أهقار، كان كيل أهقار يتراجعون إلى المرتفعات ويراقبون مسيرة القوم بحذر، فهم يبحثون على كيفية جلب الفرقة إلى مكان مناسب يستطيعون فيه النيل منها(2) أخيرا وعلى بعد حوالي 40 كلم شمال غرب تمنراست، وعلى حافتي "تيت" تمت المواجهة بين البنادق والرماح يوم 07 ماي 1902 انسحب كيل أهقار بعد أن فقدوا 93 رجلا.

أما الجانب الفرنسي فقد خسر 04 قتلى حسب المصادر الفرنسية لكن المؤرخ الفرنسي الكبير (E-f) Gautier لم يعتبر هؤلاء القتلى خسارة؛ فعبّر عن شعوره بصفة مدهشة ولكنها معبرة: "... كان هذا دما بريريا؛ كوتنيست القائد والروح في نفس الوقت، هو الفرنسي الوحيد في هذه الفرقة الصغيرة؛ خلال مسيرة ليلية، هوى من مهره، وكسرت له ثلاثة اضراس، إنه الدم الفرنسي الوحيد، بمعنى هذا ما خسرنه من غزو أهقار⁽³⁾. إن ارواح أربعة "برابرة" لا تساوي ضربة فرنسي واحد، هذه هي العقلية الاستعمارية.

لقد تكلم عاليا و جهرا بما يفكر فيه الفرنسيون صمتا و سرا، ليكشف لنا الإستراتيجية الفرنسية الجديدة لغزو الصحراء بأقل ثمن.

¹ - Lehuraux, Op-cit P 122

² - Ibid P 129

³ - Gautier, Op-cit P 12

وهو ما جعل لابرين ينشئ الفرق الصحراوية بعد أن تأكد من نجاحها بصفة رسمية، والتي بفضلها استطاع وبدون مصاريف، وبخسائر قليلة أن يحتل الصحراء والسودان؛ هذا الدرك الميهاريست ولد إذن بفضل كوتستست.⁽¹⁾ لقد حطمت هذه المعركة، أسطورة التوارق الذين لا يقهرون إلى الأبد⁽²⁾، وليس لها مفعول معنوي فقط بل مادي أيضا، فقد تحولت قبيلة داق غالي التي كانت القوة العدديّة الضاربة لأهقار إلى يتامى، ولابد من عدة أجيال لكي تعوض موتاهم.

كانت هذه المعركة نقطة تحول في التوغل الفرنسي بأهقار، فقد كانت لها انعكاسات داخلية بين أهل العصبيّة الحاكمة، في مواصلة المقاومة أو الإستسلام. في نفس الوقت الذي نظمت فيه الفرق الفرنسية ونشطت.

بعد الانتصار اعتبرت هذه الهزيمة انتقاما لـ مهمة فلاترس ونسي بن مسيس وأخته وخادمها الذين انطلقت الغارة "من أجلمهم" وبتحريض منهم. لكن مهما كان السبب بن مسيس، فلا ترس، مثلما تم التتكر في المهمة العلمية لعين صالح فالهدف دائما نفسه؛ السيادة بالقوة.

لقد علم الفرنسيون بالوضعية المتناقضة التي سادت في أهقار فكثفوا من استطلاعاتهم حتى يرجحوا الكفة لصالحهم وتسهيل الخضوع. وهم بذلك يظهرون القوة لكي لا يستعملونها، وتتالت المناورات فيما بعد، لكن أهمها دورية Guillo-Lohan.

3- إستطلاع: 1902 Guillo-lohan

لقد مرت عدة أشهر بعد معركة تيت، حتى جاء خبر آخر إلى رئيس ملحق عين صالح مفاده أن هناك "تجمع كبير للتوارق في ضواحي المركز

¹ - larteguy , op cit, p 98

² - Ibid, P 98

الفلاحى ان أمقل يتراًسه امنوكال اتسى اق املاى المدعو شيكات قصد مباغطة ثكنة عين صالح للانتقام على هزيمة تيت" (1).

وهو خبر مناسب أيضا لـ كوفي رئيس الملحق لاختبار فعالية الفرق الصحراوية التي أنشئت لأول مرة. فأمر بمهمة إستطلاع إلى أهقار، أوكلت إلى الملازم "جبالولوهان"، مع فرقته المتشكلة من 200 رجل من المهاريست الصحراويين. ادرت الفرقة عين صالح في 01 أكتوبر 1902 أي بعد ستة أشهر من معركة تيت ليعبر مسارا مختلفا قليلا عن مسلك كوتنيست، وزار كل من: هرفك، ادلس، تازطروك، تين تارابين، ايتوكلان، تارهوهاوت، تمنراست، ان امقل، بمعنى أنه اول من توغل داخل أهقار ويقول عنها "لقد عبرنا منطقة مضطربة؛ وديان ضيقة، ارتفاعات عالية، كهوف..." (2).

لقد وصل مركز أهقار الذي يتكون من هضبة عالية تمتد على 80 كلم طولا، بإرتفاعات تصل 3000 متر منها: اسكرم، المان، تاهات، اتكور.. ويعود بعد ان قام وجنوده باعدامات ومصادرات عديدة لأشخاص عزل بعيدا عن ميدان المعركة.

لكن النتائج الجغرافية والسياسية لم تكن أقل أهمية؛ فقد اتى لوهان بمعلومات وافرة على هذه الجبال وطرق سلكها والتي كانت إلى ذلك الحين مجهولة على طول 2200 كلم التي قطعها. ونفس الشيء بالنسبة للسكان وتمركزهم وميولاتهم.

لكن الأهم بالنسبة للفرنسيين هو استعراض القوة والتأكيد على أنهم عازمون لاستعمالها وقادرون على الوصول إلى قلب أهقار ومركز القبائل

¹ - Lehuraux, *Op-cit*, P 136

² - in Edyoux, *Op-cit*, P 04

المعادية لهم. وأن هذه الجبال لم تعد حصنا آمنا كما كان يفخر به كيل أهقار من ذي قبل.

ب- الطريق نحو أزجر:

بالرغم من أن مناطق أزجر كانت مسرحا لمعظم رحلات المغامرين السابقين إلا أنه لا بد من تنفيذ الاستطلاعات العسكرية نحو المناطق الداخلية كما تقتضيه السياسة الجديدة لـ لابرين وكوفي.

1- النقيب بان 1897 - 1903

لم يعترض كيل أزجر لفرقة "بان Pein" التي جاءت لحماية مهمة فورو- لامي عندما كانت تستطلع مناطق أمقيد الذي يعتبر منطقة رعي لـ اسقمارن. وكان نفس الشيء عندما قام باستطلاع سابق نحو تارات في ديسمبر 1898 حين وصل إلى الحواف الشرقية للعرق الشرقي في جانفي 1899، قبل أن يصعد من وادي اسوي ملن. وفي مارس من نفس السنة يصل إلى غرب قارة الخنفوسة ويترك أزجر بصفة مؤقتة لينتقل إلى تادمايت.

في جانفي 1903 يعود إلى أزجر على رأس "قوم ورقلة" وقد مر على تماسنين، عين الحجاج ويصل إلى غاية شرق تارات دون أن يلتقي بـ كيل أزجر فيعود على مسار آخر جديد بين حاسي مسقم وتخامالت ليعود إلى ورقلة بعد ذلك. كان الهدف الأساسي المعلن لهذه المهمة يتمثل في مضايقة ومتابعة مجموعة من كيل أهقار الذين يتبنون المقاومة خاصة كيل تايثوق ومجموعة اتسي⁽¹⁾.

وكان نفس الهدف الذي أوكل لـ مهمة باسي Basset.

¹ - Lacroix (A), & Bernard (A), *Op-cit*, P 173

2- الملازم باسي Basset :

بعد ستة أشهر أخرى يكلف ملازم آخر للقيام بمناورة جديدة في أزجر، القائد كان هذه المرة باسي، الذي غادر عين صالح يوم 19 جوان 1903 مع خمسة وعشرين مهابيست وثلاثين جنديا من المشاة، جلهم من القبائل المجندين والذين يقول عنهم الملازم "أسعد كثيرا عندما أرى قبائليا على رأس المجموعة ونحن نطارده مجموعة غازية"⁽¹⁾. وصل يوم 08 جويليه إلى امقيد، واعتدى على مجموعة من كيل تايتوق، تجهي ملت، كيل إن تونين، اسقمارن⁽²⁾، وفي تيفرسين بين 10 و12 جويليه يقتل رجلين من تايتوق ويسلب الكثير من الماشية والأمتعة التي تعود ملكيتها لـ اسقمارن وكيل أزجر⁽³⁾ ثم يتجه إلى منطقة تيهودايين وينزل على واد تين اهر. ثم غير إتجاهه ليصعد مجرى وادي تاهوهايت في طريقه للعودة.

لقد تمت هذه العملية في الصيف، وبالتالي فهي إشارة من طرف الفرنسيين إلى كيل أزجر أنهم قادرون على الضرب بهذه الفرق الجديدة في أي وقت كما يقول الملازم المطلع على الجيولوجيا التي لم يغفل على تدوين ملاحظاته عنها، واكتشف وجود وادي عميق المجرى في الجزء الأصغر للتاسيلي الداخلي.

وكان الإهتمام يتركز في هذه الأونة خاصة حول شرق أزجر بمحاذاة طرابلس الغرب الخاضعة للنفوذ التركي.

¹ - Dubief op cit 128

² - Gardel (Lt), Les Touaregs Azdjer, Bacconier, Paris, 1961, P 203

³ - Ibid P 203

3- النقيب توشارد 1904-1905 Touchard

تم تعيين النقيب توشارد من طرف رئيس ملحق عين صالح للاطلاع على تقدم أشغال حفر آبار حاسي الطويل، والوصول إلى جانت لإقامة علاقات مع رؤساء أزجر.

كون فرقته من "قوم الوادي" وكان الفرنسي الوحيد كما كان كوتتيسيت وبان⁽¹⁾.

غادر توقرت يوم 19 نوفمبر 1904 مع حوالي 200 مھاريست ليصل تماسنين التي يغادرها يوم 10 ديسمبر ويأخذ الطريق المعتاد؛ اغرغارن، بحيرة منغور، إليزي، امھرو وهنا وصله خبر وجود تجمع في تارات ليتجه إليها مباشرة ويصلها يوم 29 ديسمبر. وهناك إلتقى ببعض ممثلي كيل تاسيلي ويتلقى خضوعهم في 01 جانفي 1905 ويغادر معذر تارات يوم 03 جانفي ليصل ديدر يوم 09، ثم سهل أدمر يوم 15 وأخيرا جانت في 19 جانفي 1905.

يزور "الرخمت"، وزلواز أمام حيرة سكان المدينة التي تطأ أرضها قدم فرنسي لأول مرة في تاريخها. كان العلم التركي يرفرف على الحي، "وقد تم وضعه ردا على مرور مهمة فورو - لامي بـ أفرا"⁽²⁾.

غادر جانت بعد ثلاثة أيام متجها نحو الشمال؛ أدمر، تين تهرجلي، ديدر، امھرو ويخرج من التاسيلي يوم 04 فيفري، ليصل إلى إليزي يوم 09 ثم تماسنين أخيرا في 21 فيفري 1905 ويعود في أفريل إلى توقرت.

¹ - Dubief, op cit 129

² - Touchard (C), Reconnaissance et travaux de penetration saharienne axe Tougourt- Djanet (nov.1904-mars 1905), J.Gandini 1993 , P 100

جرت الرحلة بدون حوادث رغم تسلحها الكبير، لكن النتائج الآنية سلبية، زعماء كيل ازجر الذين أخبروا عن قدوم الفرقة غادروا جانت وتجنبوا ملاقة النقيب الفرنسي⁽¹⁾، لكن انقذازن حرص على الإعتراف بهذا الموقف في رسالة بعثها فيما بعد للنقيب في وادي السوف جاء فيها: "ليس لدي سوى أن أشكرك، وأن أؤكد لكم الإتفاق الذي توصلنا إليه منذ زمن بعيد والذي لن ينتهي. أنتم شخصا ذهبتم الى تارات أين كان هناك جمال وأشخاص وماعز ولم تأخذ شيئا هذا دليل على صداقتكم، لا تبحثون إلا على السلم، سيجازيكم الله بالخير"⁽²⁾. اختلف الاستطلاع عن سابقه فقط لعدم سلب الممتلكات وهو ماجعل امنوكال-ن- ازجر يذكره باتفاق غدامس 1862

بينما حققت نجاحا نسبيا لحصول النقيب على خضوع ثلاث فصائل من كيل تاسيلي (إجراجرون، كيل توبرن ، كيل اراس)⁽³⁾. كما أن دخول هذه الفرقة يعتبر كإشارة لوجود جانت في مناطق النفوذ الفرنسي، خاصة وأن الأتراك يطالبون بامتلاكها أيضا. ومن جهة أخرى أخذت الحكومة الفرنسية كثيرا على تقرير النقيب توشارد أثناء نزاعها مع تركيا في هذه المنطقة ومن بين ما استخلصه حول التاسيلي: "ليس للتاسيلي أهمية كبيرة سوى كونها تتواجد بين الجزائر والسودان على الطريق المباشر الذي يربط تماسنين ب أقدر، وإذا أردنا طريقا بين تماسنين وآير فلا بد أن تكون للتاسيلي مساهمة في تبديد صعوبات الصحراء الجرداء يجب أن يضع سكانها - الخاضعين - تحت تصرفنا المصادر التي بحوزتهم، وأن يمدوا قوافلنا بالإبل والأدلاء الضروريين"⁽⁴⁾.

¹ - Lehuraux, op cit P 215

² - Ibid, P 217

³ - Touchard, op-cit p 99

⁴ - Touchard, op-cit, P 99

أما عن جانتي فيرى أنها "لا يمكن أن تكون نقطة عبور القوافل التي تربط السودان بالجزائر هناك منحدر صعب المسالك شمالها... بالإضافة إلى أن القوافل تمر شرقا على غات... جانتي لا يمكن أن تكون سوى معلما Borne بالنسبة لنا يمنع الأتراك، أو واريثهم المحتملين"⁽¹⁾.

وتمكن من رسم مخطط مهم جدا لهذا الجزء من أزجر، وضع فيه مساره ومسار من سبقوه ك Bary، ومهمة فورو - لامي. استمرت الاستطلاعات العسكرية تحت قيادة الضباط: شارلي، نيجر، كلور، لابرين، قارديل.. وقد انتهى هذا الأخير بمعركة تشبه في صداها معركة تيت.

4-قارديل Gardel 1913:

مرة أخرى جاء السبب خبرا عن وجود حركة كبيرة قادمة من غات تحت قيادة السلطان امود وامنو كال انقدازن وتتجه إلى (الأراضي الفرنسية)، فاعطي الأمر للملازم قارديل بالذهاب إلى اسين جنوب غات لمنع الحركة من التقدم⁽²⁾. غادر جانتي يوم 03 أبريل 1913 رفقة حوالي "40 مهابيست"، وبعد يومين يتلقى من النقيب شارلي العائد من أهقار معلومات عن الحركة المزعومة وأمر بإلغاء المهمة، فأخذ طريق العودة إلى أن وصل مركزا فلاحيا. اسين -ون- أفلا يوم 10 أبريل صباحا، وكان السكان قد أخلوا المنطقة مما جعل الملازم يتأكد من صحة الأخبار التي تلقاها، فيأخذ كل احتياطاته الدفاعية اللازمة. في المساء بدأت المعركة التي وصفها Lehuraux في هذا النص: "اعطى الخفار إشارة الإنذار؛ مهابيست وكثير من الراجلين قد ظهروا على بعد كلومتر واحد ويقربون بسرعة من المعسكر، وبدأ إطلاق

¹ - Ibid, P 100

² - Dubief, op-cit, P 135

النار من كلا الجهتين وتواصلت بدون انقطاع المعركة غير المتكافئة 40 مقابل حوالي 300*، استمرت كل المساء واللييلة الموالية.

ولما يأس قارديل من هذه الوضعية بعث برسالة إلى جانت.. وفي 11 أفريل عند طلوع الفجر وعلى نهاية الذخيرة... جمع الملازم فرقته وقرر محاولة الخروج بالحربة كآخر أمل للنجاة وبكل شجاعة لمواجهة الموت يخرج الضابط والجنود من مخبئهم وينطلقون بهيجان ضد معتديهم، كان الهجوم مفاجئا وخاطفا مما أدي بهم إلى الاضطراب والذعر والتبعثر...⁽¹⁾.

عاد المهاريست بعد ذلك مسرعين ليلتقوا في أبدنوفك بفرقة النقيب شارلي الاتي لنجدتهم بعد أن تلقى رسالة قارديل التي يقول فيها: "إن لم تنفذونا حالا فإننا...F... ماتت كل الجمال، على بوخشبة جريح، اسلامن، عابدين قتلوا، 150 رشاش ذو الطلقات السريعة فقدت، الوداع A dieu"⁽²⁾.

من الواضح أن هذه القصة الرسمية، بعيدة عن الحقيقة، لسبب بسيط: التناقض الموجود بين القصة البطولية والرسالة: ماذا يفعل 40 رجلا بـ 150 رشاشا ذا الطلقات السريعة؟ بمعدل أكثر من ثلاث رشاشات للفرد الواحد؛ فكل هذه الأرقام إذن مشبوهة، لكن لا يوجد غيرها، وإلى حد الآن يتذكر السكان هذه المعركة، لكن التفاصيل والأرقام غائبة، الشيء الوحيد المؤكد هو انهزام كيل أجزر.

وسمي هذا العام بـ اوتاي وان سين. وتبقى المعركة غامضة، معركة يمكن مقارنتها بمعركة تيت من حيث:

أولا: إذاعة صيتها وربما يعود ذلك إلى مشاركة أعلى القيادات في أجزر: امنوكال انقدازن، والسلطان امود.

¹ - in Lehuroux, op cit P 242

² - in Ibid , P 243

ثانياً: ان هذه الفرقة لا تحتوي سوى على ثلاثة فرنسيين، لا يهتم من يموت.. فالانتصار فرنسي.

أما غير هذا فالفرنسيون مبالغون في الإكثار من أهميتها لأنها لم تحقق نفس نتائج تيت، فهي لم تود إلى خضوع كيل أزجر بل وبالعكس، إذ سرعان ما أعادوا تنظيم مقاومتهم لتبدأ مرحلة التمردات.

الملازم إستطاع أن يجمع خلال فترة بقاءه في المنطقة معلومات هامة دونها في كتابه المعروف "توارق أزجر" "Les Touarges Azdjer"، يحتوي على عرض جيد حول التضاريس بالتاسيلي-ن-أزجر، وتدوين للتاريخ الشفوي لكيل أزجر وهو ما يعطيه أهمية اثنوغرافية معتبرة.

يختم N.lacroix و A.bernard مرجعهما حول التوغل في الصحراء قائلين: "يجب استعمال وسائل التوغل الأكثر ملائمة، حسب المناطق، فإذا كنا نثني على Brazza، وBinger اللذين منحنا خضوع أكبر مملكات الزنج بهدوء، دون أية طلقة نارية فإن المقاومة التي لاقيناها في الصحراء لا يمكن أن تتحطم إلا بالقوة"⁽¹⁾.

فالقوة مرحلة لا بد منها تحسم الامور بشكل راديكالي لكنها مكلفة ولا تستمر للأبد، فمن اللازم ان تدعم بالديبلوماسية.

II-الدبلوماسية: الإخضاع من أجل الأمن الاستعماري

1- في أهقار:

أ- المرحلة التحضيرية : نفوذ موسى

حطمت معركة "تيت Tit" أسطورة أهقار المنيعة، ليس فقط على مستوى الخسائر البشرية وإنما على الخصوص في الجانب المعنوي؛ كانت تيت فشلاً

¹ - Lacroix et A.bernard, op-cit, P194

بسيكولوجيا، فمن الآن فصاعد لم تعد أراضي أهقار محرمة، هذا الانهزام يفتحها لقدم الفرنسيين.

بعدها ظهرت شخصية موسى اق امستان؛ الذي أخذ نفوذه يتوسع تحت أعين السلطة الفرنسية. يشير إلى ذلك Cauvet قائلا "يبدو أنه (موسى) قد عوض امنوكال اتسي على رأس أهقار "في نفس الوقت الذي يسجل فيه لابرين Lapperine ان موسى هو أهم منافس لـ "اتسي" و"يفرض نفسه كامنوكال منذ غزو الردع لـ كوتنيست"⁽¹⁾.

ولد موسى في سنة 1867 يتيم الأب منذ الطفولة التي قضاهها وهو يرعى غنم أقاربه. التحق في سن مراهقته بالغزوات التي كانت تتجه نحو الجنوب والجنوب الغربي للأهقار، ومنها ظهرت سماعة ذكائه وشجاعته وإقدامه. كان أكثر لمعانا في المعارك منه في الملتقيات الداخلية (ميعاد) فهو رجل ميداني، ومالبث أن أصبح إحدى الوجوه البارزة من كيل غلا اهل الغلبة والحكم في أهقار.

كان كثير الميل إلى رجال الدين، ويبحث دائما عن دعمهم ونصائحهم وبركتهم مما جعل الولي الصالح خمدن يتنبأ له بمستقبل سياسي مهم⁽²⁾. أطلع على تعاليم الدين الإسلامي بفضل باي الكونتي واسمه الحقيقي محمد بن سيدي المختار باي الكونتي (1865-1929) وكان حفيد سيدي المختار الكبير الوافي (1729-1811) مؤسس زاوية كونتا⁽³⁾ يتحدث العربية و"تماهق" جيدا، كان باي في نقطة تلاقي العادات الدينية لزوايا "المور" والتوارق، يقيم بمنطقة

¹ - Lapperine(H), « Une tournée dans le Sud de l'annexe de Tidiklt », BCAF/ renseignements coloniaux 2 : 37-46 P34.

² - Badi,(A) et Bellil,(R), « Evolution de la relation entre Kel Ahaggar et Kel Adagh » in Cahier d'Iremam, N°04, 1993 P 99

³ - Ibid, P 47

Teleya في أضاع لكن نفوذه كان محدودا في الصحراء الوسطى. بينما يعتبر بالنسبة لموسى اق امستان بمثابة " الزعيم الروحي".

على غرار سياسة التعاون التي تبعتها العديد من الزوايا الأخرى (كالتجانية والقادرية)، كان باي دائما يوعظ بمواقف سلمية تجاه التوغل الفرنسي، وكانت الإدارة الفرنسية منذ البداية تستعمل النفوذ الديني لباي على السكان المحليين فقد تم خضوع افوغاس لسلطات عين صالح سنة 1904 بفضل نصائحه، في نفس الوقت الذي تسعى فيه لتدعيم نفوذ رجال الدين.

عندما فتحت مسألة خلافة "أهيتاغل" كان موسى بحكم وضعه العائلي أحد المترشحين الشباب إلى جانب اتسي اق شيكات، محمد اق ارزيق، مخامد اق عثمان، ورغم مكانته في صف "كيل الطبل"، إلا أنه وحسب القاعدة لا يمكن أن يفوز على محمد اق ارزيق واتسي. بينما يمكنه ان يحضر للفوز لاحقا لكونه فقط ابن اخ خيار اق هقار. هذا الأخير مثل أخاه أمستان ولد من الزواج الأول لـ "تاجنت" زوجة الحاج أحمد امنوكال السادس لأهقار. وهو الذي رباه وعاش معه وشارك في السلطة بجانبه وفي حال موت الحاج أحمد لا يمكنه أن يفوز بالمنصب على الخط المباشر لتتناقل السلطة، وكان مجبرا على قبول تعيين اهيتاغل (ابن اخت الحاج أحمد) ك امنوكال، لكنه "كان دائما يعتبر نفسه قد جرد من حقوقه بانتخاب اهيتاغل الذي لم يتوقف عن معارضته"⁽¹⁾.

لاحقا استغل خيار شبكة نفوذه وبراعته السياسية لمساندة ابن أخيه موسى من أجل السلطة التي ستكون موضوع صراع بين هذا الأخير واتسي؛ ابن أخ خيار وابن أخت اهيتاغل، ومن هنا ظهر خطان سياسيان متناقضان

¹ - Pandolfi (Paul), « In Salah 1904/Tamanrasset 1905, les deux soumissions des touaregs Kel Ahaggar », In cahiers d'études Africaines XXXVIII-1, N°149, 1998 a, P 48.

بأهقار أحدهما بقيادة اتسي رافض للتوغل الفرنسي، ويلح على المقاومة إلى آخر رجل، والثاني يقوده موسى يميل إلى الخضوع والدخول في علاقات مع الإدارة الفرنسية. الخصومات الداخلية كانت شديدة إلى درجة أنها هددت بانقسام كونفدرالية الهقار⁽¹⁾.

لم تفت الظاهرة على السلطات الفرنسية، علم العسكريون في عين صالح بسرعة كيف يتصرفون ومع من يتعاملون، فأصدروا جملة من الإجراءات للضغط والاستدراج:

أولاً : غلق سوق توات على كيل أهقار

ثانياً: تعليق الاتصالات مع السلطة التقليدية الشرعية لأهقار، مثلما لخصها كوفي Cauvet: "ليكن في علم الجميع أننا لا نريد أن تكون لنا أدنى علاقات مستقبلاً مع امنوكال الهقار الحالي (اتسي) ومع أعيانهم الذين كانت لهم مساهمة في إغتيال مهمة فلاترس، يسمح فقط للرجل الشريف خيار وموسى ابن أخيه للدخول في علاقات معنا"⁽²⁾.

يقول كوفي هذا قبل أن يعترف: "... لا نتذكر بالضبط كيف كانت مهمة فلاترس لدينا فقط معلومات عامة أنه قد فوجئ وقتل من طرف التوارق؛ .. لكننا بعيدون جداً على أن نشك في دور اتسي".

لقد اعتبرت المشاركة في "اغتيال" أعضاء مهمة فلاترس بمثابة حجر عثرة في المواقف المتخذة تجاه كيل أهقار وموضوع مرجعي للتعامل معهم فقط لكون اتسي المعارض لسياسة التوغل الفرنسي قد شارك فيها. لأن هذا الشرط لم يكن سوى مناورة سياسية، اشاعها ضباط الجنرال Sévier الذي

¹ - Lehuraux (C), *le conquérant des Oasis*, Plon, Paris 1935, P 138.

² - Cauvet, *le raid du Lt Coutnest au Hoggar*, Marseille R et J Brunan.1945, P34

يكتب عنهم: "الرائد لابرين والنقيب Cauvet عملوا بصفة مقصودة على نشر إشاعة بين التوارق أنهم لا يمكن أن يتعاملوا مع قاتلي فلاترس"⁽¹⁾ وهذا ما تؤكدته ملفات تلك الفترة في مراسلة للحكومة العامة مؤرخة في 28 فيفري 1903: "رئيس ملحق عين صالح كان محقا عندما أشاع أنه لا يوافق أبدا على التعامل مع قاتلي فلاترس. هذا الموقف كان من نتيجته زيادة نفوذ موسى"⁽²⁾. يبدو أن الإدارة الفرنسية مستعدة لعمل أي شيء لتحويل التناقضات الداخلية للمجموعة المسيرة لصالحها بلعب موسى ضد اتسي، وأصبحت طرفا في الصراع بصفة غير مباشرة ، تدعم نفوذ الأول وتعمل على عزل الثاني. لم تتأخر النتائج، ففي شهر أوت وبعد محادثات ومساومات مع نظرائه وتشجيع من عمه خيار دخل موسى في اتصالات مع العسكريين الفرنسيين بعين صالح لطلب السلم والدخول إلى سوق عين صالح. رأت السلطات بسرعة في شخصه كمتعامل جيد، والقوة التي لابد من الاستناد عليها ضد سياسة اتسي. رغم أن الرائد Cauvet لم يثق في البداية بنزاهة إقتراحات موسى أق اماستان وهذا ما تؤكدته رسالة لابرين المؤرخة في 02 أكتوبر 1902: "أعتقد أنك تسلك طريقا خاطئا في موضوع موسى أق أماستان، زعماء كونتا ب تين بكتو يقدمونه كرجل كلمة... عند التوارق الزعيم ليس مطلقا، فهو يحتاج إلى مشاورات وإرسال مبعوثين وممثلين إلى مختلف المخيمات... تبدو لي رسالة موسى نزيهة ومن المؤلم أن تجمد الأشياء بصفة فجائية... في الوقت الحالي لابد من غلق الأسواق بجدية، ومن الأحسن أن تستأنف النشاط مع موسى إن كان ممكنا"⁽³⁾

¹ - Pandolfi, *op-cit*, P 49.

² - Ibid, P49.

³ - Pandolfi, *op-cit* P49.

من جهة أخرى استعملت الإدارة الفرنسية وبمهارة رجال الدين بـ "تديكلت"؛ الحاج بلو بالنسبة لـ كيل غزي، وسي مولاي عمر بالنسبة للشرفة، لم ينقصهم النفوذ في أهقار، وأكثر من ذلك تفرقهم خصومات داخلية، استفادت منها الإدارة الفرنسية وخلقت منها منافسة بين كيل غزي والشرفة من جهة، وبين كيل غزي وكونتا من جهة أخرى⁽¹⁾.

في 02 ديسمبر 1903 يكتب لابرين إلى كوفي "في تيديكلت هناك صراع بين بلو ومولاي عمر إذا كان "Metois متوا" يستطيع أن يجلب منه منفع، فسوف يسجل له هذا لوحده... بلو يريد موسى، مولاي عمر يساند افوغاس، إنه السباق"⁽²⁾.

في سنة 1903 يزور الحاج بلو أهقار بطلب من موسى وبموافقة قائد ملحق عين صالح الجديد Metois⁽³⁾. الهدف الضامر لهذه المهمة: استعمال نفوذه لدى كيل أهقار لمساندة موسى وإقناعهم على أهمية ذهاب هذا الأخير إلى عين صالح دون خوف للقاء السلطات الفرنسية وإمضاء معاهدة السلم. كان في مقدور موسى أن يتعامل مع الفرنسيين مباشرة لكنه يرى أنه من المنفعة أن يفهم ذلك لكل جماعته قبل أن يقوم بهذه الخطوة. بل بصفته كرجل دين من كيل غزي مؤهل بأن يلهم الثقة لـ كيل أهقار ويساعده بحيوية في تمرير فكرة الخضوع وإقناعهم على ان وصول الفرنسيين إلى شمال وجنوب الصحراء سوف يغير ظروف وجود الرجل بالصحراء ومن غير الجدوى مواصلة مقاومة غير متكافئة ولا يمكن تغيير "المكتوب". كان دائما

¹ -Bourgeot (A), *Les sociétés Touaregues, Nomadisme, Identité, Resistance*, Karthala, Paris 1955.

² -Pandolfi, *op-cit* P 50.

³ - عين خلفا لـ كوفي Cauvet في 09 أفريل 1903.

يقول لهم "فرنسا لا تريد سوى السلام وإزدهار البلاد"⁽¹⁾ وانتهاز كل الفرص لإظهار المنافع المختلفة التي استفاد منها القصوريون بتيديكلت بعد خضوعهم.

مازال موسى يخشى معارضة بعض النبلاء النافذين من محيطه، خاصة أخ امنوكال انابا اق املال، هذا الأخير أيضا لم يلق السلاح، كان مصرا على المقاومة بأي ثمن وإلى ذلك الحين لم يعتبر موسى بعد قويا بما فيه الكفاية لمواجهة معارضيه بصورة علنية، يفضل التأجيل والعمل بالحيلة والانتظار لفرض إرادته في الوقت المناسب. من جهته بلو لا يريد العودة إلى تيديكلت بكمية من الوعود.

وبالتوازي مع هذا العمل الدبلوماسي تستمر الدوريات والاستطلاعات العسكرية بين عامي 1902-1903 من طرف العسكريين كمناورات لتصعيد الضغط تحت التعليمات الجديدة للقائد لابرين. نذكر منها:

1 - دورية Lt.Lohan بين أكتوبر وديسمبر 1902 زار أهم مراكز أهقار واجتاز اتكور لأول مرة.

2 - دورية الملازم Basset بين جانفي ومارس 1903 استطلع خلالها مويدير وتقدست، كان هدفه الأساسي الوصول إلى مخيمات مساندي اتسي المقيمين بالجنوب الشرقي ل أمقيد.

3 - دورية Lapperine أبريل 1903، وصل إلى غاية ان ازيز مرورا ب مويدير واهنت.

بالإضافة إلى أهميتها العسكرية لمعرفة الميدان، وسط صدمة معركة تيت، فإن هذه الاستطلاعات قد أظهرت ل كيل أهقار عدم حصانة أراضيهم

¹ -Lehuraux (C), *Les français au sahara, 1937*, Op-cit P 146.

وجاءت لتنفيذ السياسة المعلنة تجاههم؛ سياسة الانغلاق والإقصاء تجاه المعارضين وانصار اتسي من جانب، الإنفتاح والتفاهم مع الموالين لموسى أو المحايدون من جهة أخرى.

والنتيجة كما لخصها الملازم Lohan: "الخيبة كانت كبيرة لدى المتمردين، خاصة عند كيل تايئوق الذين يؤيدون اتسي ويقيمون معه، عرفوا أنه لا ملجأ لهم الآن من ضرباتنا. لقد بدأوا في فهم سلبيات عزلتهم بعد أن كانوا يظنون أنهم منيعين... هذا الانطباع قلل كثيرا من نفوذ اتسي الطرف المتبني للمقاومة"⁽¹⁾.

بالإضافة إلى كيل تايئوق رجعت الكثير من مجموعات اسقمارن (كيل تقدست، كيل امقيد، كيل انغر) الموالين أيضا لـ اتسي في الشرق، إلى أراضيهم المعتادة، ولا خيار لهم على قبول سلطة موسى اق اماستان، وأصبح كل شيء جاهزا للمرحلة القادمة؛ الخضوع والعزل النهائي لـ اتسي.

ب- المعاهدة الأولى : عين صالح 1904

على مثال امنوكال فهرون الذي أقر خضوعه عام 1903 للسلطات الفرنسية بـ تين بكتو، وصل موسى في جانفي 1904 إلى عين صالح على رأس وفد هام من ممثلي كيل أهقار لتقديم خضوعه أين استقبله رئيس الملحق النقيب Metois الذي لم يصدق ما يحدث كما كتب إلى كوفي Cauvet: "موسى اق اماستان في عين صالح الوعد الأزلي قد تحقق مؤكدا توقعاتك، ستسمح لي إذن في هذا الظرف ان أكون أول من يبعث لك التهاني"⁽²⁾.

إنتهى اللقاء بعد مفاوضات عبر عنها ميتو Metois قائلا: "...مفاوضات سهلة، لقد حررت على شكل تعليمات لـ امنوكال التوارق،

¹ - Pandolfi, op-cit P 51

² - Metois (F-A), la soumission du touaregues du nord 1904-1906 , gandini, Clovisson ,1955 , (1er 1906) Page 33

اللقب الذي اعترف به لموسى، ملزمات الحكومة الفرنسية. موسى يقبلها كاملة ولم يطلب سوى تغييرين...⁽¹⁾.

يحمل هذا الملف عنوان "تعليمات صادرة من طرف النقيب ميتو رئيس ملحق عين صالح باسم الحكومة الفرنسية لـ موسى اق اماستان امنوكال الهقار مطالعا إياه بالشروط التي تقبل عليها مساهمته "ويحتوي على عشرة شروط كالآتي⁽²⁾:

1- سيمارس موسى اق اماستان حكم كل اراضي أهقار والمناطق التابعة له. وسيضمن حرية وأمن المسافرين الآتين من فرنسا أو من المناطق التي خضعت لها. يمكن لعبد يحمل ذهابا على رأسه أن يعبر أهقار بكل أمان.

2- يمنح لـ موسى برنوس التقليد وطابع، مثل باقي "قواد Gaides المناطق الخاضعة،

لكنه يحتفظ بلقب امنوكال، بمشاركة الجماعة تبعا لما هو معمول به في بلده.

3- سيكون رئيس ملحق عين صالح وسيطا لإيصال الأوامر من الحكومة الفرنسية والطلبات المكتوبة من طرف موسى اق اماستان سواء بإسمه أو بإسم أهله.

4- يقدم موسى اق اماستان لرئيس ملحق عين صالح قائمة كاملة للقبائل والفصائل والمجموعات الخاضعة لحكمه والمخيمات التي تسكنها في العادة.

¹ - Ibid , p 34

² - Pandolfi, op-cit P 52

لن تقوم الحكومة الفرنسية بأعمال عدائية في كل الأراضي المحددة وكل الفصائل المسماة (المسجلة)، يمكن للسكان بالنتيجة أن يتقربوا إلى المخيمات العسكرية أين سيرحب بهم، ويمكنهم أن يبيعوا منتجاتهم للجنود

5- كل مخالفة للشروط تخرج عن المادة السابقة يشار إليها من طرف موسى اق اماستان إلى رئيس الملحق إذا صدرت من عسكري، ومن طرف رئيس ملحق عين صالح إلى موسى اق اماستان إذا صدرت من رجال موسى، يعاقب الذي يدان.

6- إذا تجاهل رجل من اموهاغ سلطة موسى اق اماستان فإن على هذا الأخير أن يبلغ الملحق الذي سيتمكن حينها من معاقبته.

7- يمارس موسى وأهله بصفة عامة الشرطة في بلده، وفي حالة ما إذا كان في مواجهة عدو يكثره عددا، فعليه أن يخبر رئيس الملحق الذي سيساعده في حدود ما بحوزته من القوة

8- لتأكيد التعاون المتين أمام الجميع بين رئيس الملحق بعين صالح وموسى اق اماستان لحماية التجارة والتمسك بالسلام، فإن الرجال الذين يخدمون موسى وينفذون أوامره الأمنية، ويعملون كوسطاء مع رئيس الملحق؛ يتلقون من طرف الحكومة الفرنسية منحة شهرية تقدر بـ 15 فرنكا.

يحدد عددهم حسب المبلغ الذي يقبل من طرف الحكومة الفرنسية. ويمكن لرئيس الملحق أن يكافيء الذين يثبتون امتيازهم بالإقدام ويمنحهم بندقية دولة مع ذخيرتها.

9- يستقبل اموهاغ بود في كل الأراضي المجاورة لـ أهقار والخاضعة حاليا لفرنسا، ويمكنهم التخلي عن كل عمل عدواني. يعلم رئيس الملحق لموسى اق اماستان عن كل تغير يمكن أن يطرأ في الحالة السياسية؛ مثلما

سيعلم رفقاءه بتين بكتو، قاوة، تاهوا وزندر، بأن أهقار الآن في سلام مع فرنسا، وان سكانها سيستقبلون بالنتيجة في كل مكان.

10- لتسهيل العلاقات بين أهقار وتديكلت يلتزم رئيس الملحق بإنشاء قرية في تاجموت اين يمكن لحراطين أهقار أن يمارسوا الفلاحة، وتنفذ أعمال تهيئة أراضي الفلاحة.

إن الأهمية التاريخية والرمزية لهذا اللقاء أكيدة فهي تثبت الإطار السياسي الذي تمت فيه، ويعتبر بمثابة الخطوة المبدئية الأساسية لولاء موسى للسلطات الفرنسية، مقابل الاعتراف به ك امنوكال ل أهقار.

لكن رغم الأهمية البالغة لهذه الخطوة إلا أنها بعيدة عن تسوية المشكل، لأن القاعدة التي اتبعت لإجراء المفاوضات بين النقيب متو وموسى لم تكن في الواقع خالية من الغموض.

لقد عين موسى اق اماستان ك امنوكال ل كيل أهقار بينما في هذا الوقت لا يمكنه ان يتبنى هذا اللقب الذي لم ينتخب فيه. امنوكال الشرعي الوحيد والمنتخب من طرف كيل أهقار هو دائما اتسي اق أملال، وفي هذا التاريخ مازال هذا الأخير يمثل قوة سياسية مهمة بأهقار.

بينما يبقى تابعا سياسيا وخارجيا للسلطات الاستعمارية، منح لموسى استقلالا ذاتيا مهما؛ يتعامل مع الإدارة الفرنسية كقائد (النقطة 2)، بينما يتعامل داخليا مع أهله ك امنوكال وهذه اولى بوادر نزع صلاحيات امنوكال السيادة الهامة:

1 التمثيل الخارجي للكونفدرالية

2 القرارات المتعلقة بالعلاقات الخارجية والدفاع.

وانحصر إلى وظيفة صغيرة قائد فقط "مثل باقي القواد" يمارس مهام الشرطة. كتب متو في تقرير لقاءاته مع موسى إلى لابرين في 10 فيفري 1904 يقول: "اضفت ان الحكومة الفرنسية لا تريد سوى الخير لإموهاغ وانها ستتركهم يسيرون انفسهم داخليا كما يريدون"⁽¹⁾ اذن فالإدارة الفرنسية وعلى مستوى عال خططت لحكم الإدارة غير المباشرة استثناء.

وبدأت تتدخل في سياسة كيل أهقار قبل حتى ان تستقر في بلدانهم. كما نلاحظ أيضا عدم وجود أية إشارة إلى كلمة خضوع كيل أهقار، ولقد تم تجنب أي نوع من الضرائب ولو رمزية كما كانت الإدارة الفرنسية تعمل مع الخاضعين لها عادة، قد يعود ذلك إلى تخوفهم من أن تستغل من طرف اتسي ومسانديه لإبطال الإتفاق.

وتبقى الخطوة العملية الأساسية هي حرية المرور والتجارة (النقاط 1، 4، 9).

وفي الواقع كان هذا الغموض مقصودا من طرف النقيب ميتو الذي يشرح في رسالة مرفقة لهذه النقاط إلى لابرين: "حصلنا دون شك في هذه الظروف الحالية على خضوع ضيق تضمنه هذه الشروط المرفقة، لكن للحصول على خضوع أكبر، لا بد من تعليق كل الأعمال العدائية المحتملة (ضد التوارق) لا يبدو لي أن هذه هي نية الحكومة حاليا، بحثت إذن عن حل مؤقت، بحيث لا يمكن أن يدوم طويلا كحال التردد على ما نريد فعله بالصحراء (...). لقد رأينا من جهة أخرى النتائج التي يمكن أن تصدر من التسرع والعجلة... التوارق يمثلون إحدى الشعوب المهيبة، حتى لا نقول الأكثر مهابة، ولكي لا نضر بنفوذ الزعيم الحالي (موسى) علينا في البداية

¹ - Pandolfi, op-cit P 53

أن نتوضع في الحماية التي نمدد بها إياه. تلك هي الأفكار التي استلهمتها في هذه الظروف، وأؤمن بها فقط في هذه الأوان ولا أخفي أنها ستنتهي في اليوم الذي لا نتراجع فيه لإحتلال أهقار⁽¹⁾

إن هذه السياسة الحذرة تبرر الوضعية السياسية السائدة في أهقار، إذا كان يبدو نفوذ موسى اق اماستان يزداد أكثر فأكثر، فإن اتسي ومؤيديه بعيدون كل البعد عن الاستهانة بهم في القوة، وكل خطأ يمكن أن يؤدي إلى زيادة حجم معسكرهم والخط السياسي الذي يمثلونه، ومازال هناك احتمال استعمال القوة ضدهم في حالة ما إذا لم يستطع موسى السيطرة على مقاليد السلطة، والإجماع من طرف أغلبية زعماء قبائل أهقار.

بالإضافة إلى هذا الغموض، فإن عدد اكبيرا من المسائل قد بقي دون إجابات نهائية؛ كموقف السلطات الاستعمارية تجاه شخص اتسي، مشكل افوغاس، العلاقات بين كيل غلا وكيل تايثوق الذين رفضوا التعاون مع الفرنسيين وعدم تسديد الضريبة، والاعتراف بسلطة موسى⁽²⁾، وبين كيل أهقار وكيل أزجر... والكثير من المشاكل التي ستواجهها لاحقا سلطات عين صالح، خاصة النقيب دينو أثناء دوريته الإستطلاعية سنة 1905

ت-المعاهدة الثانية تمنراست 1905:

وجه لابرين انتقادات شديدة للقاء عين صالح شكلا ومضمونا. خاصة وأن ميتو يعد منافسا له وعلى خلاف معه في مستويات مختلفة ولا سيما السياسة المتبعة تجاه سكان الصحراء الوسطى، من بين أهم الانتقادات⁽³⁾:

¹ - Pandolfi, *op-cit* P, 54

² - Pandolfi « de l'origine d'un nom à l'histoire d'une tawsit : les Ikkeshshemaden » in *Cahier de IREMAM*, N°04, 1993, P 29.

³ - Pandolfi , « In Salah1904/tamenrasset1905, les deux soumissions des touaregues Kel Ahaggar », *op-cit* P 59.

- أنه لابد من التعامل مع كيل أهقار بعد "تيت" كمنهزمين، وعليهم الخضوع طوعا أو كرها، كيف إذن يعتبر موسى كمثل لمجموعة منهزمة عسكريا ويحتفظ في نفس الوقت بإستقلال سياسي؟.

- عدم فرض الضرائب للحكومة الفرنسية كـ "رمز للخضوع" إذن بالنسبة لـ لابرين والضباط الذين يتبعون خطه السياسي، فإن لقاء عين صالح بعيد كل البعد على أن يشكل خضوعا حقيقيا، وبالعكس من ذلك يرون أن موسى إستطاع أن يقدم نفسه في لقاء عين صالح كمنتصر حقيقي، ومن ثمة يهدف هذا الانتقاد إلى فرض نظرتهم الخاصة لسياسة الإستعمار. لهذا الغرض قام لابرين بدوريته (مارس - جويليه 1904) لأنه رأى "أن لا بد من زيارة القبائل التي خضعت مؤخرا، لأعين في نفس المكان مدى إخلاص خضوعهم"⁽¹⁾، لكنه لم يلتق بموسى اق اماستان ظنا منه ان ميتو قد منعه.

يكون موسى قد لاحظ شدة التعارض بين ميتو ولابرين، فابتعد للإقامة في أضاغ وتجنب أي إتصال مع الفرنسيين، لكن النقيب دينو يرسل إليه ويذكره بلهجة شديدة في أفريل 1905 على محتويات لقاء عين صالح قائلا: "كيف. لقد مضى أكثر من عام على ترحيب السلطات الفرنسية بك، واستقبلتك كابن لفرنسا ولم تبحث سوى عن الابتعاد، ومضاعفة المسافة بيننا. فماذا تخشى إذن؟ ألا تفهم مصلحتك ومصلحة أهلك؟ (...) لكن أعلم جيدا أننا لم نمض معاهدة بين قوتين:

لقد قمنا بهذا لأن التوارق الآن موضوع للحكومة الفرنسية"⁽²⁾.

¹ - Lapperine (H) , (une tournée dans le sud de l'annexe de Tidelet) , Op-cit, Page 37

² - Panadolfi, Op-cit, P 72

بما أن عين صالح لم تشكل خضوعاً حقيقياً، ولأن موسى عرف كيف يستغل غموض الاتفاقية وخلافات الإدارة الفرنسية الداخلية، فمن المنطقي أن يرى لابرين وأتباعه الضرورة القصوى للحصول على خضوع "حقيقي" لكيل أهقار وإفهامهم بصفة جلية. وأكثر من ذلك يخشى هؤلاء أن يجلب جيش إفريقيا الغربية الفرنسية (AOF) موسى إليهم، ويخسرون كل شيء.

كان الجميع يعلم حينها أن موسى وبحكم تنشئته وتربيته، يتمسك بإفوغاس (في أضاغ) أكثر من غيرهم. بينما كان هؤلاء قد ألحقوا إلى إدارة جيش (AOF).

يذكر ميتو أنه عندما كان بلو بأهقار في مهمته التحضيرية، كان قد استدعى موسى إلى إدارة ادرارن - فوغاس من طرف أحد كبار زاوية كونتا السيد حمادي ليحدثه عن خضوع افوغاس لسلطات تين بكتو، التي لن ينجو كيل أهقار من ضغوطاتهم في حالة ما إذا خضعوا لإدارة عين صالح العسكرية، بينما إذ قدموا خضوعهم لسلطات تين بكتو، فإنهم سيكونون في ملجأ من أي أذى.

من جهته يبدي لابرين تخوفاً مشابهاً في رسالته إلى Cauvet مؤرخة في 20 مارس 1905 أكثر من عام على لقاء عين صالح: "لقد انزعجت كثيراً من اختفاء هذا الأخير (موسى) في تين بكتو، أين قضى كامل شهر ديسمبر 1904... أريد أن أعرف تماماً عن ماذا تم الحديث هناك. أعتقد أنهم وعدوه بمنحة كي يمضي لهم ورقة خضوع في تين بكتو، والتي سيخرجونها في باريس ليؤكدوا أن لقاء عين صالح لم يكن سوى مجرد

زيارة عادية. والواقع يظهر لي أنه مرتبط بافوغاس أكثر من كيل أهقار وكيل أزجر⁽¹⁾.

عجلت هذه الظروف مجيء دينو رئيس الملحق الجديد * إلى الأهقار في دوريته سنة 1905 لتأكيد خضوع كيل أهقار دون أي غموض وإلحاقهم لإدارة الشمال بلا رجعة.

لم يكن دينو في البداية متأكدا من الموقف الذي سيتبناه موسى. لذلك لجأ إلى تغذية الخلافات الداخلية واستغلالها؛ لقد استعمل التنافس الموجود بين موسى وسيدي اق كرادجي زعيم تايثوق، لجلب امنوكال المعين سابقا وإلحاقه بالسلطات الشمالية. يكتب دينو في تقريره: "لقد خضع سيدي في أمل إزاحة موسى منذ مدة طويلة... لقد إستغلناه فقط كي نجعل موسى يقرر التقرب إلينا، ولوقف الهجومات التي يقوم بها كيل تايثوق"⁽²⁾.

في 28 جوان 1905 أقيم حفل تتصيب أولي بـ ان ازول In ouzoul جمع بين دينوا وموسى اق اماستان وزعيم تايثوق اق كرادجي وعدد من أعيان أهقار. أكد خلالها دينو جملة من النقاط كان معظمها إعادة لإجراءات لقاء عين صالح الهدف منها محو آثار ميتو ولا سيما النقطة الأولى والثانية:

- تأكيد لقب امنوكال لـ موسى اق اماستان، وتقليده البرنوس الخاص (بالقيادة)

- اقترح على موسى طابعا جديدا. في الواقع كان ميتو قد منح لموسى طابعا يحمل الكتابة التالية "Amenokal des Imouhar" دون أية توضيحات أخرى. أما الطابع المقترح من طرف دينو فكان؛ بالفرنسية: يحمل عبارة "Amenokal du hoggar" * moussa ag amastane وبـ تيفيناغ: يحمل نفس

¹ - Pandolfi, Op-cit, P 73

² - Dinaux (cap), rapport de tournée, BCAF, renseignements coloniaux, 1907 p 47.

المعنى "OX/II:OZ I+OZ OZ" واخيرا بالعربية: "موسى اك امستان امنوكال هكفار"

لقد لاحظ موسى هذا التغير السياسي، وسأل دينو عن مغزى تغيير الطابع الذي أعطي له في عين صالح ؟ "كنت مجبرا - كما يقول دينو - على أن أشرح له بأن ما أقوم به ليس من أجل تصغير قوته ونفوذه أو عدم رغبتنا في مساندته وإنما لتفيذ رغبة لابرين"⁽¹⁾.

لم يشر دينو في هذا اللقاء أيضا إلى أي نوع من الضرائب، اكتفى فقط بالقول أنه سيتم التطرق إلى شروط هذا الخضوع بأهقار في حفل رسمي.

الحفل الرسمي:

في يوم 25 أوت 1905 اجتمع دينو في تمانراست مع أغلبية أعيان أهقار؛ محمد اق عثمان، اخموك اق اهماء، سوسي من كيل غلا، بالإضافة إلى ممثلي قبائل؛ داق غالي، اجوه-تهلي، كيل تازولت، ايت لواين. تم إعادة المراسيم الاحتفالية نفسها (التعيين، البرنوس..)، لكن النقاط المهمة الجديدة هي إعلان دينو عن فرض الضرائب. فمن هنا فصاعدا على كيل أهقار أن يدفعوا توسي TIWSE لـ موسى اق اماستان (بدل اتسي)، وضريبة أخرى رمزية للحكومة الفرنسية، لم تحدد قيمتها لكن دينو يطمئنهم أنها ستكون خفيفة "لأننا. كما يقول نعرف وضعية البلاد وحالما تحدد سيتم تقسيم ملزمات كل قبيلة وفصيلة بأهقار من طرف موسى"⁽²⁾. أعلن دينو عن هذه الضرائب رغم إلحاح موسى على تأجيلها بعض الوقت لأنه يخشى أن يرفضها كيل أهقار وتستغل من طرف خصومه.

¹ - Pandolfi, op-cit P 74 .

² - Pandolfi, op-cit, P 74

لكن ذلك كان أحد أهم أهداف مهمة دينو لتنفيذ خطة لابرين الذي كان صارما في هذه النقطة: "لا بد من توضيح خضوع موسى اق اماستان في عين صالح، والإقرار بأن هذا خضوع وليس تحالفاً، ولا بد من جعل القبائل تقبل ضريبة خفيفة كرمز للخضوع".

الموقف المتخذ تجاه اتسي

من الغريب أن لا يتم التطرق إلى شخص اتسي في لقاء عين صالح رغم أنه كان في ذلك التاريخ هو امنوكال-ن- أهقار الشرعي ويتمتع بمكانة كبيرة لدى عدد من الأعيان والحلفاء، نستطيع أن نتساءل هنا هل يعقل أن لا يتم التطرق إلى شخص له وزن بهذا الحجم في موازين القوة والسياسة في أهقار؟ ام أن السلطات الفرنسية تعمدت إخفاء حقيقة المحادثات حول اتسي؟. من الواضح أن السلطات الفرنسية عملت على عزله وغلقه في دور المعارض كخطوة أولى دون التورط في مواجهته. وكأنها تعمل على مساومة ضمنية؛ سكوته وتنازله عن منصب امنوكال مقابل الأمان وعدم المتابعة. إذ تؤكد بعض المصادر⁽¹⁾ أن ميتو قد ضمن لموسى في لقائه الأول عدم متابعة اتسي.

بقي كل شيء سرياً إلى غاية سنة 1950 عندما صدر مقال لـ ميتو يخرج عن تحفظه العسكري (التاريخي) والسياسي واصفا بداية لقائه بموسى في عين صالح: "... أخذ موسى الكلمة أولاً، ليحدثني عن اتسي، الذي لم يكن سوى ممثلاً له"⁽²⁾.

¹ - Gautier , op-cit P 11

² - cite in Pandolfi , op-cit P 62

أخفت الإدارة الفرنسية هذه الحقيقة حتما لأنها لم تكن لصالحها، لكن هذا يعصف بمصادقية كل السيناريوهات الواردة في هذا المجال وعلى الخصوص المنافسة بين موسى واتسي وعن الموقف إزاء السلطات الفرنسية بعد معركة تيت.

رغم المحاولات العديدة لبعض المتطوعين للوساطة بين اتسي والسلطات الفرنسية إلا أن ممثلي هذه الأخيرة تمادوا في إقصاء وتجاهل اتسي، إذ حاول الصغير اق بدة عدة مرات تنظيم لقاء بين اتسي و Roussel أثناء دوريته بأهقار في سبتمبر 904، لكن هذا الأخير رفض تنفيذاً لأوامر وسياسة لابرين الذي كان واضحاً في موقفه تجاه اتسي: "... يبقى اتسي دائماً على رأس أعدائنا اللدودين... ليس لنا ما نفعله مع اتسي، بالأحرى هناك شيء واحد يمكن فعله؛ إطلاق الرصاصة عليه إذا ما أتيحت لنا الفرصة⁽¹⁾ وهذا موقف يتعارض تماماً مع الموقف السري الذي اتخذته ميتو تجاه اتسي. يبدو ان الصراع بين موسى واتسي لم يكن سوى نتيجة لسياسة استعمارية تترجمها الخلافات الشخصية بين ميتو ولابرين.

نقاط أخرى

بالإضافة إلى هاتين النقطتين فقد تطرق اللقاء إلى موقف الإدارة الفرنسية تجاه كيل أزجر، ضرورة السلم الاستعماري مع استئناف التجارة ومواضيع أخرى عديدة تؤكد كلها بداية الخضوع الحقيقي لـ كيل أهقارو زعيمهم الوحيد موسى لفرنسا بدون غموض.

¹ - Pandolfi , op-cit, P 64

لم يكتف دينو بهذه الإلتزامات النظرية فقط، لكنه تعمد مباشرة أن يظهر لـ كيل أهقار أن للخضوع نتائج وإنعكاسات ملموسة: لقد منع موسى من الذهاب إلى أضاغ ثم صادر بعض جمال داق غالي.

لم يصدق موسى ما حدث، إحتج ولكن دينو أفهمه "أننا لا نمر هنا كسواح... لابد أن يؤكد الخضوع بأفعال" ثم يتحدث عنه ويقول: "أعتقد أن موسى يعتبرني مزعجا، لأول مرة نتحدث عن الضرائب، ونمارس العمل السلطوي، و نمكث في البلاد"⁽¹⁾.

لا خيار أمام موسى الآن إلا التنازل لكل مطالب دينو الذي كان سعيدا بتقديم نتائج لقاء تمرست إلى رؤسائه: "باختصار: تم تعيين موسى في لقب امنوكال وفرضت الضريبة المبدئية التي تدفع للحكومة الفرنسية، الأمن للجميع، التجارة الحرة لأسواقنا، إعادة الإستيطان، السلم زيادة الإطمئنان بفضل الأمان... إضافة إلى النتائج المحصل عليها في أدرار (أضاغ) لدى أنابا*، وكيل غلا. يؤكد كل هذا على أن أهقار قد أصبح الآن في أحسن الأوضاع وقام بعقد حقيقي وواقعي للخضوع العام"⁽²⁾.

بعد هذا الخضوع بمدة غادر امنوكال المنتخب اتسي أهقار واستقر في أزجروساعد ذلك كثيرا في توسيع نفوذ موسى امنوكال المعين في العشر سنوات الموالية وكانت تمردات عام 1916-1917 بمثابة الإختبار الحقيقي لخضوع موسى، إذ شهدت هذه الفترة انبعاث كامل أوطان التوارق ضد الوجود الفرنسي؛ كاويسن في آير، فهرون عند إولمدن ب أضاغ، انقدازن وامود عند كيل أزجر.

¹ - Ibid P 75

² - Pandolfi, op cit P 75

2- في أزجر: عشرون سنة من المقاومة بين الخضوع واللاخضوع

أ- التصعيد:

لم يكن لمعركة تيت نفس التداعيات عند كيل أزجر. انهم يعتبرون أنفسهم أكثر حماية من جيرانهم في معالم التاسيلي ذات المسالك الصعبة كملجأ من جهة، ومن جهة أخرى فإن التواجد التركي بالشرق ونفوذ الزاوية السنوسية المعادية للفرنسيين على عكس الزوايا التي استغلتها سابقا، قد صعب كثيرا من حصول الفرنسيين على خضوع زعماء أزجر الرافضين منذ البداية للتوغل. لقد عبر امنوكال-ن- أزجر انقذازن اق ابكدا⁽¹⁾ للمغامر الفرنسي Foureau سنة 1893 انه ليس لديه أية عداوة ضد الأوروبيين ولكنه يفضل أكثر أن يبقوا في أوطانهم⁽²⁾.

ومن جهته السلطان أمود اق المختار يرفض بصفة مطلقة أي نوع من الإتصال مع الفرنسيين.

المعطيات مختلفة تماما عن ما هي عليه في أهقار.

إن معركة تيت جعلت كيل أزجر أكثر إثارة، وأصبحت جيوشهم تغامر إلى آلاف الكيلو مترات من قواعدها. في اهنت جنوب تيديكلت اين يتعرضون للقوافل المرخصة من طرف الفرنسيين، أو للخاضعين لهم فهم مثلهم كما يقولون والتي أصدروا قرارا لمنعها من المرور في أراضيهم، ومن فعل فإنه معرض للخطر.

في أبريل 1903⁽³⁾ يقود محمد أق اتوني هجوما على قافلة محروسة من جنود فرنسيين في منطقة حاسي مسقم. ثم على قافلة أخرى تعود إلى السيد:

¹ - ولد في حوالي 1863 (حسب فروو). 1853 (حسب Gardel). امنوكال منذ 1886.

² - Foureau, 1894, op-cit P 26.

³ - Gardel (L), les touaregues Azdjer, P 199

الحاج الحبيب من كيل غزي الخاضعين للإدارة الفرنسية منذ مدة، والقادمة من فقارة الزوى إلى غدامس، وفي نفس الشهر يهجمون على قافلة أخرى في منطقة تابنكورت تعود ملكيتها لاحد الزوى كذلك.

كما قاموا بتجمع كبير في معذر تارات ليبدوا-كما يؤكد قارديل- "استعدادهم للدفاع عن اية حملة يقوم بها الشعامبة بمعنى الفرنسيين في أوطانهم، وأبدوا نيتهم أيضا حتى لسلب جمال الفرق الصحراوية في مراعي تاهوليهوس شرق حاسي اميدير...⁽¹⁾.

استحال على سكان تيديكلت التموين كما في الماضي من التبادلات التجارية مع قابس، غدامس والسودان.

رأت الإدارة الفرنسية ضرورة القيام بعمل عسكري، فتصدر أمرا لعمليات استطلاع ل قوم ورقلة، التي نظمت من جديد من طرف Pein والسرية الصحراوية لتديكلت نحو أزجر بقيادة باسي Passet. كان هدف الأول يتمثل في ردع تجمع تارات، أما الثاني الذي غادر عين صالح يوم 19 جوان 1903، فكان البحث عن امنوكال اتسي، المقيم بافرا، اين قام بعمليات قتل ونهب وسلب⁽²⁾.

أصدر الحاكم العام للجزائر في نفس التاريخ قرارا يخص "مهمة تنسيق العلاقات مع كوندراية أزجر، يتكفل بها القائد الأعلى الجديد لدائرة توقرت الرائد Cauvet كوفي"⁽³⁾ والذي قام سابقا بخدمات تضمن نجاح النتائج التي سيحققها.

¹ - Ibid, P 199 .

² - Gardel (L), op-cit P 199 .

³ - Lehuraux , Les français au Sahara, op-cit P 211.

كان كوفي على اتصال دائم مع موسى اق اماستان، الذي كان في هذه الأثناء يقود حملته للخضوع رفقة بلو⁽¹⁾ القائد المنصب من طرف الضابط السابق، وبتشجيع من كوفي، توجه الإثنان إلى الشرق نحو أزجر لإقناع الزعماء بالخضوع. رغم أن بلو كان مترددا فقد أصبحت مهمته الآن معروفة، ويعرف موقف كيل أزجر إزاء من له صلات مع الفرنسيين، كان ذلك واضحا في رسالته إلى ميتو رئيس ملحق عين صالح قبل أن يذهب إلى أزجر: "لقد قمت بتضحية كبيرة في حياتي للنجاح في قضية تهمني، إن شاء الله ستتوج جهودنا بالنجاح إلا إذا جاء الموت وفاجأني قبل اتمام مهمتي"⁽²⁾ كان يعتقد أن موته حتمي.

يصل الوفد إلى غات، ليستقبلهم أمنوكال-ن- أزجر إنقازان، السلطان أمود وعدد من النبلاء، بالإضافة إلى أمنوكال-ن- أهقار أتسي. حاول موسى جادا إقناع إنقازان بكل السبل كي يذهب معه لإمضاء عقد الخضوع في عين صالح قائلا: "أذكر لي بلدا يمكننا أن نلجأ إليه معا، أين نجد سندا يمكننا من العيش في أمان مع ماشيتنا. أنا لا أرى وطننا آخر سوى وطننا، الذي نسكنه وعاش فيه أجدادنا. لذا سأقدم خضوعي للفرنسيين"⁽³⁾.

مد له إنقازان يده وهي ملفوفة بقطعة قماش وأجابه: "سنبقى دائما أصدقاء بقلوبنا لكن هناك حاجز يفصل بيننا مثلما يفصل هذا القماش بين أيدينا؛ إنه الفرنسيين"⁽⁴⁾.

1- إسمه الكامل الحاج أحمد بن محمد بلو.

2 - Lehurax , op-cit, P 149

3 - Gardel, op-cit, P 205

4 - Ibid , P 206

لم يتحصل موسى ومساعدته على أية نتيجة بل عومل بكثير من اللوم، وحذر كثيرا من نية "اكوفار" وقد لا يكون الأمر سوى فخ ونتائجه ستكون وخيمة للغاية.

في الأخير ألح عليه إنقذازن في حالة خضوعه أن لا يخدم فرنسا ضد أزجر، وألا يستهدف إلا الأمان.

بعد هذا الفشل قرر الرائد Couvet تغيير الإستراتيجية، وهي مصادرات أو "سرقة أملاك كيل أزجر من المواشي لصالح من يحكمهم"⁽¹⁾ في غزوات وهجمات سريعة. وهذه ضغوطات لجلب المعنيين إلى التفاوض والاستدراج. في خريف سنة 1904 قام "القوم" بعمليات السطو على قطعان كيل أزجر، وتوغلوا إلى غاية شرق غدامس، اسين وحتى إلى فزان، ثم رجعوا بالغنيمة إلى توقورت.

إذا كانت هذه العمليات قد جعلت الضحايا المعنيين يتجهون إلى الوادي لطلب استرجاع ماشيتهم سلميا وقبول شروط "الأمان" التي تملئها الإدارة الفرنسية، فإن ممثلي السلطة التقليدية يعلنون ولاءهم لسلطان القسطنطينية، كان امنوكال انقذازن متأكدا على أن الأتراك سيتغلبون على الفرنسيين.

إزاء هذا الإجراء اتخذت السلطات الفرنسية إستراتيجية أخرى لخصها لابرين كما يلي: "عند التوارق مازال نفوذ الطبقات النبيلة كبيرا جدا، إذن علينا في كل مرة نتاح لنا فيها الفرصة، أن نحتفظ بتنظيمهم الإقطاعي البدائي، أثناء الخضوع، لنغيره شيئا فشيئا، لأنه من الأسهل تغيير تنظيم موجود سابقا [...] من أن نخلق تنظيما جديدا، خاصة عندما يتعلق الأمر بإدارة ناس مازلنا قليلي الوثائق على عاداتهم وتقاليدهم، وهذا ما حقق

¹ - Lehuraux, op-cit, P 112

نجاحا كبيرا في أهقار، لكن مع الأزجريين Ajjeriens ليس الأمر كذلك؛ معهم ليس لدينا خيار النبلاء أعلنوا معاداتهم لنا بصفة مطلقة، وقاموا حتى باتفاقيات خضوع مع الأتراك. نحن مجبرون معهم باستعمال طريقة مغايرة، وهي تحطيم الكونفدرالية⁽¹⁾.

ويقترح أن يستدرج أزجر قبيلة قبيلة بعيدا عن تركيز السلطة [الحكم] في يد زعيم أهلي ويرى ضرورة "تعيين زعيم لكل قبيلة والذي يلحق للضابط الوحيد في الجهة إذا خضعت قبيلة نبيلة فإننا سنجد لها تعويضا مشرفا. وسنمنع أسواق السودان والجزائر لغير الخاضعين والمتمردين...⁽²⁾.

إن هذه الإستراتيجية معاكسة تماما للتي استعملت تجاه كيل أهقار، إذا كان موسى الشخص المناسب لقيادة كونفدرالية أهقار الخاضعة للحفاظ عليها فإنه لا بد من تفكيك كونفدرالية أزجر التي يرفض زعيمها إنقذازن الخضوع لفرنسا.

بعبارة أخرى: في أهقار الإنطلاق من القمة إلى القاعدة أما في أزجر فمن القاعدة إلى القمة.

إن فشل الإدارة الفرنسية لإيجاد زعيم موال لها في أزجر جعلها تبحث عن سياسة فرق تسد لضرب تماسك الهرم السلطوي للكونفدرالية وهذا بالتعامل مع القبائل بصفة منفردة ومجزأة لسحبها من التحالف التقليدي الذي كان سائدا وبالتالي الحد من نفوذ الزعماء وعزلهم على طريقة أنسي.

تبنّت السلطات العليا هذه الاقتراحات⁽³⁾. وحاول الضباط الفرنسيون تنفيذ تلك السياسة في عدة مناسبات مع مختلف القبائل

¹ - Lehuraux, op-cit, P 224.

² - Gardel, op-cit, P 243.

³ - Gardel, op-cit, P 243.

ب-خضوعات مؤقتة:

1 - كيل تاسيلي:

تمكن النقيب توشارد رفقة شيخ قبيلة إفوغاس عبد النبي أق علي. الذي يحظى باحترام كبير من طرف القبائل السابقة وبما أنه يساند مشروع فرنسا فقد وضع هذا الإحترام تحت تصرف السلطات الفرنسية، لا يتوانى في الذهاب وحده إلى المخيمات للحث على الخضوع.

وكللت مجهوداته بخضوع ثلاثة قبائل موالية:

اجراجرون، كيل توبرن، كيل أراس، تم هذا بتارات يوم 01 جانفي 1905، عين لهم قائدا واحدا سموه: قائد كيل تاسيلي وهو السيد "باخة أق أزوار" بفضل السلطة المعنوية التي يمارسها على القبائل وقد طلب من النقيب البرنوس والطابع⁽¹⁾. يقول توشارد عن هذه الخطوة: "هؤلاء الرجال سيصبحون وسطاء هامين في العلاقات بين الجزائر والسودان... إنها النتائج التي يجب البحث عنها، وعند الحصول عليها نكون قد قدمنا الكثير لتوحيد إمبراطوريتنا الإفريقية الواسعة، الوحدة [الربط] التي كانت منذ وقت بعيد هدفا لكل سياساتنا الصحراوية"⁽²⁾.

غير ان هذا النجاح غير مؤكد أو على الأقل غير تام، لقد نسي النقيب أن مراقبة القوافل وأمن الطرقات بيد القبائل المسيطرة وليس للموالين لهم، ثم إن هؤلاء تجنبوا فقط غضبه⁽³⁾، وما قد ينجر من ذلك.

سنتان بعد ذلك يصل الملازم الأول "كلور Clor" على رأس فرقة الشرطة المتنقلة لـ أجزر إلى مناطق كيل تاسيلي الخاضعين، فاكشف أن

¹ - Touchard (C), *op-cit*, P100.

² - Ibid, P 100.

³ - Lehuraux, *op-cit*, P 216.

الكثير منهم شاركوا في غزوات ضد الفرنسيين وأنصارهم، كما أن إوراغن يقومون بزيارات معتبرة عندهم، إذن فهم مازالوا تابعين لأهل السلطة التقليدية⁽¹⁾ ثم يمدون معلومات خاطئة لضابط المنطقة لا يمكن الإستفادة منها في الغالب.

في نفس السنة يجتمع لابرين بهم و يصفهم بما يلي: "إن حالة إمغاد الذين قدموا لنا خضوعهم مزرية للغاية... ونحن محتارون في سلبيتهم المطلقة. يرى موسى أن الفصائل لا يمكن أن تخضع بكاملها، وإن العائلات الأكثر حرمانا فقط هي التي يمكن أن تخضع بكاملها نظرا لاستحالة مغادرتها لـ أغرغارن"⁽²⁾.

في الاجتماع طرحوا عليه عدة أسئلة حول مصيرهم وقضية الحدود والمرور نحو الشرق فأجابهم لابرين "الحكومة الفرنسية في سلام دائم مع سلطان القسطنطينية لا يمكن للقيمقام في غات ولا للحاكم العسكري لمناطق الواحات أن يعالج مسألة الحدود ولا يمكن دراسة هذه المسائل إلا في باريس والقسطنطينية على أعلى مستوى"⁽³⁾. كان قلق كيل تاسيلي نابعا عن منعهم من المرور إلى مناطق رعيهم بالشرق بدون رخصة يصدرها لهم الفرنسيين، وإجبارهم فيما بعد على دفع الضرائب الرمزية للخضوع. رغم ذلك لم يتوقفوا عن الإتصال برؤسائهم التقليديين ومساعدتهم.

2 - كيل إهرير:

اكتشفت منطقة إهرير لأول مرة سنة 1907 من طرف الفرنسيين، إثر دورية "هالفن"، وكان زعيمهم خودي اق أحمد قد عبر لـ لابرين أثناء دوريته

¹ - Gardel, *op-cit*, P 246.

² - Gardel, *op-cit*, P 251.

³ - *Ibid*, P 254.

أنهم لا يريدون مغادرة أراضيهم مهما كلفهم الثمن، و لن يقدموا خضوعهم إلا للذي سيعترف به سيدا لأراضيهم. يصنف كيل إهرير ضمن الفصائل المسالمة حسب لابرين فهم "لم يقوموا بأي عمل عدواني لحد الآن ضد الدوريات"⁽¹⁾.

ثم يتلقى النقيب نيجر بممثلي هؤلاء في ديدر ليملي عليهم شروط الخضوع وإلحاقهم بقيادة برج بولينياك. قبل كيل إهرير الشروط ولكنهم رفضوا التحدث باسم القبائل، لأن خودي أق أخمد فقط المخول لذلك. ولكنه غائب، رحل منذ مدة إلى أهقار. كلفهم النقيب لإبلاغه حال وصوله ليلتحق به في أدمر. لكن يظهر أن خودي يصعب استدراجه وعليه لجأ النقيب إلى نموذج اتسي. موسى فيستدعي السيد تورة اق كاوين، ليوجهه ضد خودي، الذي يقال انه خصمه وأن أمود قد أقصاه من منصب أمغار لـ كيل إهرير لصالح خودي، ويقترح عليه النقيب الفرنسي إستعادة سلطته شرط أن يقنع أعيان إهرير للحد من نفوذ خودي الكبير⁽²⁾. في هذه الأثناء يرحل خودي إلى جانت لملاقة السلطان أمود لإستشارته حول الموضوع، وما ان سمع النقيب الفرنسي ذلك حتى أمر جنود فرقته في سهل أدمر لمصادرة كل ما يتعلق بملكية خودي من الماشية، للضغط عليه ومساومته فيما بعد.

أخيرا يحضر خودي ببرج بولينياك للقاء النقيب، ولقبول شروط الخضوع، واسترجاع ماشيته وماشية كيل إهرير خاصة. أما "تورة" فقد التحق بالمقاومين، ومهما يكن من أمر فإن كيل إهرير سواء الموالين لـ خودي أو تورة بقوا مرتبطين بالسلطان أمود، والذي يدفعون له "التوسى Tiwse"، ويبقى خضوعهم على شاكلة كيل تاسيلي مؤقتا ورمزيا. وليس له مفعول حيوي، لقد

¹ - Ibid, P 251.

² - Gardel, op-cit, P 259

تجنبوا فقط مضايقات واستفزازات الفرق الفرنسية. خاصة وأنهم مستقرون وبالتالي فهم هدف سهل في أي وقت.

3 - إجضانانرن:

يعتمد نشاط إجضانانرن أساسا على نقل البضائع وإعارة الإبل للقوافل العابرة للصحراء، لم يتخذوا بعد موقفا معلنا تجاه السلطات الفرنسية، صحيح انهم كما كتب الملازم هالفن أثناء دوريته 1907 "لم يشاركوا في الهجمات علينا من قبل لكنهم يقودون حملات، دعاية سرية ضدنا"⁽¹⁾ ويطالب الملازم أن يمنعوا من الحركة والتنقل إلى أهقار، ومن جهته موسى اق اماستان يطلب من السلطات الفرنسية أن تمنعهم من الذهاب والإياب بين جانت وأهقار، وتمنع الشيخ أمود واشد الموالين له؛ إجضانانرن وكيل جانت من الأسواق التي يسيطر عليها الفرنسيون في تديكلت والسودان⁽²⁾.

أصبحت مثل هذه الإجراءات إعتيادية للضغط على أية قبيلة لحملها على الخضوع ثم استعمالها كورقة تفاوض فيما بعد.

يتم اللقاء الأولي سنة 1909 مع النقيب نيجر بحضور خودي زعيم كيل إهرير، وأعيان من كيل جانت، كانت المقترحات الواردة كالآتي⁽³⁾.

- إمضاء إتفاقية الخضوع
- يعطى لكل أعضاء القبيلة الممضية حق السفر إلى كل مناطق التراب الفرنسي

- أن تستقر القبائل وترعى ماشيتها في أضاغ و أهقار.
- الحصول على رخصة حمل الأسلحة الخاصة بالأمن الشخصي.

¹ - Gardel, *op-cit*, P 253.

² - *Ibid*, P 256.

³ - *Ibid*, P 276.

أما في حالة الرفض، فتعتبرهم الإدارة الفرنسية متمردين وبالتالي يمنع عليهم أهقار وأضاغ، وتخضع قوافلهم المتجهة إلى السودان لإجبارية رخصة المرور من كتيبة سهل أدمر، وتمنع عليهم الأسلحة بصفة مطلقة حتى وإن كانت موجهة للأمن الشخصي، كما يمنع المكوث والرعي في الأراضي الفرنسية.

نلاحظ أن هذه الاقتراحات تبحث عن نقطة ضعف إجسانارن، كلها تعتمد على نشاط القوافل التي هي مصدرهم الاقتصادي؛ فهم يعتمدون على النقل ولا يمكن أن يمروا في غير الأراضي المحتلة كما لا يمكن أن تعيش جمالهم إلا بالكلا الموجود في نفس الأراضي المحتلة، لهم أيضا بعض الممتلكات في أهقار، وهم يرون أنفسهم يمنعون من مناطقهم ماذا سيفعلون؟. بعد شهر من الذهاب والإياب للمبعوثين، إلى مختلف الجهات، يقرر أمغارن- جسانارن السيد "كوسة اق ابيدج" إجراء المحادثات النهائية لإمضاء الخضوع مع النقيب، لكن هذا الأخير وبعد أن ضمن قبول مقترحاته، يضيف شرطا آخر: دفع ضريبة خفيفة كرمز للخضوع!

كان كوسة على قدر من الذكاء، رفض إعطاء إجابة آنية، لأنه لا يريد أن يعود إلى قبيلته حاملا شرطا جديدا يلزمهم دفع أموالهم. مسؤولية لا يرغب تحملها لوحده. طلب من النقيب أن يمهل بعض الوقت للتشاور مع أهله. قبل هذا الأخير على موعد ثمانية أيام بـ اسنديلن.

في بداية الأسبوع تحضر مجموعة من إجسانارن تمثل مجلس الأعيان وذلك يوم 31 جويلية 1909. يقبلون الشروط في نفس اليوم ويمضون إتفاقية الخضوع، لكن يبقى جزء منهم رافضا للخضوع تحت قيادة "الباشير أق ابيدج" أخ كوسة.

4 - قبائل أخرى:

في فترات وظروف مختلفة، قدمت بعض القبائل غير الحاكمة في أزجر خضوعات رمزية و مؤقتة للسلطات الفرنسية⁽¹⁾، نذكر منها:

- كيل تونين:

قادوا مقاومة شرسة ضد الفرنسيين لمدة طويلة، لكن في الأخير انضوى جزء منهم تحت لواء الفرنسيين بقيادة زعيمهم أمغار "محمد اق عبد الله".

- إمدوكاتن:

يقيمون في منطقة إفري مع بعض إجضانارن، ولا يتعدى عددهم آنذاك الثلاثين شخصا، لقد ربطوا خضوعهم بخضوع إجضانارن.

- كيل جانت:

ينقسم كيل جانت إلى ثلاث فصائل، تقيم على الثلاثة قصور العتيقة بجانت⁽²⁾.

كانوا قد شاركوا في مفاوضات الخضوع مع النقيب نيجر، وتم الاعتراف بالأعيان السابقين للأحياء وهم:

- مولود أق انقوخي كبير زلواز

- المختار اق ديدي كبير الميهان

- محمد اق ابلس كبير أجاهيل

إفوغاس :

تعود جذور هذه القبيلة إلى أضاغ⁽¹⁾، وقد إستقر جزء منهم منذ مدة طويلة، في مختلف مناطق كونفدرالية أزجر، تماسنين، جانت، اغرغارن، فيوت.

¹ - Gardel, op-cit, P 359.

² - أنظر: مرموري حسن، «التوارق المستقرون»، مذكرة نهاية ليسانس، جامعة الجزائر، 1992.

لقد لعب زعيمهم أمغار عبد النبي دورا كبيرا في خضوع قبيلته التي لم تظهر منذ البداية عداها للفرنسيين وشارك في الحملة الفرنسية للحصول على خضوعات قبائل أخرى، ذلك أن زعماءهم رجال دين موالون للزاوية التجانية، ومتأثرون بموقف إخوانهم في أضاغ 903، وموقف موسى أق أماستان سنة 1904.

لم ترتح السلطات الفرنسية لهذه الخضوعات، فهي على علم أن هذه القبائل والفصائل غير نافذة وليست لها سلطة القرار النهائي في الكونفدرالية، ولن تتمكن من تفكيك التنظيم السياسي التقليدي المتماسك كما يتمنى لابرين، وبالعكس ساعد تهديد القوة الجديدة على زيادة التحام العصبية. فرغم هذه الخضوعات يبقى نفوذ أمنوكال وممثلي السلطة التقليدية كبيرا وفي إنسجام تام مع مرؤوسيه ومواليهم من القبائل الأخرى. يصف ذلك قارديل قائلا: "في الواقع رعايانا التوارق [الخاضعين] هم أعداؤنا في نفس الوقت، تماما مثل غير الخاضعين والمتمردين؛ المقاومون يمرون عليهم ويجدون العون والعلاج والمعلومات الدقيقة حول النقاط التي يحتلها العسكريون"⁽²⁾. بقيت أهم قبائل "الرياسة"، نافرة من الإدارة الفرنسية وإلى تلك الأثناء ترفض القبائل التالية أي نوع من الخضوع:

- اوراغن:

وهي أهم قبيلة في الهرم السلطوي، ينتمي إليها انقدازن زعيم كيل أزجر الذي رحل منذ مدة إلى مرزوك، رغم مختلف الضغوطات التي تواجهها هذه القبيلة، والتي أضعفت قليلا من نفوذها وعدد المحاربين التابعين لها إلا أنها

¹ - Voir: Badi (D), *Les touaregs de L'adagh Des Ifoughas*, op-cit, 2000.

² - Gardel, op-cit, P 260.

ترفض الخضوع "وربما لن يخضع زعيمهم انقدازن إلى الأبد"⁽¹⁾. وهذا ماحدث.

- إمان:

رغم أن عددهم قليل جدا، ولا يمكن أن يشكل مجموعة مقاتلين، إلا أن للسلطان أمود نفوذا وقدرة كبيرة لتجنيد نصف سكان أزجر مرة واحدة. وكما نعلم فهو يرفض أي إتصال مع الفرنسيين، ويبقى بعيدا عنهم دائما.

- إمنغساتن:

تقيم هذه القبيلة عادة شرق غدامس، و يمثل الشيخ اوفنايت اق موسى الشخصية الأكثر نفوذا بعد مقتل محمد أق آدة من طرف الفرق الفرنسية التي يعاديه.

- إمقرغسن:

يترددون في مناطق مساك،تهموتين وتاملات، وهم أشد القبائل عداا للفرنسيين، وضخوا بالكثير من رجالهم في هجومات المقاومة ضد الفرق الفرنسية.

قبائل أخرى:

إلى جانب هذه القبائل يضاف بعض المنشقين من القبائل الخاضعة كأفراد أو كمجموعات، ولنذكر منهم إجضانارن، كيل ان تونين، وكيل جانت الذين غادروا الواحة نحو الشرق للالتحاق بالشيخ أمود.

يمكن إعتبار إستراتيجية لابرين لا تكفي، وأكثر من ذلك يدخل الأتراك مجرى الأحداث ويتطلعون الى أطماع ومصالح أيضا في هذه المناطق وحتى في المناطق التي تعد خاصة للفرنسيين.

¹ - Ibid, P 327.

بين الخضوعات المؤقتة للموالين، والخضوعات النهائية للزعماء، تبقى أمام السلطة الفرنسية ثلاثة خيارات للسيطرة على أزجر:

- 1- تسوية الوضعية مع الأتراك
 - 2- البحث عن الإتصالات مع الزعماء
 - 3- القضاء على أهم الزعماء والأعيان كما يقترح قارديل⁽¹⁾.
- بين هذا وذاك واصلت الإدارة الفرنسية سياستها بين القوة والدبلوماسية وانتهاز أي فرصة تتاح لها.
- أما السلطة التقليدية فأمامها خياران:
- أولهما: الدخول في علاقات مع الإدارة الفرنسية للحفاظ على هيكلها رمزياً.

- ثانياً: المواجهة والمناورة، واستغلال نفوذها والاستفادة من التواجد التركي والسنوسي في الأراضي الشرقية لأزجر التي تبقى المنفذ الوحيد الذي لا تجتازه الفرق الفرنسية المسلحة.

نتج عن هذا التصادم بين دولة قوية وعصبية تقاوم من أجل البقاء أحداث معقدة ومثيرة، استغرقت وقتاً طويلاً، إنتهى إلى تحديد مصير كيل أزجر إلى الأبد.

ت-الأتراك والمنطقة المحايدة:

يعود تواجد الأتراك بأزجر إلى سنة 1875⁽²⁾، عندما استدعاهم اخنوخ امنوكال المعروف بحكمته الكبيرة، وذلك لمساندته في مجابهة التوغل الأوربي، وحملات كيل أهقار⁽³⁾. لكن الأتراك مكثوا بمدينتي غدامس وغات،

¹ - Gardel, op-cit, P 327.

² - Lacroze (E-Raynaud), *Mehariste au combat-Djanet*, Ed.France empire Paris,1983 P 165.

³ - Lhote (H), *le hoggar espace et temps* , 1984 P 195.

ونشرت فيها حاميات دائمة، كانت إحداها هدفا لهجوم قاده يحي خليفة امنوكال آزر سنة 1886 ليخرجها من غات. لكن يعود الأتراك بحامية أخرى بعد أشهر من ذلك ليستقروا مجددا.

وكانت طرابلس الغرب (البييا) آنذاك الولاية الوحيدة التي بقيت من الأمبراطورية العثمانية في إفريقيا، فقد احتلت فرنسا الجزائر 1830، تونس 1881، وبريطانيا لمصر سنة 1882.

ورغم بقاء الحاميات المذكورة في المدينتين إلا أنها لم ترق إلى تمثيل أعلى يمكنها من التدخل في شؤون السلطة التقليدية والعلاقات السياسية مع جيرانها وحقوقها من الضرائب، وحركة تجارة القوافل في كل من غات وغدامس.

بقيت الأمور على ذلك إلى غاية 1905 ليحتج سلطان القسطنطينية مستندا إلى الاتفاقية الإنجليزية-الفرنسية لـ 05 أوت 1890 ضد مناورة توشارد، ويطالب بملكية مدينة جانت التي أصبحت موضوع نزاع فرنسي- تركي منذ تلك اللحظة⁽¹⁾

تخوف كل من السلطان أمود، امنوكال إنقازن، اوفنايت زعيم إمنغساتن من عودة "النصارى" إلى جانت فراسلوا قيمقام غات "المسلم" ليطالبوا منه "إرسال حامية تركية إلى جانت لتستقر بها بصفة دائمة"⁽²⁾.

يحول القيمقام الرسالة إلى سلطات طرابلس، التي أرجأت الأمر إلى حين تسوية الوضعية مع الفرنسيين.

وفي انتظار ذلك يرسل والي طرابلس في أفريل 1905 حامية من 40 جنديا يقودها ضابط تركي ديناميكي نشط، ودبلوماسي بارع هو النقيب جامي

¹ - Dubief, *op-cit*, P 131.

² - Lacroze, *op-cit*, P 166.

باي Djami Bey ⁽¹⁾ الذي يصل إلى غات ويستقر بها في إنتظار التنقل إلى جانت.

ويعلم أهل جانت أن هذه أول وآخر مرة يرون فيها الفرنسيين (دورية توشارد).

رأت السلطات الفرنسية من هذه الخطوة برنامجا مدروسا يستهدف كبح مشروع توحيد إمبراطوريتها الإفريقية وقد يكون مصدره ألمانيا⁽²⁾، لذلك أصدرت قرارا لحالة تأهب لـ "قوم توقرت والوادي" والسرايا الصحراوية بـ تديكلت، كي تكون على إستعداد في حالة الضرورة لغزو جانت إن إحتلها الأتراك.

بينما لا يعتقد النقيب توشارد: "أن الأتراك سيبعثون بحامية إلى جانت... وأنها سوف لن تكون هدفا لا للإتراك ولا للفرنسيين؛ إن هدف الإثنين هو بلما، اما أن يصل الأتراك قبلنا ويمنعوننا من توحيد إمبراطوريتنا، وإما أن يسبق إليها الفرنسيون؛ وتصبح بلما تحت سيطرتنا، ونتحكم في العلاقات التجارية بين فزان والسودان"⁽³⁾. وهي رؤية تطابق وجهة نظر الحكومة الفرنسية التي اطلعت على تقرير توشارد في مجلس الوزراء أثناء نظره لقضية جانت.

وفي نفس الوقت ترسل فرق إلى شمال أزجر بدعوى حماية إفوغاس الخاضعين وحماية ورشات عمل حفر الآبار من هجمات كيل أزجر. كما أقحمت السلطات كيل أهقار بقيادة موسى في الصراع وتوكل له مهمة غزو بعض كيل أزجر المنشقين، خاصة رسكو اق يحي، ابن خال امنوكال انقدازن.

¹ - Lehuraux, *op-cit*, P 218.

² - Gardel, *op-cit*, P 224.

³ - Ibid, P 230 .

فقد أعلن رئيس ملحق عين صالح دينو في رسالة موجهة إلى انقدازن مؤرخة في 04 ديسمبر 1906 يقول فيها: "اليوم الحرب بدأت بيننا، لقد سمحت لـ كيل أهقار للغزو والنهب عندكم، وستتابعكم فرنسا حتى إلى آير"⁽¹⁾

من الواضح ان اختيار كيل أهقار لهذه المهمة كان مدروسا وهذا لتقادي احتجاج الأتراك أو تدخلهم⁽²⁾ بالإضافة إلى سياسة "إشغال الحطب بالحطب" التي استعملتها القيادات الفرنسية على نحو واسع في سياساتهم التوغلية⁽³⁾

انطلق الغزو يوم 06 ديسمبر 1906 اتجاه أزجر ووصل إلى تادرات بعد 17 يوما. تلقوا معلومات عن وجود رسكو ب تاشومت Tachouimet أين فوجئ من طرف مجموعة راجلة، أسروه بعد أن قتلوا أحد رفاقه، فأوتي به إلى قائدهم محمد أق عثمان الذي أمر بإعدامه بعد كلام ساخن معه .
 طبعا كان هذا استفزازا لـ أمنوكال أزجر، كان لإغتيال رسكو صدى كبيرا لدى كيل أزجر وأصبح حدثا مهما لتاريخ التوارق. لقد أحس رفاقه إمبرغسن بمرارة كبيرة وراحوا ينتقمون في أهقار وينفذون عدة هجمات هناك بقيادة دودو أق موسى.

من جهته السلطان أمود يطلب من النقيب التركي باي أن يحتل جانت بصفة نهائية. النقيب التركي وبحنكته إستغل الموقف ببراعة؛ أعلن نيته على الإستقرار قريبا في جانت ، وأنه سيقوم بدورية إلى أهقار. وأن الفرنسيين سيذهبون قريبا وهو تصريح أريك السلطات الفرنسية إلى حد كبير فلم تعد

¹ - Ibid, P 245.

² - لقد منع كيل أزجر الأتراك من ردع غزو موسى للقبض على أتسي سنة 1907 قائلين " القضية بين أهقار وأزجر لا تتدخلوا قط؛ يمكنكم ذلك فقط إذا تدخل الفرنسيون " (أنظر Gardel 236) .

³ - Gardel, op-cit, P 247.

جانت الآن مطلب الأتراك فحسب وإنما كل أزجر وحتى أهقار تحت غطاء كون هذه الأوطان للمسلمين⁽¹⁾ كما لاحظت السلطات الفرنسية أن الزعماء التقليديين ازدادوا منهم نفورا في نفس الوقت الذي يتقربون فيه إلى السلطات التركية⁽²⁾.

- إنقدازن يهاجر إلى فزان مع عائلته وماشيته ثم إلى واو وقام بعدة زيارات للزاوية السنوسية لـ جربوب.

- أمود يتلقى تقليدا رسميا وبولى بالحماية التركية، ولم يسبق له أن رد على مراسلات الفرنسيين ولا حتى الاطلاع على محتواها بينما يرد على رسائل صديقه موسى أق أماستان.

- محمد أده زعيم إنمغساتن يبدي الحياد ولم يكن لا في متناول الفرنسيين ولا الأتراك لكن أوفنايت أق موسى وارث الزعامة قد وقع في يد النقيب التركي.

- بالإضافة إلى وجود أتسي أق أملال، أمنوكال المخلوع للهقار وهو مصدر هام لـ باي الذي أصبح يطالب بأهقار ويعد أتسي باسترجاع مجده، ثم يزور النقيب باي واحة جانت عدة مرات ويرفع بها العلم التركي ليعطي مصداقية أكثر لتصريحاته وحملته الجادة للدفاع عن مصالح بلده.

أصبح هذا الضابط مصدر قلق حقيقي للإدارة الفرنسية فرأت ضرورة تسوية الوضعية دبلوماسية مع السلطات التركية. وانتهت باتفاقية لإنشاء منطقة محايدة تثبت الحدود بين غدامس وغات، تلتزم فرنسا ألا تتجاوز الدرجة 6° من خطوط الطول شرق باريس (أنظر الملحق). جانت وتارات في المنطقة المحايدة إذن.

¹ - Dubief, *op-cit*, P 131 .

² - Gardel, *op-cit*, P 248.

وطبعا لم يكثر الإثنان بالتزامتهما فقد انتهكت هذه الإتفاقية من طرف الإثنين: من الجانب الفرنسي يصل النقيب نيجر إلى جانت في سبتمبر 1906 ويبقى فيها بضعة أيام. بينما تصل فرقة من جنود أترك إلى جانت يوم 12 ديسمبر 1906.

ثم تتوالى الإستطلاعات الفرنسية ونذكر منها:

الملازم كلور Clor نهاية سنة 1906 الهدف من الاستطلاع تحديد المناطق الواقعة غرب المنطقة المحايدة (تملولين، أوهانت، تينغرت، تجنتورت، أفرا، أغرغان، وادي ميهرو، ديدر، آدمر، تجوجل، إزواتن-ن-لا، واغين، أريكين).

- لابرين ماي 1908، هدف المهمة إختيار موضع برج "السنجل" و"بولنيك". والإلتقاء مع القبائل الخاضعة، ليعلمهم أن إستقرار فرنسا بالتاسيلي نهائي، ويذكرهم بالشروط الواجبة لمن يريد أن ينتقل إلى المنطقة المحايدة أو التركية.

- هيقو فيفري 1909 مراقبة خط القوافل ومنع الأتراك من مرافقتها، وكانت النتيجة اطلاق النار على قافلة يحرسها الأتراك. لكن هذه الحادثة الصغيرة أحدثت ضجيجا كبيرا في الأوساط الدبلوماسية، وكان هناك تبادل مذكرات بين القسطنطينية وباريس ثم بين باريس والجزائر وأخيرا بين الجزائر وعين صالح، وانتهى إلى تعليمات تطالب بالحذر أكثر⁽¹⁾.

- نيجر أكتوبر 1909 هدفه الدخول في علاقات مع أمود الذي غادر المدينة صباح يوم وصول النقيب، وكان من أهداف هذه المهمة أيضا إقتراحات الخضوع للسكان.

¹ - Lehuraux, op-cit, P 229.

لكن مناورة هذا الأخير، (نيجر) قد أحييت من جديد النزاع بين الفرنسيين والأتراك، ردت عليها السلطات التركية بارسال كتيبة صغيرة إلى جانت تحت قيادة الملازم عمر مقداد في ديسمبر 1909 بدعوى حراسة القوافل، وأكثر من ذلك يصرح الملازم أنه جاء لدراسة المكان ومعرفة النظام الذي سيعمل به فيما بعد.

ثم وردا على برج بولينياك، شرعت السلطات التركية في بناء برج مماثل بتارات، ومنعت الفرنسيين من الاقتراب منه.

إزدادات الوضعية إضطرابا مع وصول الثورة التركية التي أتت بالشباب إلى الحكم، والذين يعتبرهم الفرنسيون أكثر تشددا من سابقهم.

انتقد لابرين المنطقة المحايدة بشدة، حيث لا يرى لها مفهوما في الصحراء لأنه: "إذا لم يعمل المنافسان الشرطة فإنهما سوف يكونا ملاذا للصوص، وإذا عمل أحدهما الشرطة فإنه سوف ينشئ حقوقا قانونية يستغلها مستقبلا وإذا عمل الإثنين الشرطة فسوف يكون هذا مصدرا لتصادمات حدودية"⁽¹⁾.

ويقترح تسطير الحدود ليعمل كل جانب شرطته في منطقته، وفي الإنتظار يرى ضرورة إحتلال جانت من طرف ضابطين أحدهما تركي والآخر فرنسي يضمنان الشرطة معا في المنطقة المحايدة⁽²⁾.

كما يبدو هذا التناقض بين الإنتقاد الذي وجهه للمنطقة المحايدة والإقتراحات التي يراها مناسبة، رفضت إقتراحاته من طرف الحكومتين.

ثم يغادر لابرين الصحراء ليخلفه إبتداء من جانفي 1911 باين Payn على رأس السرية الصحراوية للواحات في نفس الوقت الذي يستبدل فيه النقيب

¹ - Lehuraux, *op-cit.*, P 236

² - *Ibid*, P 237

نيجر بالنقيب شارلي على رأس كتيبة الصحراء في أزجر، بينما توفي منذ مدة والي طرابلس رجب باشا واستدعي قيمقام غات جامي إلى مهام أخرى⁽¹⁾.
لكن العلاقات لم تتحسن بين الأتراك والفرنسيين، وبقوا بدون إتصالات رسمية في الصحراء إلى غاية الحرب الإيطالية التركية.

إعلان الحرب:

في سبتمبر 1911 توجه كل من أمود، انقازان، اتسي في طريقهم إلى طرابلس لتقديم شهاداتهم ومطالبهم أمام اللجنة الفرنسية التركية المشتركة لتسطير الحدود اثناء إجتماعها المبرمج في أكتوبر 1911⁽²⁾ عند جبل غريان على بعد ثلاثة أيام من طرابلس علموا بخبر إعلان الحرب الإيطالية التركية، ويصل الخبر نفسه إلى ورقلة في أكتوبر، مع تعليمة الحاكم العام للجزائر صدرت في اليوم الموالي لإعلان الحرب مفادها "منع حركة تنقل القبائل والأشخاص من والي طرابلس الغرب لا للإعتداء ولا لنجدة الأتراك والقبائل الموالية لهم"⁽³⁾. بالطبع هذه الحرب تخدم كثيرا السلطات الفرنسية التي لن تتأخر في إنتهاز الفرصة.

في 13 نوفمبر 1911 يتلقى النقيب شارلي ببرج فلاترس أمرا من هيئة أركان الجيش لإحتلال تارات وجانت بإسم الحكومة الفرنسية "بدون عنف وبدون ضجة"⁽⁴⁾

ومالبث أن أخذ طريقه إلى جانت ليحتلها يوم 27 نوفمبر 1911 بعنف وضجة، ثم ينزع العلم التركي على الزاوية السنوسية التي هدم جزءا منها ليحولها إلى برج "شارلي" ورفع عليه العلم الفرنسي لأول مرة.

¹ - Gardel, op cit P 314

² - Lacroze, op-cit, P 168.

³ - Gardel, op-cit, P 315 .

⁴ - Lehuraux, op-cit, P 238.

بينما تم إحتلال تارات في 03 ديسمبر 1911، ولم يعد الآن معنى للمنطقة المحايدة، وغادر الأتراك المنطقة بصفة تدريجية. وكان من نتيجة هذا الحدث فقدان السلطة التقليدية لنقطتين أساسيتين: أولاً : فقدان موقعين هامين من مناطق النفوذ ثانياً: فقدان ورقة الضغط التركية. وقدم خطر الإحتلال الإيطالي. لكن رغم ذلك لم ييأس ممثلو السلطة التقليدية، فهم الآن يتطلعون إلى:

- 1 - إخراج الفرنسيين من الموقعين في أقرب وقت قبل أن يصل الدعم ويستمر تواجدهم بصفة نهائية.
- 2 - إيجاد قوة مساندة تعوض الأتراك، فهم يرون السنوسية⁽¹⁾ بديلاً. جعل هذا الحادث إنقذاً وأمود يقرران إعلان الحرب بصفة رسمية على الفرنسيين، واستدعيت قبائل أزجر لتنظيم صفوف المقاومة وأخذ المبادرة للدفاع عن أراضي أزجر ضد الغزو الفرنسي وحتى الإيطالي. كانت مساعدة السنوسيين المعنوية، والعسكرية فعالة في مختلف معارك المقاومة لإخراج الفرنسيين من الموقعين المذكورين، رغم هزيمة 1913 إلا أنها حققت انتصارات مهمة إبان الحرب العالمية الأولى أثناء التمردات الكبرى.

ث- التمردات اختبار للخضوع:

وصل صدى وإنعكاس الحرب العالمية الأولى إلى أعماق الصحراء، ذلك أنه جعل فرنسا تتهمك في كيفية الدفاع عن بلدها الأصلي ضد ألمانيا التي أعلنت عليها الحرب في الشهور الأولى من عام 1914.

¹ - تأسست هذه الحركة من طرف محمد بن علي السنوسي في حوالي 1840 ولها زوايا في كل من بيداغات، غدامس، جربوب، الكوفة، مصر وأحيراً جانت في سنة 1900.

من جهتها الزاوية السنوسية فتحت مراكز للتدريب في عدة نقاط من الصحراء الشرقية، وتمكن إنقدازن أق أبكدا⁽¹⁾، أمود أق المختار، إبراهيم أق أبكدا من شن هجومات على مدى ست سنوات التي تلت على الفرق والأبراج الفرنسية في آزر، واستجاب كل سكان آزر لدعوة الزعماء الثلاثة سواء الخاضعين منهم أو غير الخاضعين. وهرب حتى الذين جندوا مع فرق المهاريست الفرنسية.

كانت البداية باسترجاع المواقع التي إحتلها الإيطاليون في طرابلس الغرب بين 12 أوت و23 ديسمبر 1914، حيث دمرت معداتهم إلى النهاية وأجبروا على الفرار واللجوء إلى المنطقة الفرنسية، تاركين وراءهم أسلحة وذخيرة هائلة في غات، غدامس، أوباري ومرزوك. قاد هذه الهجومات سي العابد قريب السنوسي الأكبر⁽²⁾.

أسست مهالة بغات سنة 1916، بقيادة أمود كقائد سياسي، وقيمقام غات عبد السلام كقائد عسكري، والذي نال شهرة في نجاح مقاومته ضد الإيطاليين.

الهدف منها تحرير جانت، التي توجهت إليها في 27 فيفري 1916. في يوم 06 مارس 1916 وبسريرة تامة حاصر 65 رجلا من المهالة البرج الذي تتواجد به كتيبة فرنسية تتكون من 40 جنديا بقيادة لابيير Lappierre. ويطلب عبد السلام من أعضاء الكتيبة خاصة المسلمين منهم أن يسلموا أنفسهم، على أن لن يلحق بهم أي أذى، لكن في حالة الدفاع فإنه سوف يتم القضاء على الجميع.

¹ - توفي سنة 1916 ، خلفه بوبكر لقوي ابن أخته .

² - Lhote, *Le Hoggar* 1984, op-cit, P 218

يجيب القائد الفرنسي: "سأبقى في مكاني عليك أنت بالانسحاب، وسأعلم حكومتي"⁽¹⁾

ويبدأ تبادل إطلاق النار بصفة متقطعة ليلا ونهارا. واستمر لمدة 18 يوما. بعد أن فقد لابيير عددا من جنوده مع نفاذ المؤونة، تمكن من الهرب رفقة ما تبقى من الكتيبة ليلا وأخذ طريق أسكاو للمرور على قلعة تابركات، ليستمر بعدها إلى برج تارات. وتمت مطاردته من طرف رجال المهالة الذين أدركوا جزءا من الكتيبة من بينهم لابيير في "أساسو" أين بدأت معركة أخرى، إلى أن طلب منهم الاستسلام مرة أخرى واستجابوا بعد أن قتل منهم خمسة رجال. يؤخذ الأسرى إلى جانت، أين أستجوبوا عن مكان تواجد الجزء الآخر من الكتيبة، الذي أخبرهم عنه أحد الجنود (الاهالي).

في 11 أفريل يتم القبض على ما تبقى من الكتيبة في ديدر وهم متجهون نحو برج بولنيك. ويؤخذ الكل إلى غات⁽²⁾.

يتلقى الحاكم العسكري للوحدات Meynier هذا الخبر، ويقرر إعادة إحتلال جانت، وحشد قوة لم يسبق أن رأت الصحراء مثيلا لها آنذاك؛ بين 600 و800 جندي وأكثر من 1000 جمل⁽³⁾. ومختلف الأسلحة الفتاكة؛ رشاشات، مدافع... ينطلق من برج فلاترس في 06 أفريل 1916، كاسحا كل ماوجد أمامه حتى وصل إلى جانت بعد خمسة أيام ويجد أمود وكيل جانت محصنين على جبلي المهيان وأجاهيل وفي البرج، هوجمت جانت من الجنوب أولا ثم من كل الجهات بعد ذلك... إستمرت المعركة لمدة أربعة أيام لينسحب

¹ - Lacroze, *op-cit*, P 33

² - Lacroze, *op-cit*, P 43

³ - *Ibid*, P 44

أمود إلى الشرق بعد نفاذ الذخيرة يوم 14 ماي إلى غات. وما لبث Meynier أن غادر جانت يوم 04 جويلية.

تساءل أحد المشاركين في الهجوم عن ماذا يمثل إحتلال هذا المركز البعيد والمعزول لفرنسا⁽¹⁾؟ صحيح أنه من الناحية العسكرية ليس لهذا الموقع أية أهمية، فهو معزول يطرح صعوبة إيصال الإمدادات والتموين، على 400 كلم من أقرب برج فرنسي! لكن لم يكن الأمر كذلك من الناحية السياسية، لأن جانت تمثل إحدى أهم رموز سيادة ونفوذ السلطة التقليدية، في أزجر فهي كل شيء بالنسبة للسلطان أمود.

ثم أن تحرير جانت قد جعل الكثير من كيل أزجر يتخذ قراره للالتحاق بالتمرد وكان حافزا أيضا للهجومات على الفرق الفرنسية، التي تكثفت وشملت معظم مناطق أزجر.

قاد معظمها في الشمال إبراهيم أق أبكدا الذي ركز ضرباته على خطوط الإمداد، واعتمد على تكتيك الكر والفر وإزعاج العدو والتأثير في معنوياته.

- في "وادي اهن" يوم 06 سبتمبر 1916 يهاجم كتيبة يقودها النقيب Duclos بعد أن غادرت تارات متوجهة إلى برج بولنيك، شارك في الهجوم كيل أوهت وكيل إن تونين. - في "ان غيرو" 03 ديسمبر 1916 مهاجمة قافلة إمداد متجهة إلى برج بولنيك قتل فيها فرنسيان والكثير من رجال الحراسة، وترك الباقي بعد أن سلموا أسلحتهم... ثم وبعد وصول كتيبة الإسناد حاولت متابعة كيل أزجر إلى التاسيلي، أين تبدأ معركة أخرى وما لبثت أن حاصرها

¹ -Ibid, P 68

رجال أق أبكدا وطلب منها الإستسلام بعد أن قتل منهم 18 شخصا. إنتزع منهم السلاح أيضا وتركوا.

كانت هذه القافلة مهمة جدا كونها تحمل مؤونة معتبرة، وأدوية إلى برج بولنيك الذي إنتشر فيه مرض Scorbut.

- في "ان الحجاج" 13-14 فيفري 1917: بدأ الهجوم على معسكر فرنسي من إحدى فرق Meynier العائدة من غزو جانت ليلا، وما إن بدأ الهجوم حتى دبت الفوضى في المعسكر واستمرت المعركة لعدة ساعات قبل أن ينسحب رجال أق أبكدا تاركين خسائر كبيرة في القتلى والجرحى من رجال الفرقة الفرنسية؛ 17 قتيلًا، و40 جريحًا من بين حوالي 100 رجل.

أثرت هذه المعركة العنيفة كثيرا في معنويات الفرنسيين ونفسياتهم إذ عبر أحد الناجين من الموت عن صدمته قائلا: "عندما أتذكر ما حدث في تلك الليلة وفي الأيام الست التي تبعها يتملكني القلق والهم ، لقد تركت هذه المأساة في نفسي انطبعا لن أنساه أبدا"⁽¹⁾.

بالإضافة إلى هجومات أخرى، أضعفت كثيرا القوات الفرنسية التي غادرت برج بولنيك في 18 ديسمبر⁽²⁾ 1916.

وقد شهدت هذه السنة أيضا تمرد كل القبائل في أزجر سواء الخاضعة أو غير الخاضعة ما عدا إفوغاس القريبيين من برج فلاترس، وهو آخر برج تحصنت فيه القوات الفرنسية في أزجر.

وامتد هذا التمرد ليشمل السودان، تديكلت، وحتى أهقار، إذ التحق منافس موسى القديم اتسي وأخوه أنابا أق أملال ب كاويسن، بالإضافة إلى عدد من أعيان أهقار ومنهم قريب موسى أفلان أق دوا ، وتعاون بعض القبائل

¹ - Lacroze, *op-cit*, P 108.

² - Denis (P) , *l' évolution des troupes sahariennes françaises*, 1966, P 210.

مع متمردي أزجر واستقبال مبعوثي أمود الذي يطلب من موسى أن يعلن تمرده⁽¹⁾ لكن هذا الأخير وجد نفسه في موقف حرج فقد أمضى من جهة إتفاقا مع الفرنسيين للتعاون في مثل هذه الحالات، ومن جهة أخرى تطالبه رعيته بإتخاذ القرار الذي لم تنتظره بعض القبائل ومضت في تمردها ك تايثوق. لكن موسى يرى من تواجد خصمه اتسي وأنصاره ضمن حركات التمرد استهدافا لشخصه وقد يكون الهجوم عليه لاحقا. وأخيرا يتخذ الموقف.

في 20 جوان 1917 يوجه رسالة إلى السلطات الفرنسية تحمل قائمة القبائل المتمردة داق أغالي، أجوه-ن-تهلي، أيت لواين، أغيلادن، كيل تازولت، إسقمارن... مع أهم متمردي كيل غلا أنابا وسوغي أق شيكات. ويطلب منها أن تمده بالوسائل اللازمة لمحاربة التمرد⁽²⁾.

لن تجد الإدارة الفرنسية ما سيسعدها أكثر من قبول هذا الطلب. وأمام هذا التوتر الكبير عمت الفوضى صفوف الفرق الفرنسية بالصحراء، التي لم تعد تتحكم في أي مكان منها. تم إعادة إستدعاء مهندس الفرق الصحراوية لابرين إلى الصحراء بصفة طارئة، ويعين قائدا أعلى للمناطق الصحراوية، تكمن مهمته في إعادة تنظيم تلك الفرق "المهاريست" التي أنشأها سابقا والقضاء على التمرد، واستئجاب ما يسمى بالامن الإستعماري.

تمكن لابرين رفقة موسى أق أماستان من بسط السيطرة الفرنسية من جديد ووجها ضربات قوية لرموز ومواقع التمرد:

¹ - Lhote , *Le Hoggar*, 1984, op-cit, P 223.

² - Lhote , op-cit, P 227.

- كاوبسن 1918 ينسحب من إقدز بعد ثلاثة أشهر من تحريره ثم ما لبث أن قتل⁽¹⁾

- فيهرون امنوكال لـ أولمدن الذي حرر منكاً قتل في 25 جوان 1919 وأعاد خلفه إقرار الخضوع وانتهى بذلك تمرد توارق السودان⁽²⁾

- إعادة إحتلال جانت في 18 نوفمبر 1918 من طرف "القوم النظامي" ومهاريست موسى⁽³⁾ ثم تمت مغادرتها تحت ضغط أمود الذي يواصل نشاطه إلى غاية جويلية 1920 عندما استقرت فيها كتيبة أنشأها الرائد Sigonney بصفة نهائية في 20 جويلية 1920⁽⁴⁾.

إن هذه التمردات تكشف لنا الطابع الإكراهي للخضوعات التي أجبرت عليها القبائل تحت طائلة من الضغوطات كما تظهر أن العصبية تحمل دائما بذورا للإستيقاظ والتمرد والخروج عن طاعة السلطة المفروضة.

وعلى كل حال فإن نهاية الحرب العالمية الأولى وانتصار الحلفاء وتحسين العلاقات الفرنسية الإيطالية مؤقتا قد ساعد الإدارة الفرنسية في إنهاء عملية المواجهة كوسيلة للمقاومة بالنسبة للسلطة التقليدية التي لم يبق أمام ممثليها إلا إتخاذ القرار النهائي في: الانسحاب أو الخضوع

- أمود يسلم طابعه وأدواته إلى إبراهيم أق أبكدا وينسحب نهائيا إلى صحراء فزان أين توفي قبيل وصول الإيطاليين سنة 1927⁽⁵⁾

1 - voir: Jean-louis TRIAUD, *La légende noire de la senûsiyya*, la maison de science de l'homme, Paris, 1995.

2 - Denis (P), op-cit, P 210.

3 - Denis (P), op-cit, P 288.

4 - Lacroze, op-cit P 142.

5- إنسحب بعد حادثة " أبسغ وان الغايت" و التقى بوبرق لقوي في مسر تافللت وعادا إلى غات، كان لقوي أيضا آتيا لخضور مع موسى أميتوكال و أعيان أهقار في مكان الحادثة لإقرار السلم نهائيا، لكن وجود الفرنسي Adj.Vella ضمن 140 من كبل أهقار قد أغضب أمود و قرر الذهاب في بداية اللقاء بعد أن حاول الفرنسي المنتكر في الزي التقليدي التاريخي مصافحته وهو يعلم أنه قد أقسم من قبل على عدم لمس يد "أكافر" ولا أي نوع من التعامل مع "إكوفار".

- بوبكر لقوي أمنوكال الجديد منذ 1916 يمضي إتفاقية الخضوع مع الإيطاليين الذين يعترفون له بلقب أمنوكال في الجزء الشرقي من أزجر الناتج عن تسطير الحدود في إتفاقية فرنسية- إيطالية ليوم 12 سبتمبر 1919 والمعدلة لإتفاقية لندن الممضاة في 26 أبريل 1915 تتنازل فيها فرنسا لصالح إيطاليا لتعديل الحدود الليبية بين غدامس، غات ويومو حتى تسهل الربط بين هذه المدن الثلاثة⁽¹⁾

ج-الخضوع النهائي:

تارات 1919: فرنسا تحت ذراع أق أبكدا⁽²⁾

ينتمي إبراهيم أق أبكدا إلى أوراغن وجزولنين المقيمين في امهرو. وكانت المعارك التي خاضها في فترة التمرد كافية بأن تجعل منه زعيما يطيعه أهله وخصما يعترف به أعداؤه الذين لقبوه ب القائد.

بعد مفاوضات طويلة مع العقيد سيقوني Sigonney، والملازم فيلو Guillot وافق أق أبكدا على شروط الخضوع التالية⁽³⁾:

- الإعراف ب إبراهيم أق أبكدا ك أمغار ل كيل تاسيلي
- له الحق شخصا في:

06 جنود "قوم" تحت تصرفه

العلاج المجاني

- أن تكون ل كيل تاسيلي أولوية نقل التموين

- أن يمنحوا ذخيرة بنادق 1874 للصيد.

- أن يجندوا في الجيش الفرنسي

¹ - Denis , op-cit, P 213

2 - يقال انه امضى هذا الاتفاق بذراعه ليؤكد على انه قهر فرنسا .

³ - Vachet (M), "Brahim Ag Bakada Amghar des Aijer" in *Ancyclopedie Berbère* XI, Edisud Aix en provence, 1992, P1608.

وقد قبل الجنرال لابرين هذه الإتفاقية وزكى أق أبكدا في لقبه أمغار-ن-كيل تاسيلي⁽¹⁾ رغم أنها لا تنص على الضرائب التي كان يلح عليها. ربما يعود ذلك إلى أن السلطات الفرنسية قد أعلنت إعادة قبولها للخضوعات السابقة التي تنص على دفع الضرائب واعتبرتها سارية المفعول بعد التمردات، ولم يلغها هذا الإتفاق. ثم إن تنصيب اق أبكدا ك أمغار وليس أمنوكال يعني تحديد نفوذه على فصيلته من أوراغن وكيل تاسيلي فقط، إذن الإتفاق لا يلزم كل قبائل أزجر (الغربي).

وقد لا تقبل هذه القبائل كما لا يقبل أق أبكدا تنصيبه ك أمنوكال وهذا لسببين:

- 1- أن القاعدة التقليدية لتناقل السلطة لا تسمح بذلك (أنظر ص 85)
- 2- وجود أمنوكال شرعي هو بوبكر لقوي رغم إقامته في أزجر (الشرقي) المحتل من طرف الإيطاليين، ولا يمكن للسكان تولية شخصين بمنصب أمنوكال في نفس الوقت، فالتقسيم الحدودي لا يعينهم سياسيا، زيادة على ذلك فقد عين موسى أق أماستان سيذا على جانت خلفا للسلطان أمود من طرف السلطات الفرنسية في 15 جويلية⁽²⁾ 1920 كتعويض لفقدانه "اضاغ" الذي كان يحلم بضمه الى أهقار. إذن كيل جانت لا يعينهم إتفاق تارات أيضا كما لا يعني إجضانارن، إمنغساتن، إمقرغن.

بالرغم من المعلومات النظرية التي تحصل عليها الفرنسيون جراء حركة المغامريين والمبشرين إلا أنه بقيت جبال أهقار وآزجر حصينة مستعصية إلى غاية بداية القرن العشرين لذلك رأت السلطات الفرنسية (إكوفار) ضرورة إتخاذ

¹ - Denis (P), *op-cit*, P 213

² - Lhote (H), *op-cit* P 229

خطوة عملية مباشرة للتوغل تتمثل في إستخدام القوة حتى وإن كان الثمن إبادة مجموعات بأكملها.

فتوالت الغزوات بفضل فرق المهاريست:

1- في أهقار:

- بان 1900 بعين صالح
- كوتنست 1902 بـ "تيت" تمرانست
- جبالو لوهان بمختلف مناطق و مخيمات السكان

2- في أزجر:

- بان 1903
- باسي 1903
- النقيب توشار 1904-1905
- قارديل 1913

كانت تتشكل كل هذه الفرق من سكان شمال الصحراء الذين جندوا في نظام شبه عسكري (القوم Goum) كما اقترحه لابرين وكانت لهم فعالية كبيرة في التوغل الفرنسي بالصحراء، نظرا لمعرفتهم الميدان وتحملهم لظروفه المناخية.

بعد عمليات القتل والإرهاب تحصلت السلطات الفرنسية على خضوع زعماء السلطة التقليدية في معاهدات شكلية.

بمساندة من الإدارة الفرنسية إستطاع موسى وأنصاره عزل أتسي أق أمال أمنوكال الشرعي إلى ذلك الحين الذي تنصب له السلطات الفرنسية عداء أبديا.

لقد أمضى موسى معاهدة الخضوع الأولى بعين صالح 1904، راضيا لكل الشروط التي حررها وأملاها عليه رئيس ملحق عين صالح النقيب ميتو بإسم الحكومة الفرنسية، مقابل الاعتراف به كأمنوكال.

لكن نظرا للوضعية السياسية آنذاك ساد تلك المعاهدة غموض حول عدة نقاط، لذلك قرر لابرين أن تسوى الأمور على شكل خضوع كلي وليس ولاء لكيل أهقار. وهي المهمة التي قام بها النقيب دينو سنة 1905 بتمنراست. ومن حينها أصبحت السلطة التقليدية بيد الضباط الفرنسيين تطيع وتنفذ مايشتهون.

أما في أزجر فالأمور مختلفة. إن التواجد التركي في الشرق جعل المنطقة محل نزاع تركي- فرنسي أولا ثم تركي- إيطالي بعد ذلك، بالإضافة إلى انبعاث حركة السنوسية أثناء الحرب العالمية الأولى وظهور حركة التمردات الكبرى، وهو ما جعل الخضوع يتأخر لمدة عشرين سنة تقريبا، إلا أن النتيجة كانت وخيمة: تقسيم أزجر إلى كتلتين، الشرقية تحت النفوذ الإيطالي والغربية تحت النفوذ الفرنسي. عين أق أبكدا "قائدا" على الغربية واعترف به كوسيط بين السلطات الفرنسية وبعض قبائل أزجر خاصة "كيل تاسيلي".

ومن حينها تولت الإدارة الفرنسية في كل من أهقار وأزجر السلطة الفعلية واستولت على أهم صلاحيات السلطة التقليدية التي بقيت هيكلا دون فعالية وشاهدا على زمن غابر.

خاتمة ونتائج عامة

خاتمة ونتائج عامة:

على ضوء ما سبق، تبين لنا أن هذه المنطقة كانت مسرحا لسيرورة طويلة سلكتها السلطة التقليدية منذ ظهورها إلى غاية اصطدامها بالإمبراطورية الفرنسية.

تكونت وتطورت السلطة التقليدية في هذا المجال الزمني وأخذت أشكالاً ونظماً مختلفة يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات:

الفترة الأولى: قبل القرن الحادي عشر (ق 11)

تميزت بظهور (إهن ملن) كمجموعة مهيمنة على إقليم واسع يصعب التعرف على التفاصيل والمعطيات الأخرى نظراً لقدمها من جهة، وعدم وجود وثائق تتحدث عنها من جهة أخرى.

الفترة الثانية: ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر (ق 11-16)

تمتد على فترة حوالي خمسة قرون، تميزت بتوظيف الوازع أو السلطة الدينية في الحكم من طرف "امنان" وتبني نظام توارث السلطة من الأب إلى الابن على مثال الأمراء والملوك والولاة.

الفترة الثالثة: من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين (ق 17-20)

غير "اوراغين" النظام السابق بثورة عنيفة، واعتلوا الحكم، وأعادوا نظام توارث السلطة التقليدي المحلي الذي يسلك خط نسب الأم. هذا النظام الذي لم يتبنه كيل أهقار على مدى أربعة حكام الأوائل الذين توارثوا الحكم ابناً عن أب، قبل أن يعتمد به بعد ظهور "كلة" سليلية "تين هنان". رغم ذلك فإن صرامة العرف لم تحد من التنافس الداخلي حول السلطة لكن في إطار ضيق.

الاصطدام:

ما كانت الوضعية لتبقى على ما هي عليه، فالديناميكية التي ميزت المنطقة ترشح ظهور عصبيات جديدة سواء من المجموعات الموجودة المكونة للعصبية العامة أو من تطور هذه الأخيرة إلى شكل آخر مع تحول وتعدد العلاقات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية.

لكن قدوم الفرنسيين أوقف الحركة الطبيعية للعصبية، فأدخلت متغيرات جديدة وموازن غيرت مجرى الأحداث فكانت المفارقة التاريخية. اعتمدت السلطات الفرنسية على ثلاث وسائل متلازمة للهيمنة؛ الجوسسة، القوة والردع، الدبلوماسية.

1- الجوسسة : 1797-1899

تمت في ظروف مختلفة، وكلفت الجانبين الكثير من الضحايا، لكن المعلومات المتحصل عليها بعد حوالي قرن من التجسس كانت كافية لمعرفة التركيبة الاجتماعية والسياسية للمجتمع من جهة والطبيعة الجغرافية والمناخية من جهة أخرى، كأماكن تركز السكان، مناطق رعيهم، نمط عيشهم و طرق القوافل والأسواق.

وكانت رحلتا دفرييه وفورو أهم المصادر بالنسبة لتلك الفترة.

2- القوة: ابتداء من 1900

مكنت تلك المعلومات الفرق الفرنسية من استعمال القوة كخيار إلزامي معتاد عليه لقهرك السكان عسكريا ومعنويا ولاسيما معارك عين صالح في 1900، تيت في 1902، اسين 1913.

3- الديبلوماسية:

تم توظيف الانتصارات السابقة كورقة للضغط والتأثير في قرارات السلطة التقليدية واتجاهها في المناورات الدبلوماسية التي انتهت بالخضوعات: أهقار في 1905، أزجر في 1919. لأول مرة توضع للسلطة التقليدية شروط كتابية للخضوع الذي مكن الإدارة الفرنسية من تسيير المنطقة وتوسيع نفوذها. لكن بينت التمردات استحالة تعايش الإدارة الاستعمارية مع الزعامات التقليدية، لم يحتمل امنوكال في خلال تلك السنوات أن تقسم سلطته وتراقب حتى وإن قبل شروط المنتصر عليه.

التمرد كان جهدا يائسا للتملص من الضغط الثقيل للالتزامات المفروضة والتخلص من الغزاة و العودة إلى النظام السابق.

حدثت إعدامات للأعيان والزعماء المشاركين في التمردات ولم يُنْجُ حتى قطعانهم حيث صودر البعض وأبيد البعض الآخر مع مالكيه بوحشية.

بعد القضاء على التمرد بصعوبة عملت السلطات الفرنسية على أن لا يشكل التوارق أي مصدر للتهديد مستقبلا، وأن لا تكون لهم إمكانية استجماع قواتهم ضدها مرة أخرى، فمارست مراقبة شديدة على كل المجموعات: لقد حذف لقب امنوكال في بعض الكونفدراليات، وأنشئت مجموعات على أسس جديدة، وعين زعماء جدد وبدئ في تفكيك السلطة التقليدية شيئا فشيئا.

كان ذلك بداية لتحول صلاحيات السلطة التقليدية إلى الإدارة الفرنسية.

1- الإقليم، الامتداد والإنكماش:

لقد شهد هذا الإقليم أربعة تغيرات عبر تاريخه، الأولى في عهد "اهن ملن" اين كان يشمل أهقار وأزجر ثم توسع في فترة حكم "امنان" إلى "أضاع" وتقلص من جديد بعد انقسام أهقار وأزجر، أخيرا التقسيم الإداري الفرنسي،

حيث كانت المسألة المطروحة بعد احتلال الصحراء تدور حول إمكانية إعطاء هذه المنطقة الجرداء تنظيمًا خاصًا أو إلحاقها بالمستعمرات الأخرى وتمديد الأقاليم الثلاثة قسنطينية، الجزائر ووهران إلى الجنوب. ومن جهة أخرى فإن الميزانية التي تحصلت عليها الجزائر لا يمكن الاعتماد عليها لحمل نفقات الجنوب.

في 23 ديسمبر 1901 تبنت الحكومة الفرنسية اقتراح (A) Berthelot الذي يتمثل في مشروع تنظيم إداري ومالي للجنوب الجزائري بتكوين تجمع خاص يسمى "مناطق الجنوب" تكون فيها الميزانية مستقلة عن الجزائر، وتكون لها شخصية مدنية، تحت سلطة الحاكم العام للجزائر⁽¹⁾

حسب المادة الخامسة من نفس التنظيم تحول ميزانية العاصمة (باريس) منحة سنوية إلى ميزانية الجنوب تستخرج من ميزانية الحرب⁽¹⁾.

صودق على مراسيم القوانين في 30 ديسمبر 1903، 12 أبريل، 14 أوت ثم 12 ديسمبر 1905 التي تحدد توزيع الميزانية طبيعة الهبات والنفقات المدنية لهذه المناطق، وتحديد تنظيمها الإداري والعسكري، وصلاحيات الحاكم العام⁽²⁾.

وعلى أثره قسمت مناطق الجنوب إلى أربعة مقاطعات: عين الصفراء، الواحات، غرداية، توقيت، والتي قسمت بدورها إلى فروع وملاحق. من بينها فروع إدارية في كل من "تارهوهاوت" ثم تمنراست بأهقار. بولينياك وجانت في أزجر وما لبثت أن تحولت إلى دوائر تابعة لرقابة العاصمة الإدارية.

1 - Lacroix (A) et Bernard (A), *op-cit*, P181.

1 - Lacroix (A) et Bernard (A), *op-cit*, P181.

2 - *Ibid*, P 182.

بقي مشكل آخر يطرح نفسه هل تكون حكومة خاصة للصحراء أو تقسم هذه المناطق بين الجزائر والسودان؟ تظهر الفكرة الأولى أسهل لكن المشكل في مركز تلك الحكومة وطرق الوصول إليها ومنافذها. لابد أن تكون على إحدى المستعمرات الموجودة من قبل، وأخيراً استقر رأي الفرنسيين على تقسيم سكان الصحراء بين مستعمراتهم، توارق الشمال للجزائر وتوارق الجنوب لإفريقيا الغربية، وتبعاً لذلك سطرت الحدود بين الجزائر والسودان في جوان 1905 من طرف وزارة الداخلية بالإتفاق مع وزارة المستعمرات⁽¹⁾. يبدأ خط الفصل بين المستعمرتين من أهقار ويتوجه نحو الشرق بينما يتجه الخط الآخر إلى الغرب. حيث يبدأ من منبع واد "تين زواتن" ويستمر عبر حوض "تلمسي" إلى غاية شمال "إن ازيز". يمتد الخط الفاصل بعد ذلك ويعبر "تانزروفت الغربية" ويقطع طريق "مارابوتي- تودني" في منتصف الطريق تقريباً بين هاتين النقطتين يتجه بعد ذلك مباشرة إلى "رأس النون".

أما في الشرق فإن خط الحدود، يتبع واد "تين زواتن" إلى غاية "تانزروفت"

ويقطعها تاركاً الحافة الشمالية للجزائر والجنوبية لإفريقيا الغربية ثم تقطع الحدود الطرابلسية (ليبيا) عند منتصف الطريق تقريباً بين غات والمكان الذي يخترق فيه الطريق المباشر من اقداز إلى مرزوك.

وتمثل هذه الحدود الإفريقية واقعاً جديداً بالنسبة للصحراء وأدت إلى تغيرات عديدة في المجال السياسي والاقتصادي، لا سيما في حركة الترحال ونشاط القوافل العابرة للصحراء، وكونها أيضاً لا تتناسب مع الامتداد الطبيعي للسلطة التقليدية خاصة في ازجر.

¹ - Ibid, P 184.

جرى كل هذا دون اية استشارة لممثلي السلطة التقليدية رغم انه يتعلق بمصيرهم ومصير رعيّتهم، وهو الحال لكل ماتبع من القرارات التي لم تراع فيها غير مصلحة المستعمر وفائدته.

II - السياسة المتبعة؛ الصلاحيات تتقلص وتندم :

بالرغم من أن الإدارة الفرنسية معروفة في سياسة حكمها المباشر إلا أنها واستثناء بالنسبة لأهقار اتبعت سياسة الحكم غير المباشر، بينما عملت على "تفكيك الكونفدرالية" حسب تعبير لابرين في أزجر أين منح "استقلال ذاتي" لكل قبيلة.

1 - من امنوكال إلى القائد:

صحيح أنه قد تم حفظ "الزعامة" بواسطة سياسة الحكم غير المباشر، إلا أن وظيفتها داخل النظام الاستعماري لم تعد مثل ما هي عليه في شكلها التقليدي.

لم تعد سلطة الزعيم تركز على نفس المبادئ التي كانت تسانده من قبل لأن النظام الاستعماري قد أنشأ سلطة مستقلة ذاتياً تجاه رعيّتها. إذا كان الزعيم قد حرم من "الإجماع التقليدي"، فإنه قد عوض بصفة كلية بالمساندة النشطة من طرف الإدارة الفرنسية، لأنها هي التي أنشأت سلطته أصلاً، فلا تبقى أو تستمر إلا بفضلها.

إن وضعية امنوكال تحت نظام الحكم غير المباشر تجد نفسها بين نسقين متناقضين من القيم: فالزعيم يمثل المجتمع ما قبل الاستعماري (المستقل) في نفس الوقت الذي يشارك فيه في النظام الاستعماري، أي بين الاستقلال والهيمنة الأجنبية.

لقد أراد لابرين أن ينشئ نظاماً خاصاً للتوارق: الحفاظ على القانون الهيكلي التقليدي للقبائل، والاعتراف بالزعيم امنوكال كضامن لاستمرار هذا القانون. لكن مصطلح امنوكال يبرز في ميزانية شؤون الأهالي كـ "قائد" (وهو مصطلح لم يستعمل عند التوارق على الإطلاق)، والأعيان الذين يشكلون مجلسه "كالقوم Goumier". أما الرعية فقد تم تجنيدهم في فرق التدخل السريعة الصحراوية التي أنشأها لابرين، حيث يعطى للرحل إطار سلطة محلية تمكنهم من القتال. لكن في مجموع سياسي لا يتحكمون في غاياته النهائية. فقد انخرطوا بالجيش الفرنسي الذي يختلف مفهومه عن مفهوم "المحاربين" التقليديين الذي يعرفه الأهالي، مساهمين بذلك في السلطة التي تجعلهم يعتقدون أنهم لا يقومون سوى بدعم مجتمعهم بينما العكس هو الصحيح.

2- التعيين: صورة جديدة للزعيم

أصبح تعيين الزعيم يتم حسب مقاييس وشروط جديدة تحددها العلاقة بين المعنى والإدارة الاستعمارية، وهذا حسب مرونتهم كما هو الحال في تعيين مسلاغ اق اماياس، أو أن لا يكون له أي ماضي في المقاومة على مثال اتسى اق امال، والسلطان امود اق المختار. وبالتالي فلم يعد هناك مجالاً للمعارضة، فقد أصبح الزعماء ممثلين للقبائل لدى الضابط الذي يحكم المنطقة، وهم مسؤولون أمامه ومكلفون بتطبيق توجيهاته، الرفض يعني العزل، ينتزع من الزعيم حكم القبائل التي منحت له، وتسلم إلى زعيم آخر. لا يهم إن كانت تربطه بها علاقة قريبة أو بعيدة. ولا حتى انتماؤه لنفس الإقليم أم لا، وتعيين موسى سيداً على جانته أحسن مثال لذلك. وهذا ما يؤدي إلى إقصاء الكثير ممن لهم الحق التقليدي في السلطة. ولم يعد تتناقل السلطة

الامومي شرطاً قاطعاً لتوارث السلطة وأكثر من ذلك أصبحت الإدارة مرجعاً لإصدار الأحكام في النزاعات، كما تلعب دورها في إشعال الفتيل بين هذا وذاك من الزعماء أو القبائل.

من جهة أخرى أصبحت تنظم تحركات القوافل وعلى إجبارية حراستها من طرف القوات الفرنسية، وإلغاء رسوم المرور لممثلي السلطة التقليدية وتحويلها لصالح السلطات الفرنسية.

لم يبق إذن لـ امنوكال أو "القائد" من هنا فصاعداً سوى صلاحية جمع الضريبة من القبائل المكلف بها، وتسليمها للسلطات المعتمد عندها والتي تتحكم في وسائل الإنتاج الجديدة. أو طنבורه الذي لم يعد له صوت.

أصبح الزعماء منفذي سلطة الاستعمار، وفرغت وظيفة امنوكال من محتواها، ولم يعد له نفوذ على المجتمع، بل بقي مجرداً من السلطة.

إن هدف سياسة الحكم غير المباشر الفرنسي لا يتعلق إطلاقاً بمنح استقلال ذاتي من أي نوع، ولكنه يتمثل في الحفاظ على ما هو "صالح" في المؤسسات التقليدية وفي فترة محدودة كافية لإزالتها تدريجياً وتعويضها بالنظام الإداري فهو ليس سوى امتداد لسياسة الحكم المباشر.

وماذا كانت النتيجة؟

يتحدث لوت Lhote عن الوضعية الجديدة للتوارق فيقول: "يمثل التوارق منذ بداية القرن العشرين، متحفاً حياً وحقيقياً بالنسبة لبعض الانتوغرافيين والسوسيولوجيين. إن صورة المحارب المثلث المشهور، على مهره الأبيض، الرمح في اليد، والدرع المصنوع من جلد الظبي معلق على

الراحلة، قد أصبحت صورة تذكارية. الذين كانوا منذ قرون أسياداً للصحراء، أصبحوا ومن الآن فصاعداً يخوضون حياة جامدة⁽¹⁾.

بينما يصف Gautier هذا التحول قائلاً: "لقد انتزعنا من التوارق وظيفتهم، وتولينا مسؤولياتهم، إنها بداية ثورة كبرى. كان المجتمع التوارقي سليماً لكن حضورنا فقط سلب منه سبب وجوده ووسائل عيشه، لقد تحولت وظيفة صيانة الصحراء ومراقبتها إلى أياد أخرى. سيستمرون لحسابنا الحياة التي خاضوها منذ قرون بطريقتهم... ربما من غير الجدوى أن تدمر هذه التنظيمية الاجتماعية الغريبة إذا لم يكن في مقدورنا أن نقوم بأداء وظيفتها بأحسن منها بكثير"⁽¹⁾.

لاشك أن هذا ما تسعى إليه السلطة الاستعمارية، وهو ممارسة السلطة والسيادة، مع الحفاظ على الديكور الشكلي للسلطة التقليدية، فالعصبية لا تشتد ولا تلعب دورها التاريخي إلا إذا كانت حرة، سواء من سلطة الدولة أو من سلطة عصبية أخرى، مهما كان نوعها وممارساتها سواء استبداداً للناس أو استغلالاً للخيرات، حتى وإن كانت ضرائب "لأن في المغارم والضرائب خيماً ومذلة لا تحتملها النفوس الابية إلا إذا استهوته عن القتل والتلف وإن عصبيتها حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية"⁽²⁾ وبالتالي "فإذا رأت القبيل بالمغارم في ربة الذل فلا تطعن لها في ملك آخر الدهر"⁽³⁾.

1- Lhote (H) *Op cit*, p 221.

¹ - Gautier, *op-cit*, p 209.

² - ابن خلدون، المقدمة، ص 81.

³ - نفس المرجع، نفس الصفحة.

ولا يمكن وجود عصبية تحت الخضوع والانقياد، لأن "الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء"⁽¹⁾.

يمثل كل من اهقار وازجر نموذجين للحفاظ على تماسك العصبية ومقاومتها.

إن الهيمنة الفرنسية على الأوطان المغاربية وجنوب الصحراء، هي نهاية العصبية المتجسدة ليس فقط لدى التوارق بل عند كامل هذه الأقطار، قبل ان تهزم.

المنظور الحالي: أحكام مطلقة

هل الشيخ امود، اتسي اق املال وانقازن وغيرهم ممن اختاروا المقاومة لا يعلمون أن الآلة العسكرية والسياسية الفرنسية التي هيمنت على كل العالم من حولهم، أنها تفوقهم عددا وعدة ولا مجال لأي احتمال للانتصار عليها أو منعها من التقدم؟ وأنها ستتغلب عليهم وتقهزم طال الزمن أو قصر حتى لو كان الثمن إبادة كل ما في الأرض: الإنسان والحيوان، الشجر والحجر ومع ذلك اختاروا طريق المقاومة العنيفة والمباشرة بأبسط الوسائل وأقل عدد من المشاركين؟ وهل يتمنون التضحية والمعاناة بخيرة رجالهم وأبنائهم؟ ولماذا كل هذه الاستماتة على الأرض رغم أن الإدارة الفرنسية قد عرضت عليهم في أكثر من مرة التفاوض والخضوع؟

وهل موسى الذي اختار الخضوع والتعاون مع السلطات الفرنسية يعرف مصلحة بلاده أكثر من غيره؟ أم فعل ذلك لأغراض ذاتية ورغبة ظرفية في التعامل مع الفرنسيين؟ وهل هؤلاء يحبون بلدهم أكثر منه؟ أم أنه يدرك حجم قدرة العدو أكثر منهم؟

¹ - نفس المرجع، ص80.

تلك هي بعض التساؤلات التي طرحت وتطرح ومازال الجدل قائما. إن تصور هذه الأحداث بالمفاهيم السياسية الحالية قد تقدم لنا النموذج الأول على أنهم انتحاريون مغامرون والثاني مصلحي براقماتي. بينما تفسر الأحداث في الإطار السطحي لمفهوم المقاومة بأن الأول بطل والثاني خائن.

لكن إذا نظرنا إلى الأحداث في إطارها الزمني والمكاني والاجتماعي ندرك كم هي مبسطة تلك التصنيفات والتي لا يمكن أن تصب إلا في مجال المرجعية العامة المرسومة لقيم سياسية معينة.

إن كلاً من موسى، انقدازن، أمود، اتسي، اق كراجي واعون كل الوعي بمصلحة بلادهم ولا أحد منهم يحتمل الفرنسيين أو يغير على استقلال بلده أكثر من غيره. هذه البلاد التي لم يسبق أن احتلت إلى ذلك اليوم، دافعوا عنها كثيرا بنفس الطريقة ونفس الوسائل، لكن هذه المرة، اختلفت المعطيات كثيرا فكان كل شيء جديدا وغريبا، فاختلفت مواقفهم وآراؤهم لكن هدفهم بقي واحدا لأن الوازع كان نفسه؛ حماية مصالح العصبية، لأنهم يدركون جيدا أنها الكيان الوحيد الذي يحفظ مقومات وجود مجتمعهم واستمراره وأن أي خلل يصيبها فان نتائجه ستكون وخيمة على جميع المستويات والميادين؛ السياسية، الثقافية، الاجتماعية والإقليمية خاصة.

لذلك فإن أي تصور بالأيديولوجيا الحالية سيؤدي حتما إلى أحكام قيمية مطلقة وصماء.

إذا كان النموذج الأول قد اختار واستمر في الوسيلة الآلية والطبيعية للمقاومة عن طريق المواجهة المادية المباشرة وما ينجر عن ذلك من تضحية ومأساة، فان للنموذج الثاني مبرراته لاتخاذ الوسيلة السلمية وما تستلزمه من

تتازلات فهي أيضا وسيلة للمقاومة ومرحلة من مراحلها، خاصة وأن هذا الاختيار جاء بعد استنفاد الوسائل الأخرى التي كلفت الثمن الغالي ماديا ومعنويا كما نعرف، فبات الخيار إجباريا أمام عدو مستعد لسحق وإبادة كل ذي حياة من أجل مصلحته ويملك الوسائل لتنفيذ ذلك.

فلا يمكن اليوم لأي كان أن يتجرأ بتقييم مواقف لها مبرراتها في زمانها ومكانها وواقعها الاجتماعي، والتي لا يمكن فهمها إلا في إطار هذا النسق السوسيوتاريخي.

كلمة أخيرة

على الرغم من النتائج المتحصل عليها في هذا البحث تحت توجيهات الأستاذ المشرف، والتي حاولنا من خلالها الإجابة على التساؤلات المطروحة، يبقى هذا المجال خصبا. مازال في حاجة ماسة إلى دراسات مكثفة، مثلما لا تزال العديد من التساؤلات مطروحة.

لقد ترك المجتمع التارقي للأسطورة، لا الباحثون في مراكز الأبحاث ولا الأساتذة في المعاهد المعنية كعلم الاجتماع، تطرقوا إلى أي جانب من هذا الموضوع، لا وجود للاهتمام أصلا، فكيف يمكن توجيه الباحثين الجدد؟ في الوقت الذي يقطع بعض الباحثين في مراكز البحث الأوروبية ولا سيما CNRS أكثر من أربعة آلاف كلم لملاّ استمارة عادية، نجد أساتذتنا وطلبتنا تحيرهم المسافة بين الجزائر وأقرب مدينة صحراوية، ثم تبدأ سلسلة الأعذار اللانهائية بداية من الحرارة والحشرات....

أعتقد ان المغامرين الفرنسيين الذين جابوا كامل الصحراء يأمل كل واحد منهم في أن يقدم معلومة واحدة إلى وطنه، ثم يموت ويستحوذ بلده على ذلك الذراع من الأرض التي سال فيها دمه... ليسوا سوى بشر مثلنا، يجب أن يتوفر مفهوم الإرادة والتضحية التي لا تتطلب منا الكثير، لكي نببدهم الصعوبات.

نتمنى أن يتبع عملنا هذا بأبحاث أخرى تثري الموضوع، وتزيل الغموض الذي يكتنف هذا المجتمع ولاسيما في التغيرات التي يشهدها في المجالات السياسية، الاجتماعية والاقتصادية، وتحولات نمط الحياة، ومدى تأثيرات العصرية على العلاقات والروابط الاجتماعية، ومدى نفوذ امنوكال

بعد أكثر من قرن من الوجود الرمزي بدون سلطة فعلية، وإتجاه أعضاء المجتمع في مساندته أو رفضه... والعديد من الموضوعات المهمة المختلفة. نرجو أن نكون قد وفقنا في دراستنا التي مهما كانت نتائجها فإنما تمثل جزءا قليلا من تاريخ المنطقة وتراثها.

المراجع

1- مصادر نظرية

- 1- ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبروديان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1958
- 2- السويدي محمد، علم الاجتماع السياسي ميدانه وقضايات، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1990.
- 3- تيسرعواد، محاضرات في النظم المقارنة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ط2، 1993.
- 4- جغلون عبد القادر، الاشكالية التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ترجمة فيصل عباس، دار الحداثة، بيروت 1982.
- 5- محجوب محمد عبدة، الأنثروبولوجيا السياسية، مقدمة لدراسة النظم السياسية في المجتمعات القبلية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1976.
- 6- محمد حسنين، الإستعمار الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط4، 1986
- 7- محمد عابد الجابري، العصبية والدولة، دار الطليعة، الطبعة الثالثة، بيروت 1982
- 8- محمود إسماعيل محمد، دراسات في العلوم السياسية، شركة الجليل للطباعة، ط3، دمشق 1984.
- 9 - مغربي عبد الغني، الفكر الإجتماعي عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986.
- 10-Pritchard (Evans-e), *La femme dans Les societes Primitives Et autres essais d'anthropologie sociale*, P.Universitaire, Paris, 1971.
- 11-____, *Anthropologie sociale*, traduction Monique Manin, payot, Paris 1969.
- 12-Gerard (leclerc), *Anthropologie et colonialisme*, Artheme Fayard, Paris 1972.
- 13-Duverger (morice), *Sociologie de la politique*, Presse Universitaire de France, Paris 1973.

II- مصادر منهجية

- 14- السيد الحسني، علم الاجتماع السياسي المفاهيم والقضايا، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1984.
- 15- جان وليام لايبير، السلطة السياسية، ترجمة الياس حنة الياس، منشورات عويدات بيروت، باريس 1977.
- 16- جورج بالاندييه، الانثروبولوجيا السياسية، ترجمة ج.صالح، مركز الاتحاد القومي، بيروت 1986.
- 17- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المؤسسة الوطنية للدراسات والنشر، ط2، بيروت 1993.
- 18- ليلي الصباغ، دراسة منهجية البحث التاريخي، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق 1979.
- 19- ميشال دينكن، معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت 1981.
- 20- موريس ديفرجيه ، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة جمال الأتاسي وسامي الدوبي، دار دمشق للطباعة ب.ت.

III- مصادر في الموضوع

- 21- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، بيروت 2002.
- 22- احمد صديقي الدجاني، ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي 1886-1911، المطبعة الفنية الحديثة الزيتون 1971.
- 23- السويدي محمد، يدو التوارق بين الثبات والتغير، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
- 24- جوليان (شارل أندري)، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة ميزالي محمد وبن سلامة البشير، الدار التونسية للنشر، تونس 1969.
- 25- عبد الجليل الطاهر، المجتمع الليبي دراسات اجتماعية واثربولوجية، المطبعة الثانية المكتبة العصرية، بيروت 1969.
- 26- محمد القشاط، التوارق عرب الصحراء الكبرى الطبعة الثانية، سردينيا، اديتار 1989.
- 27- مياي إبراهيم، توسع الإستعمار في الجنوب الغربي (1981-1912)، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الرويبة 1996.

28-Badi (D), Et Bellil (R), "Evolution De la relation Entre Kel Ahaggar et Kel Adagh", In *Cahiers D'Iremam* N°04, 1993

29-Barth (H), *Voyage et decouvertes dans l'Afrique septentrionale et cenrale*, Paris 1860

30-Benhazera (M), *Six Mois Chez Les Touaregs de l'ahaggar*, A.Jourdin, Paris 1908

31- Bourgeot (A), " Le corps touareg desarticulé ou l'impensé politique" In *Cahiers d'études Africains*, 136 , XXXI-4, 1994, PP.659-671

32-___, *Les societés touaregues, Nomadisme, Identité, Resistance*, Karthal, Paris, 1995.

33-Castries (H), *Question Saharienne et Transahariennes*, Librairie africainne et coloniale, Paris, 1902

- 34-Cassajus (D), «Les amis Français de la cause touaregs» In *cahiers d'études africaines*, vol 35 n°137, 1995, PP 237-250
- 35-____, "La vie Sahariene et Les «vies» du père de foucauld", *Lettres au marabout*, Belin, Paris, 1999
- 36-Cauvet (G), *Le raid du Lt couttneest Au Hoggar, combat de Tit, 7mai 1902*. Marseille, Raoul et J.Brunon, 1945.
- 37-Chakeur (Salim), *Etude touarègues*, Chandreille, Paris, 1988
- 38-____, *Etude touaregs*, trav.doc.de l'Iremam, N°5 Aix-En- Provence, 1988
- 39-Claudot (H-hawad), *Les Touaregs: Portrait En Fragments*, aix-en- provance, Edisud, 1993
- 40-____, *Le Fils et le neveu, jeux et enjeux, de parenté Touarègue*, Cambridge Université press, ed. maison des sciences de l'homme, Paris, 1986
- 41-____, *La sémantique au service de l'anthropologie*, ed.cnrs. Aix-en- province, 1982.
- 42-____, "L'évolutionnisme bien-pensant ou L'ethno-logie à sens Unique", In *Cahiers d'études Africaines*, 136, XXXIV- 4, 1994 , PP.673-685
- 43-Dayak (Mano), *Touaregs la tragédie*, Lattes, Paris, 1992
- 44- Dineaux(Cap), *Rapport de Tourneé*, Bcaf , Renseignement coloniaux, 1995
- 45-Dubief (Jean), *L'ajjer, sahara central*, Karthala, Paris, 1999
- 46-Duveyrier (henri), *Les Touaregs du nord*, Challamel, Paris, 1864
- 47-____, *Journal de Route*, Chalamel, Paris, 1905
- 48-Edyoux (H-P), *L'exploration du sahara*, Gallimard, 7^{eme} edition, Paris 1938.
- 49-Foureau (Fernard), *Ma mission(1893-1894) chez les touaregs azdjer*, Renuer, Paris 1894.
- 50-Gautier (E.F), *La conquete du Sahara*, Essai du psychologie politique, Armand-Colin, Paris 1910.
- 51-Gardel (Lt) , *Les Touaregs Azdjer*, Bacconier, Paris 1961.
- 52-Gorré (G), *Sur Les Traces de Charles de Faucauld*, Nouvelliste, Lyon, 1936.
- 53-Lacroze (E-Raynaud), *Mehariste au combat-Djanet*, Ed.France empire, Paris, 1983.

- 54- Lacroix (A), et Bernard (A), *Penetration saharienne 1906-1930*, Rep. edition Jaques Gandini, 1993.
- 55-Lappirine (H), «*Une tournée dans le Sud de l'annexe de Tidiklt*», BCAF/renseignements coloniaux.
- 56-Larteguy (Jean), *Sahara en un an*, Gallimard, Paris, 1958
- 57-Lehuraux (C), *Les français au Sahara*, ed. les territoires du Sud, Alger, 1937
- 58-____, *le conquerant des Oasis*, Plon, Paris, 1935.
- 59-Lhote (Henri), *Les touaregs du Hoggar (ahaggar)*, Payot, Paris 1955.
- 60-____, *Le Hoggar, espace et temps*, Armand – Colin, Paris 1984.
- 61-____, *Les chars rupestres du Tassili édition*, Paris 1982.
- 62-Marceau (Gaste), *Histoire de commandement en Ahaggar*, Doc. CNRPAH, Alger (s.d.)
- 63-____, «Un document inedite à propos de massacre de la mission Flathers en 1881» *In cahiers de l'IREMAM*, N°4, 1993
- 64-____, «Pastoralisme nomade et pouvoir: la société traditionnelle de Kel Ahaggar» *In pastoralisme and society*, Edisud, Aix-en-provence 1987.
- 65-____, «Aijer», *In encyclopedie Berbère*, N°VI, Paris 1990
- 66-Maunoire (Ch), et Schirmer (H), *Journal de route de Henri Duveyrier*, Challamel, librairie Martine et coloniale, Paris 1905
- 67-Metois (F.A), *La soumission du touaregs du Nord 1904-1906*, Calvisson, 1906.
- 68-Melina (Jean), *Le drame de la mission Flathers*, Mercure de France, Paris 1942.
- 69-Meynier (G), *Pacification du Sahara*, Paris, 1930.
- 70-Pandolfi (Paul), «In Salah 1904/Tamanrasset 1905, les deux soumission des touaregues Kel Ahaggar», *In cahiers d'études Africaines XXXVIII-1*, 149, 1998
- 71-____, «De l'Origine d'un nom à l'histoire d'une tawsit: Les Ikeshshemaden» *In cahiers d'Iremam*, 1993.
- 72-____, «Sauront-ils sepparer entre les soldats et les pretres?», L'installation du père de Foucauld dans l'ahaggar, *Journal des Africanistes*, N°67, Paris, 1997.

- 73-Pottier (R), *La Vocation Saharienne du père de Foucauld*, Plon, Paris, 1939.
- 74- Touchard (C), *Reconnaissance et travaux de penetration saharienne axe Tougourt-Djanet (nov.1904- mars1905)*, J.Gandini 1993.
- 75- Triaud (Jean-louis), *La légende noire de la senûsiyya*, une confrérie musulmane saharienne sous le regard français (1840-1930), la maison de science de l'homme, Paris, **1995**.
- 76-Vachet (M), «Brahim Ag Bakada Amrar des Ajjers» *Encyclopedie Berbère*, XI, Edisud, Aix-en-provence, 1992
- 77-Valerie (Ch), Les Militaires, *Lettres au marabout*, Belin, Paris, 1999.
- 78-Vullot (P), *L'exploration du Sahara, etude historique et géographique*, Challamele, Paris 1895.

الرسائل والمذكرات

- 79-Badi (D), *Les touaregs de L'adagh Des Ifoughas, étude des traditions orales*, Mémoire de Magistère, Université, Mouloud mamerie, Tizouzou, 2000.
- 80-Denis (P), *L'évolution des troupes sahariennes Françaises*, Thèse de Doctorat, Sorbone, 1966.

81-مرموري حسن، التوارق المستقرون، دراسة انتربولوجية لمدينة جانت، مذكرة نهاية ليسانس، جامعة الجزائرية، 1992.

الصحف:

- 82- *Le Matin*, N°290, Du 24/11/1992.

المصادر الشفوية

1- في ازجر

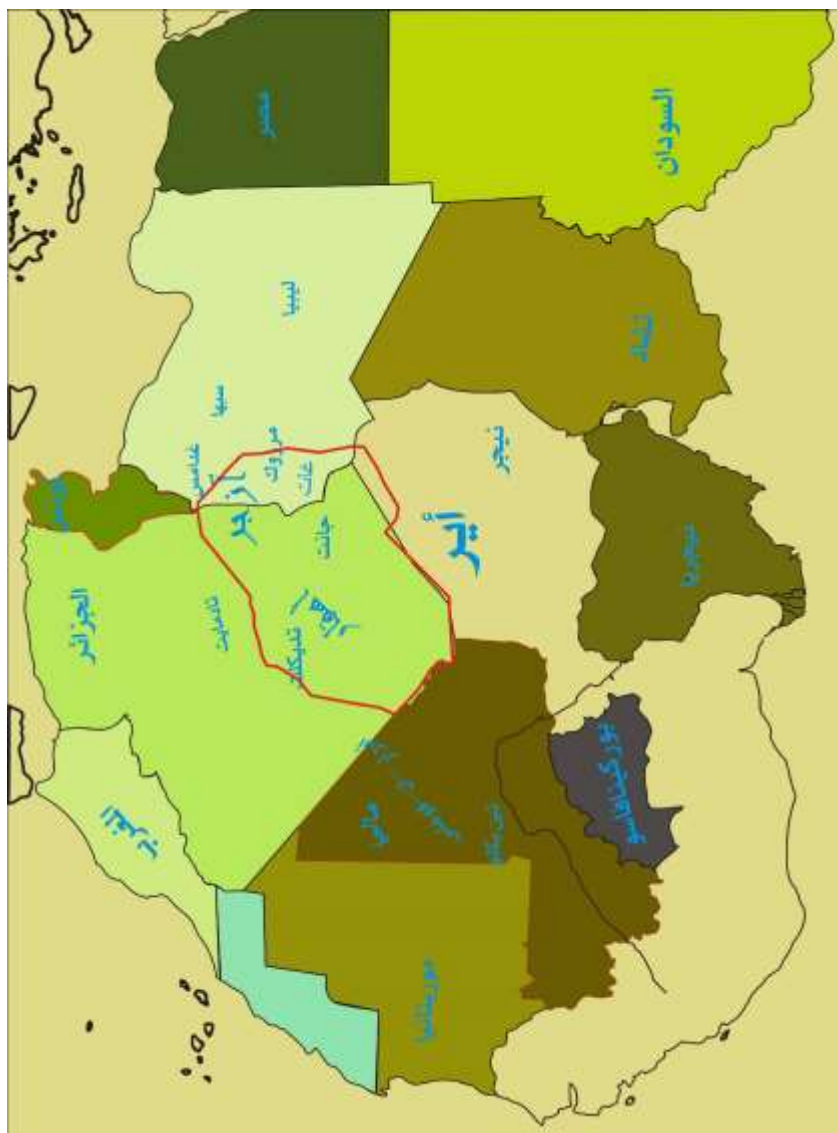
الرقم	رمز المصدر	السن	الإنتماء الإجتماعي	الجنس
01	ح.غ	67	اوراغ	ذ
02	م.ط	76	كيل جانث	ذ
03	ع.ح	81	كيل جانث	ا
04	ع.ا	60	كيل توبرن	ذ
05	ا.خ	71	ارابن	ا
06	اق.ا	56	ابطنائن	ذ
07	ا.د	42	امنان	ذ
08	ع.ب	48	امنان	ذ
09	ع.ع	65	كيل جانث	ذ
10	ا.س	73	كيل اهرير	ذ
11	ا.و	66	كيل مداك	ذ
12	م.ت	62	كيل جانث	ا

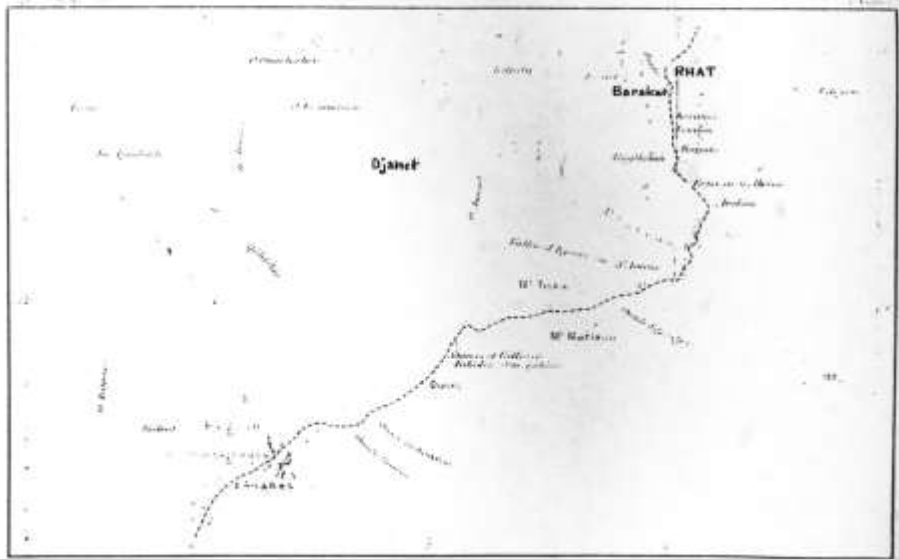
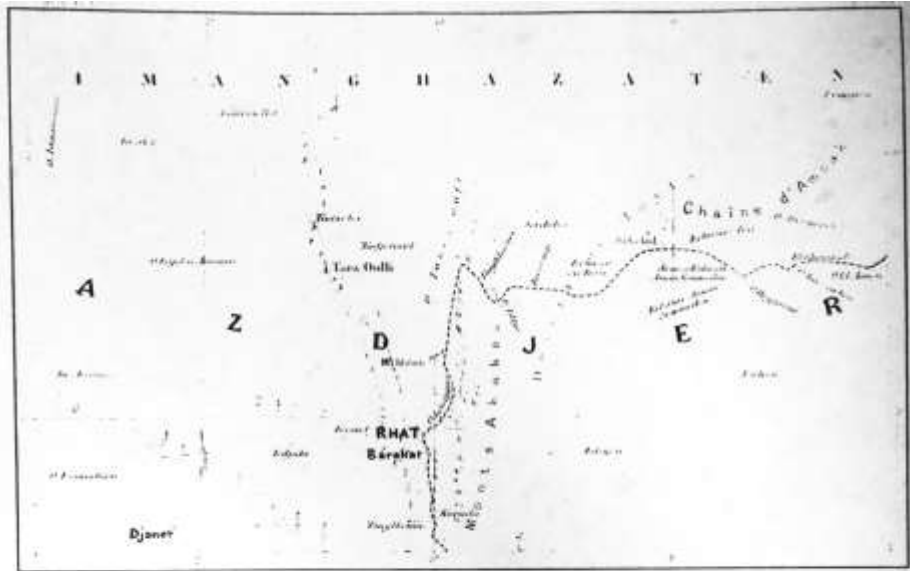
2- في الهقار

الرقم	رمز المصدر	السن	الإنتماء الإجتماعي	الجنس
13	ا.ك	63	ابطنائن	ذ
14	ت.ب	69	كيل غلا	ذ
15	م.ت	61	تجهي ملت	ذ
16	ج.خ	41	اسقمارن	ذ
17	ا.خ	40	كيل غلا	ذ
18	م.ف	49	اجضارن	ا
19	م.ا	46	تايتوق	ذ

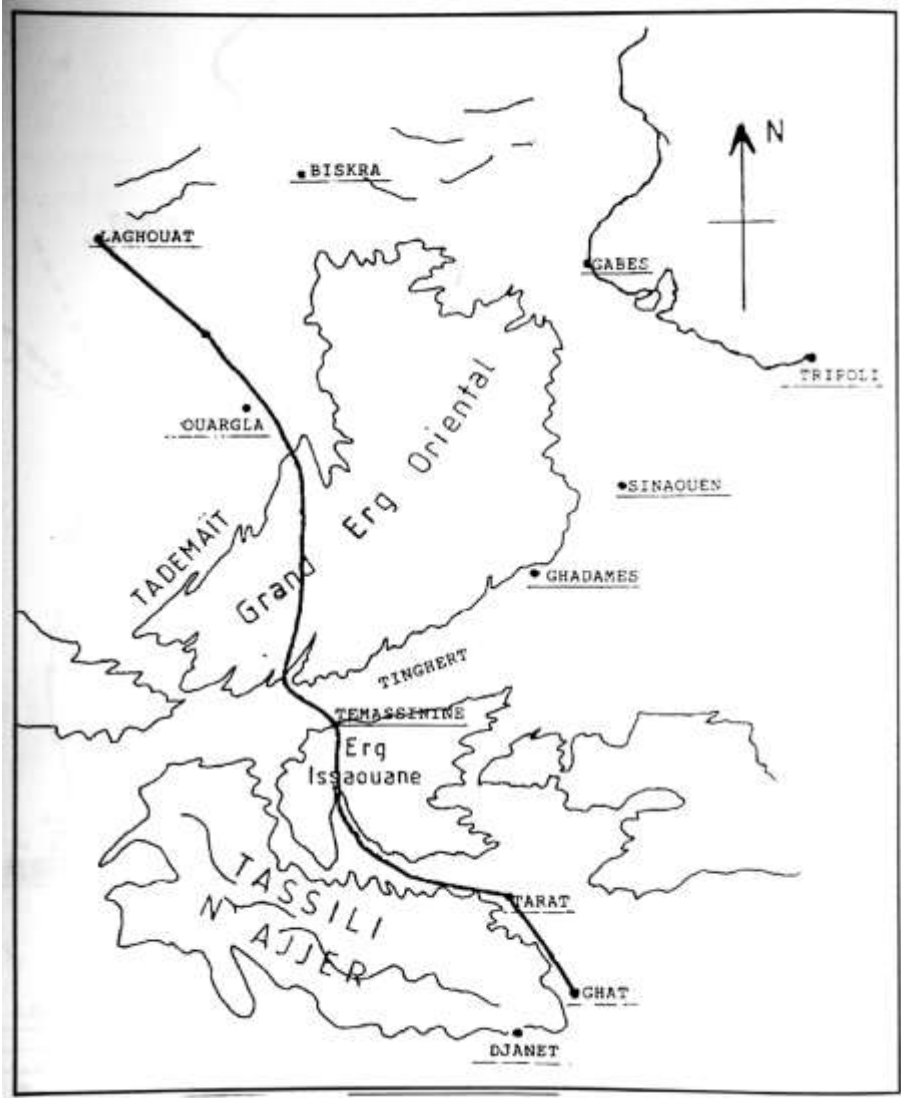
الملاحق

أزجر وأهقار، المجال الجغرافي لـ "الطيب"

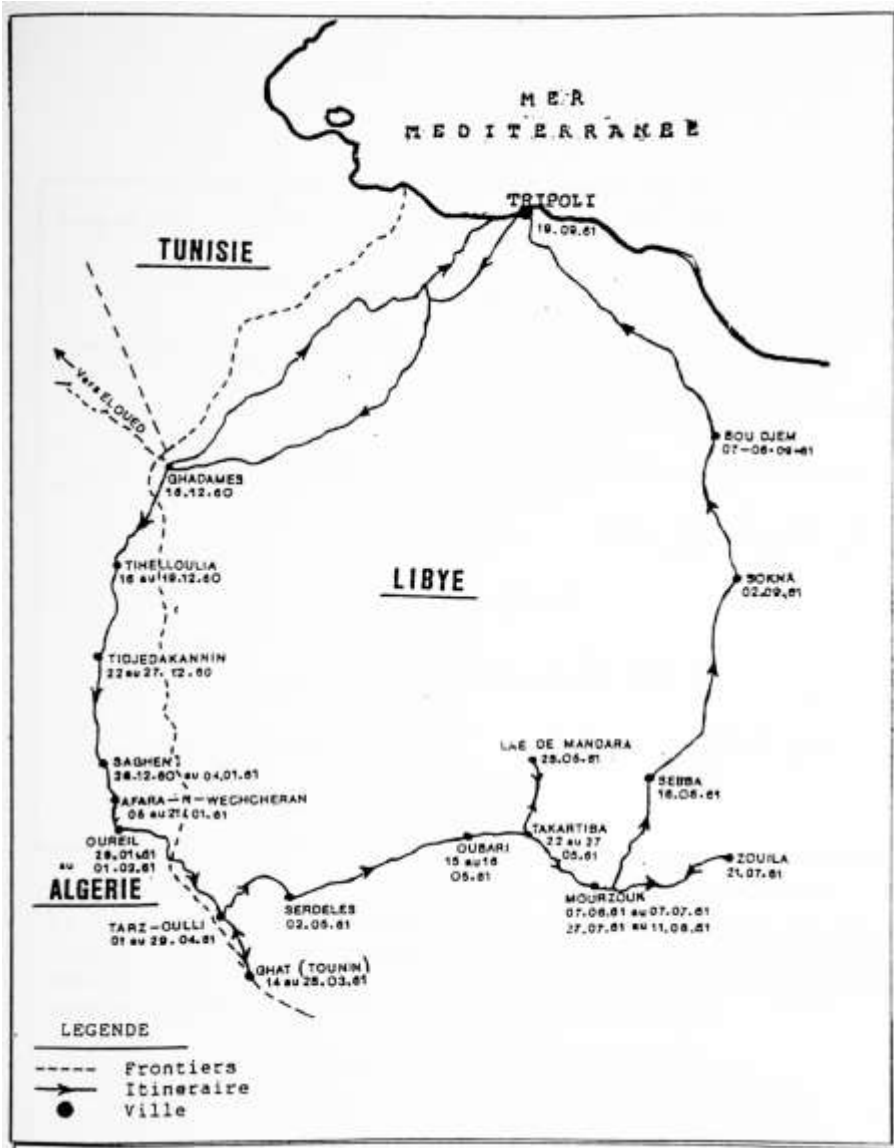




مسار بارث ووفاته



مسار بوردية اسماعيل 1858



مسار هنري ديفيرييه

بين 1860/12/16 و 1861/09/19

امضاء الخاقية غدامس

1862

و ثافا في انجاز الشروط حالا ومالا ثم تنفيذ نسختين بالفرنسية
والعربية ليتمسك كل واحد من الجانبين بواحدة منهما
* كتب بدار الامارة في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر
سنة ١٨٦٢ *

* وهنا خط يد سعادة الموشال دوك دو مالكو فيرنور جنرال
والى افليم الجزائر *

اسمك الله بمني

وهذا خط يد اعيان التوارق

عمر الحاج بن عثمان عبدربه عثمان بن الحاج
بأذنه

Le présent traité a été solennellement accepté, au nom de toutes les tribus
Asgueurs et du cheikh Ikhenoukhen, par les cheikhs Ameur-el-Hadj et Othman-
ben-el-Hadj-Béchir, délégués à cet effet et qui, en notre présence, ont apposé leur
signature au pied du texte arabe, en garantie de cette acceptation.

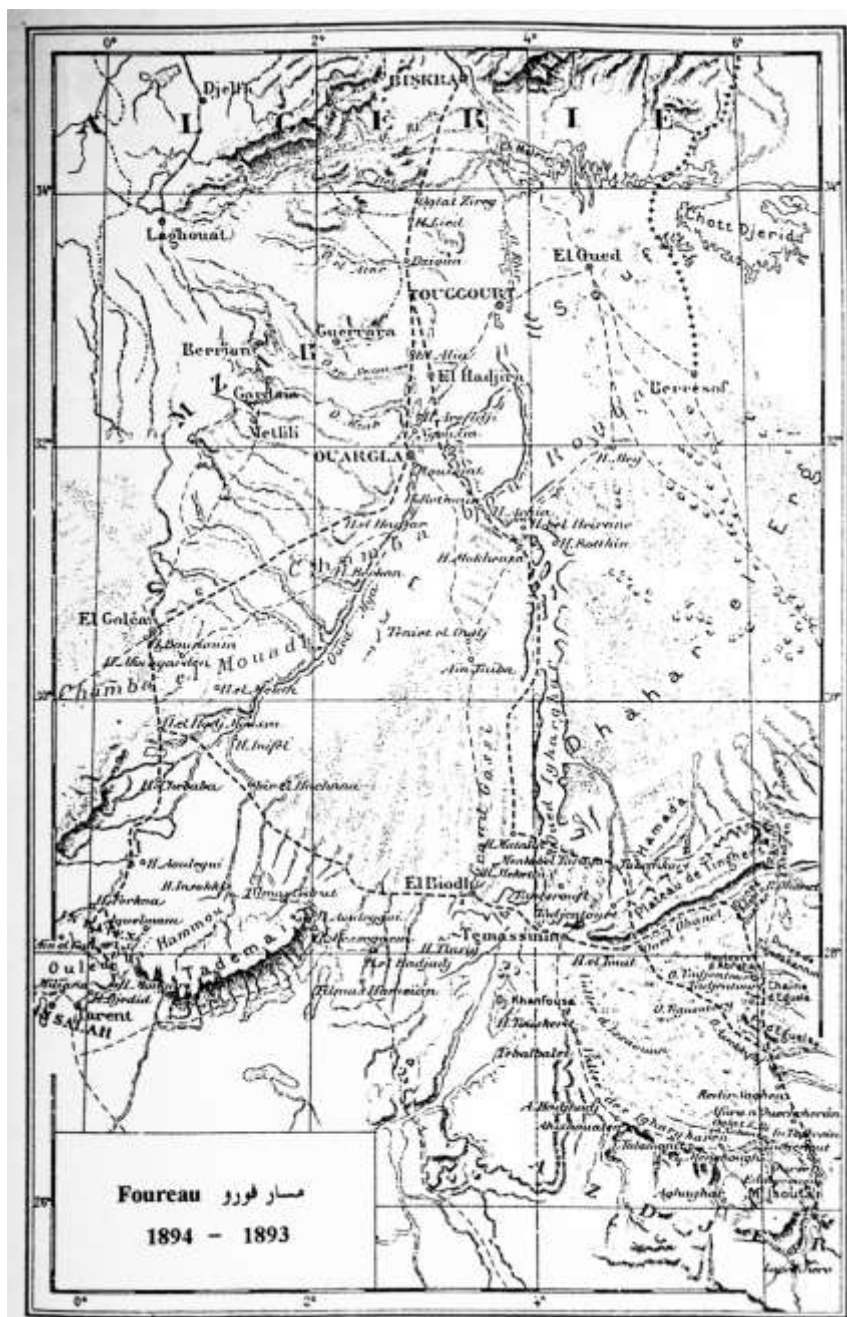
Ghadamès, le vingt-six novembre mille huit cent soixante deux.

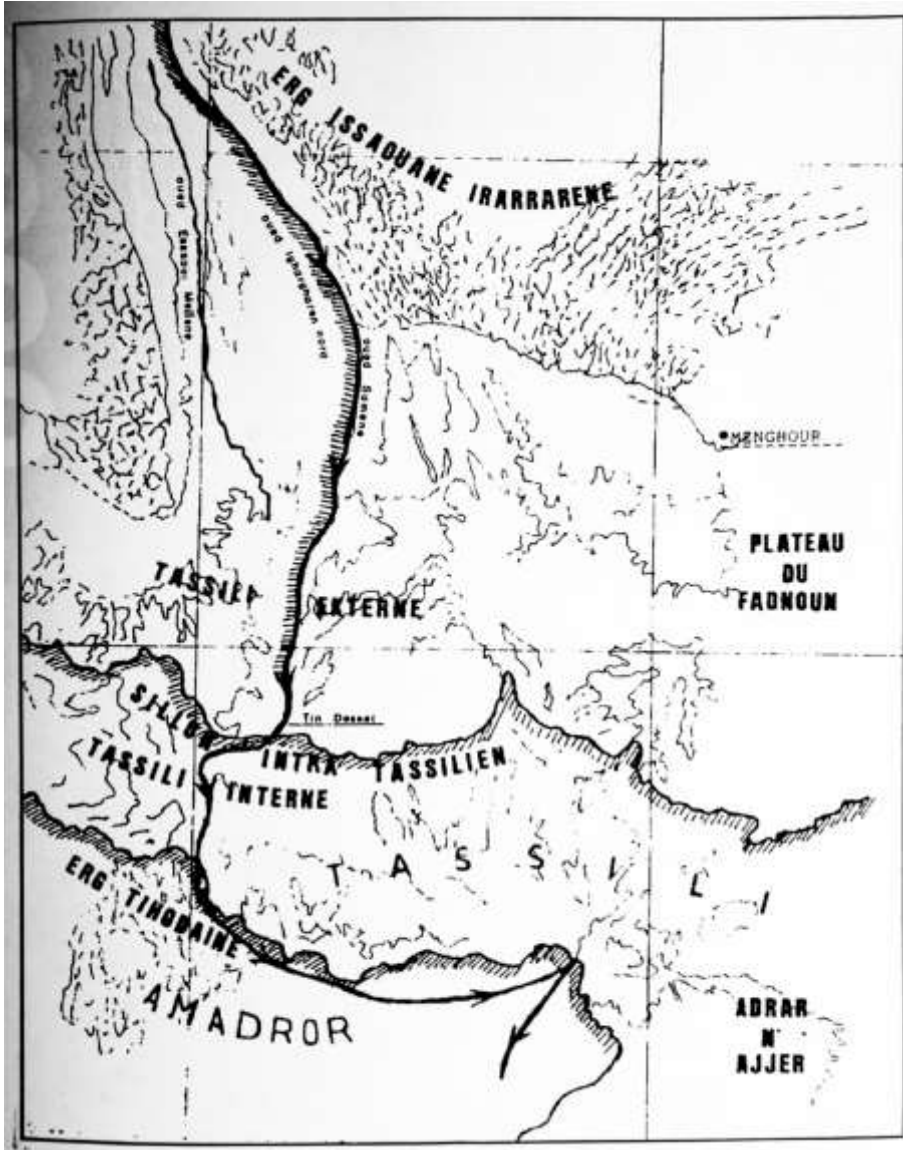
Signé : H. Mircher

Chef d'escadron d'état-major

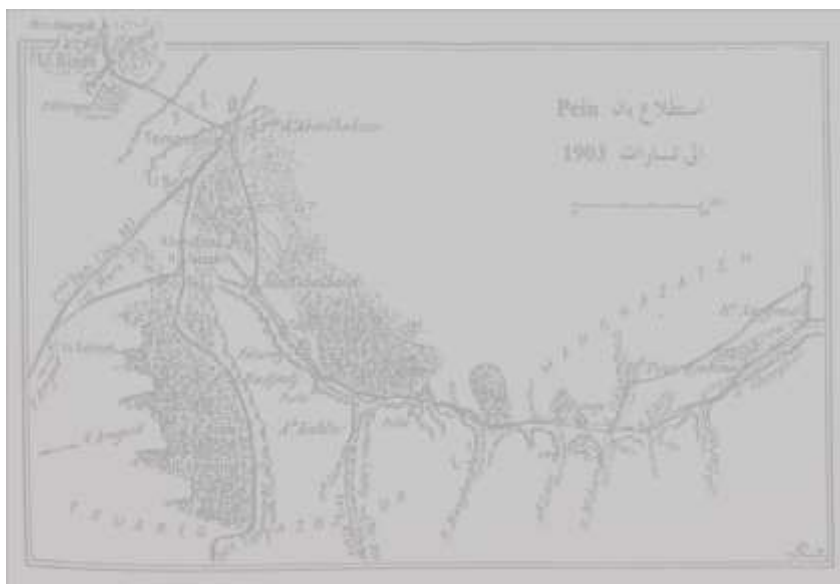
Signé : L. de Polignac

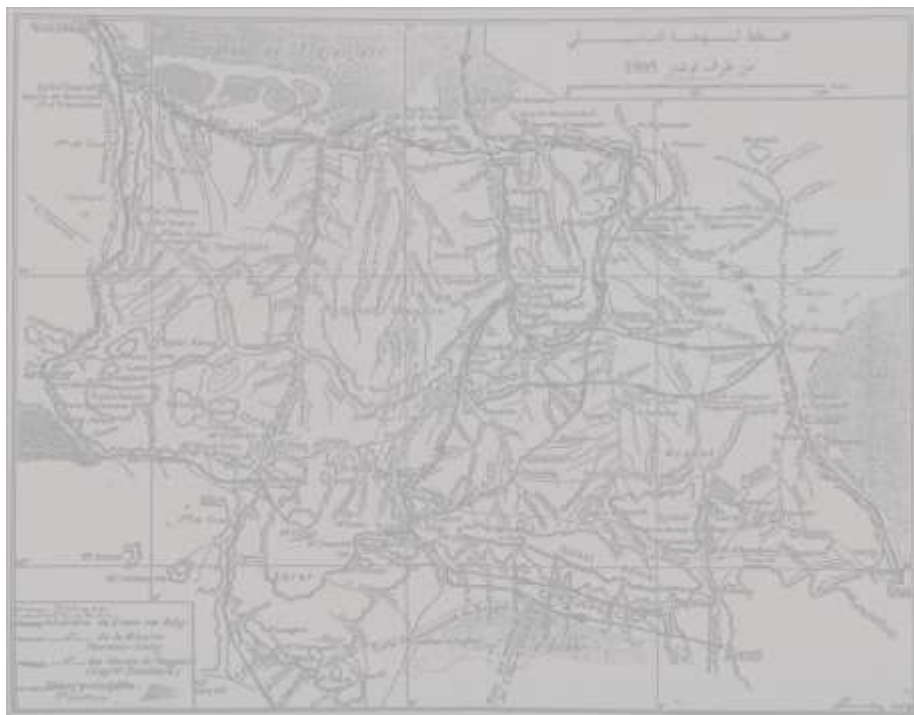
Capitaine d'état-major

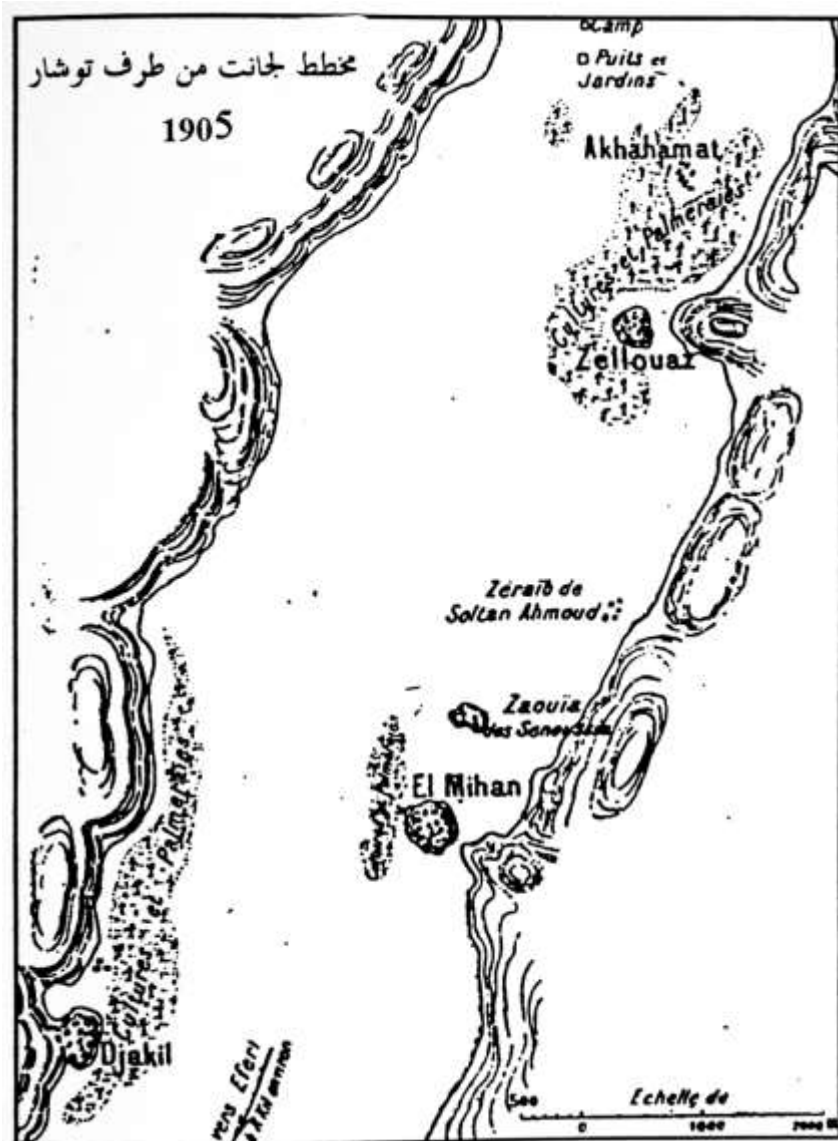




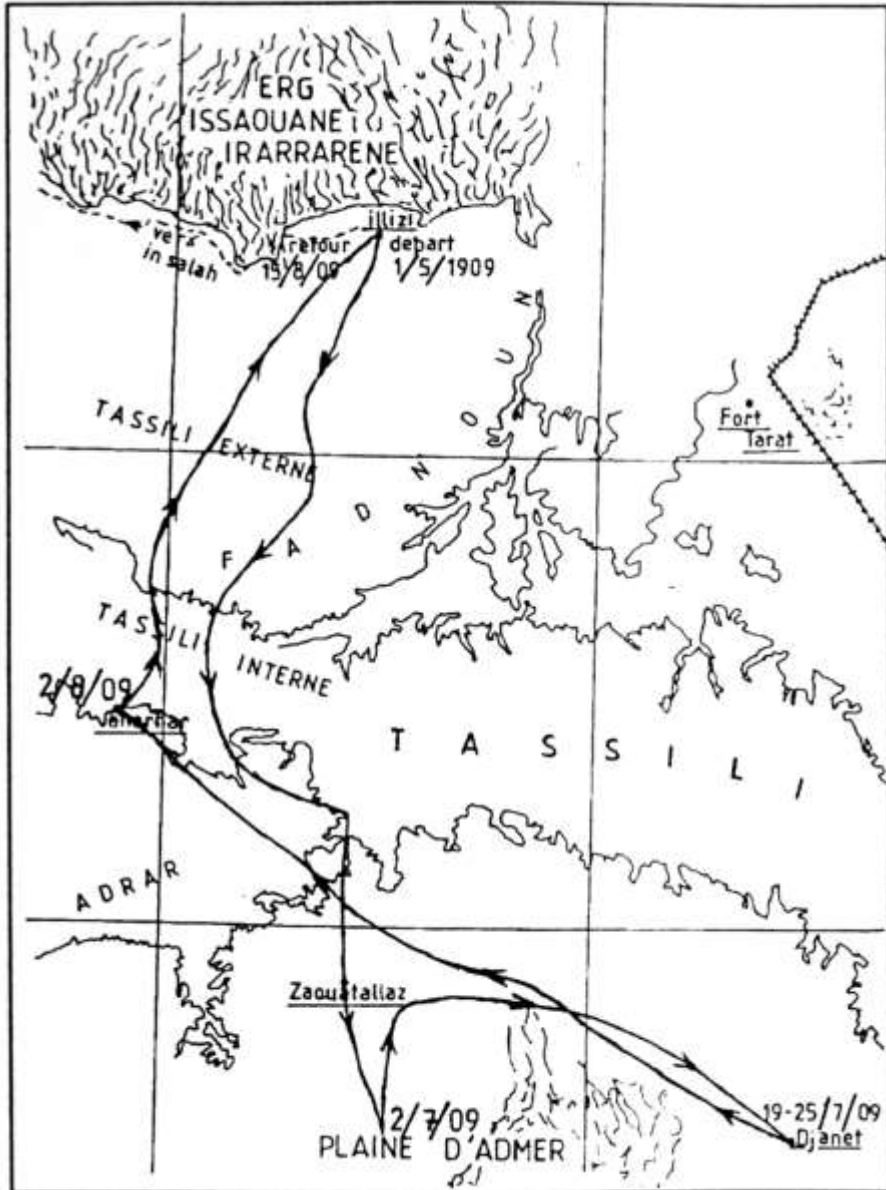
مسار مهمة فورو - لامي 1899



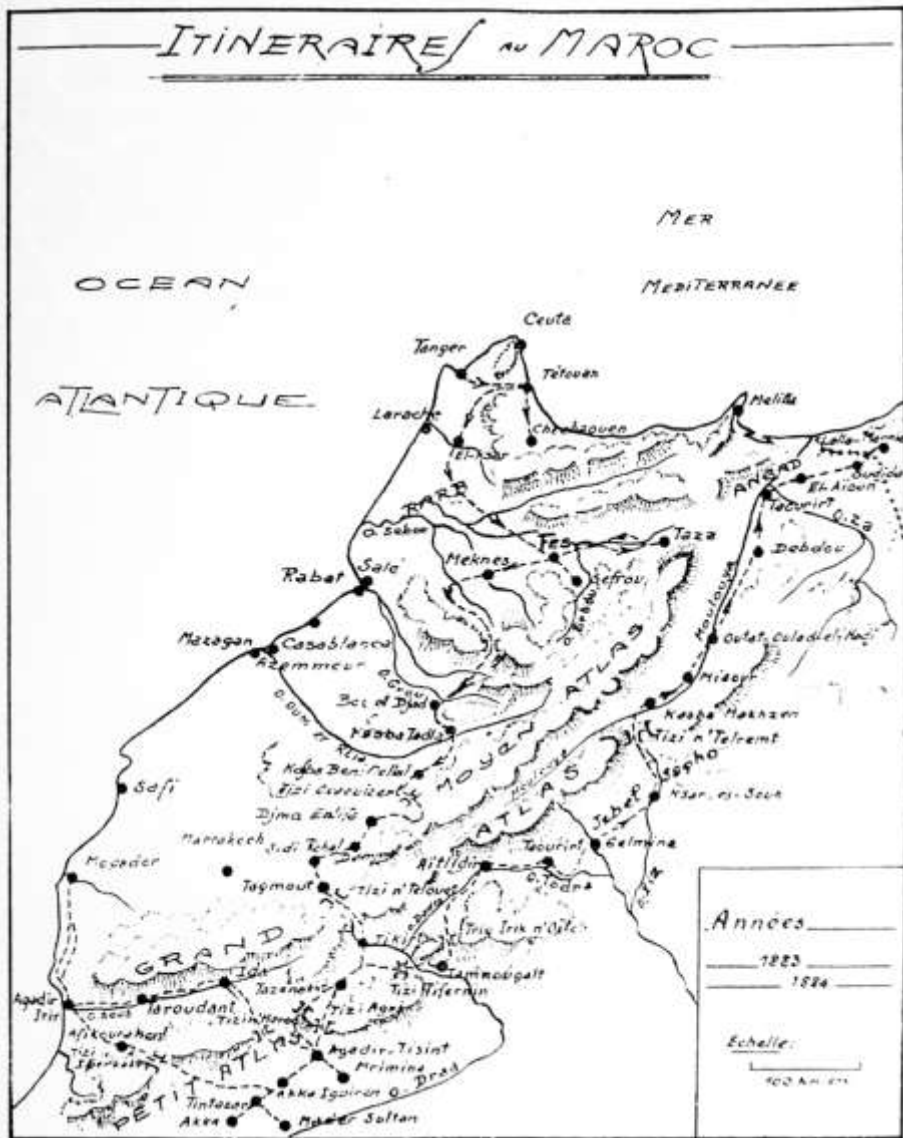




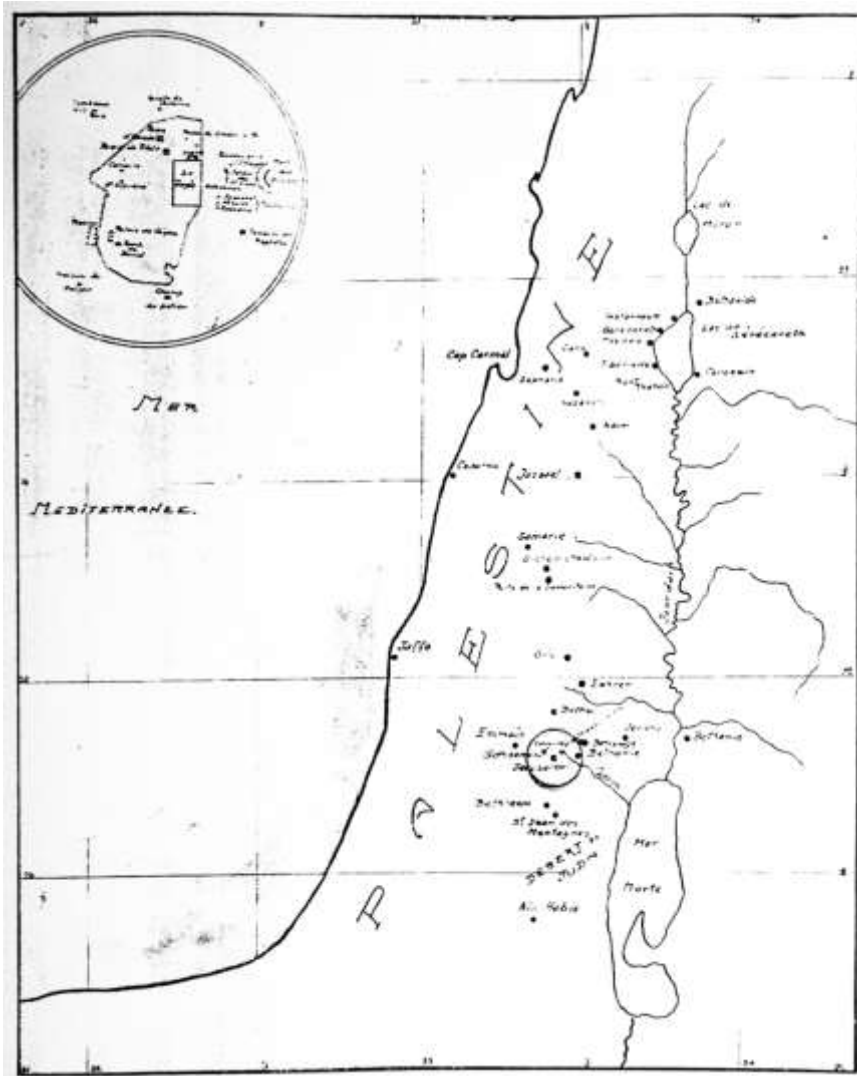




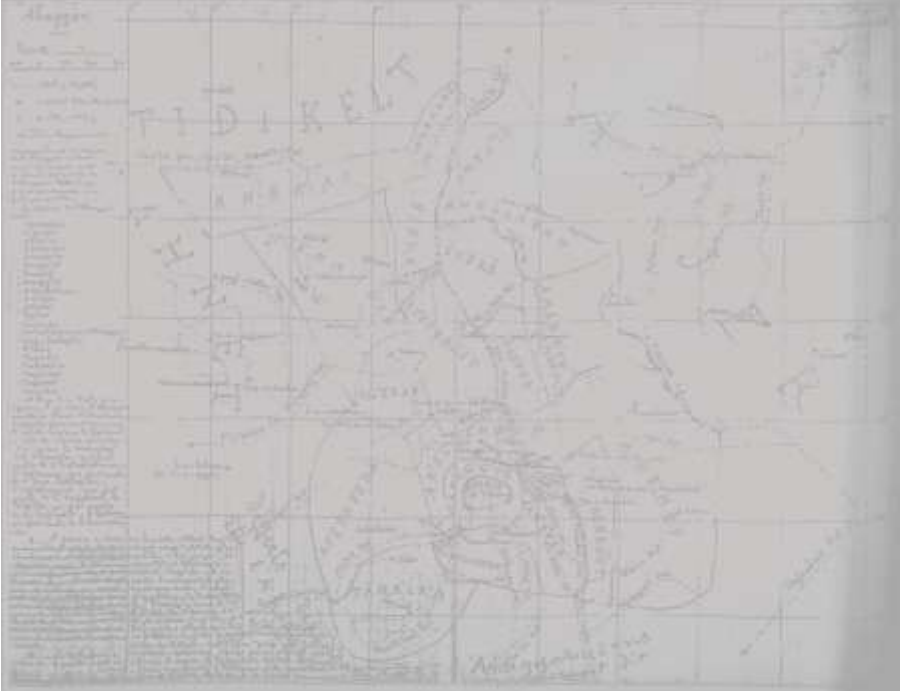
مسار النقيب نيجر 1909 Nieger



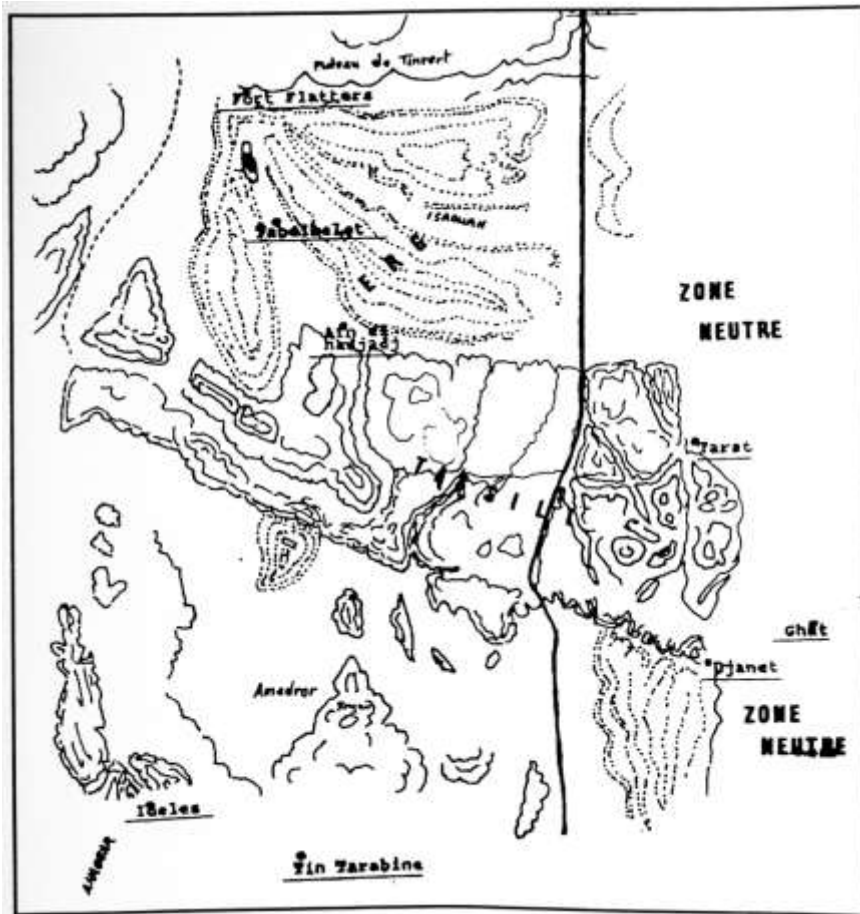
مسار الأب دي فوكولد أثناء مغامرته بالمغرب 1883-1884



مسار الأب دي فوكولد في الأماكن المقدسة 1888-1900



إحدى الخرائط التي رسمها فوكولد وتحمل تقسيما جغرافيا دقيقا للأقليم
و المسالك والوديان التي تتخلله

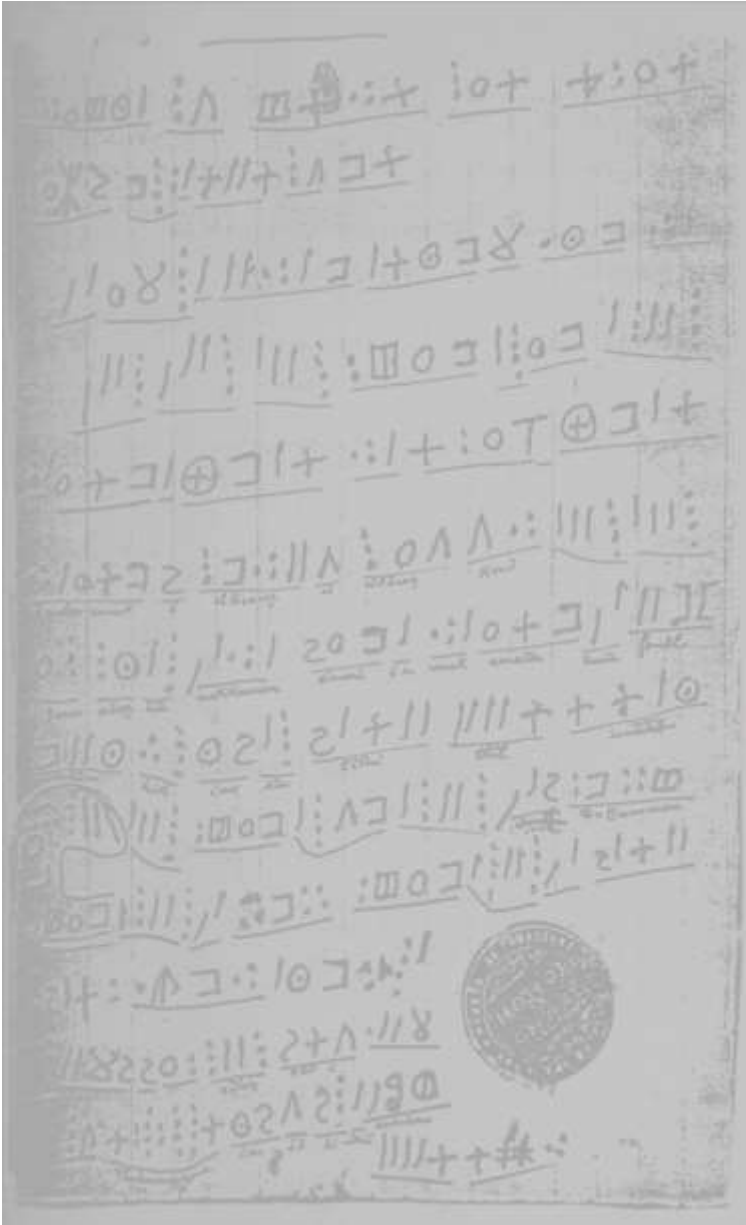


المنطقة المحايدة



الطابع الذي سلمته السلطات الفرنسية لموسى اق اماستان مع البرنوس الذي تم الاعتراف به ك أمنوكال . لقد ظهر في عدد من الرسائل المكتوبة بتيفناغ إلى الضباط الفرنسيين أو إلى الأب فوكولد ، لكن فقد هذا الطابع من طرف موسى اق أماستان أثناء مواجهة إحدى الغزوات في خريف عام 1914 ليستبدل بآخر.

المصدر: lettres au Marabout 1919, P13



إحدى الرسائل من موسى بـ أنسبرقا إلى الأب فوكولد بتمنراست مؤرخة
في (الثامن من شهر أوهيم وايزارن) الموافق لـ 06 مارس 1914



— هذا الكتاب من تأليف الأستاذ حسن مرموري، المولود عام 1968 بجانت ولاية إليزي.

— يشغل حاليا وظيفة مدير الثقافة لولاية الوادي

— حاصل على شهادة الليسانس في علم الاجتماع الثقافي، من جامعة الجزائر في 1992؛ وعلى شهادة الماجستير في علم الاجتماع السياسي من نفس الجامعة في

— أسس المعني جمعية تاغليفت التي يتولى رئاستها، وهي جمعية ذات طابع ثقافي اجتماعي و رياضي تعمل على ترقية الثقافة و حماية التراث عبر المهرجانات والتظاهرات الثقافية والرياضية

— فاز الأستاذ حسن مرموري بكتابه هذا بالجائزة الأولى في مجال التاريخ الوطني التي نظمتها المجلس كل سنتين، وذلك عن سنة 2010

المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين مرومفلت - الجزائر -

الهاتف 021-23-07-24-25

الفاكس 021-23-07-07

ص.ب 575 الجزائر ديدوش مراد

www.csla.dz

